كتابان في كتاب
تتمة وقائع الملف السري
لحرب الخليج

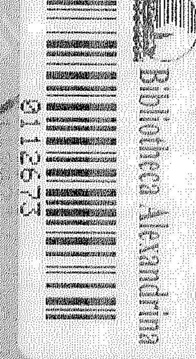
بيار سالنجر

إريك لوران

SECRET DOSSIER
THE HIDDEN AGENDA BEHIND THE GULF WAR
An insider view of the countdown to the crisis
PIERRE SALINGER
WITH ERIC LAURENT

حرب الخليج

تنتهي وقائع هذا الكتاب
مع نهاية الحرب العسكرية في الساعة
٢,٣٠ من صباح يوم ٢٨ فبراير
(شباط) ١٩٩١



المفكرة المخفية لحرب الخليج

رؤية مطلع على العد العكسي للأزمة

المفكرة المخفية لحرب الخليج

المفكرة المخفية لحرب الخليج

رؤية مطلع على العد العكسي للأزمة

بيار سالينجر
أريك لوران



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
بيروت - لبنان
ص.ب - ٨٣٧٥
هاتف: ٨٦٢٤٣١ - ٨٦٥٤٠٧
تلكس - ٢٢٦٦١
فاكس - ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧
بناية الوهاد شارع جان دارك - بيروت

الطبعة الثانية
١٩٩١م - ١٤١٢هـ

المقدمة

عندما غزا صدام حسين الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ كنت قد بدأت بقضاء عطلتي السنوية في جزيرة ننتوكت الواقعة قرب ساحل ماساشوستس. فاتصل بي قسم الأخبار الخارجية لشبكة إي بي سي للأخبار في مساء الأول من أغسطس ليخبرني عما حدث. وبالرغم من أنّ عطلتي امتدت اسبوعين آخرين فقد أخذت أتصل بمصادري الشرق أوسطية وأزود الشبكة بالمعلومات. وتبين أن المعلومات التي جمعتها خلال الأيام القليلة الأولى صحيحة تماماً.

وكنت قد أشرت فيها إلى أن صدام حسين سوف يستخدم رهائن غربية كترس بشري يحمي المواقع العسكرية الرئيسية، وإلى أنه سوف يطلق صواريخ سكود على السعودية وإسرائيل، وأن الملك حسين وياسر عرفات يقومان وراء الكواليس بمفاوضات تهدف إلى التغلب بسرعة على الأزمة. وعدت إلى لندن ثم توجهت إلى الشرق الأوسط ومكثت هناك عدة شهور زرت خلالها الاردن والعراق وسوريا وتونس. وكنت في تلك الأثناء على اتصال بمصادر الأخبار في مصر والسعودية والكويت.

وأدت اتصالاتي التي كانت في الغالب بأعلى المستويات المتيسرة إلى اكتشاف المخططين اللذين يؤلفان نص هذا الكتاب وهما: ما الذي حدث بين نهاية الحرب العراقية الايرانية في الثامن من أغسطس ١٩٨٨ وغزو الكويت في الثاني من اغسطس ١٩٩٠ والأحداث التي دفعت صدام حسين إلى القيام بالغزو، وكيف سعى العالم العربي جاهداً إلى حل المشكلة بسرعة وخصوصاً بواسطة الملك حسين. لكن الجهود العربية اصطدمت بضغط حكومة الولايات المتحدة الأميركية على الدول العربية لكي تندد بالغزو.

موضوع هذا الكتاب ليس الحرب. إنه يبين لنا أنه كان في الإمكان تجنب الحرب. فلدى نظرنا في الأزمة صار من الواضح أن قلة من الأقطار التي انضمت إلى التحالف المناهض للعراق كانت راضية عن دكتاتورية صدام ووحشيته، وعليه فإنها لم تكن في الحقيقة تحبذ حلاً سلمياً يسمح ببقائه في الحكم واحتفاظه بأسلحته. لكن هذا الكتاب

يبين لنا أيضاً أن الغرب والاتحاد السوفييتي اللذين اجتمعا على مناهضة العراق هما المسؤولان عن تسليحه. ومن الواضح أيضاً أن الولايات المتحدة كانت منذ بداية عام ١٩٩٠ توجه إلى العراق رسائل مختلفة تقنعه بأن قيامه بعمل عسكري ضد الكويت لن يدفع الولايات المتحدة إلى الانتقام منه. وكان كل من صدام حسين والأميركيين لا يفهم أحدهما الآخر وعقليته. ولم يدرك صدام حسين معنى تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. فعندما غزا الكويت كان مقتنعاً بأنه إذا تدخلت الولايات المتحدة ضده فإن الاتحاد السوفييتي سيقف إلى جانبه. وظل مدة طويلة لا يصدق تهديدات الرئيس بأن التحالف الذي يتزعمه الأميركيو ن لن يوافق على بقائه في الكويت. وكانت النتيجة اندلاع الحرب.

الفصل الأول

«سوف أنتقم»



شهد الثامن من أغسطس ١٩٨٨ نهاية الحرب العراقية الايرانية، لكن لم يخطر ببال أحد عندئذ بأن هذا التاريخ سوف يشكل بداية أزمة الخليج في عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ .

وكان قيام طهران أولاً باقتراح وقف لاطلاق النار كافياً لاعتبار العراق المنتصر في ذلك النزاع الذي امتد ثماني سنوات وحصد أرواح ما يقرب من مليون من البشر. والواقع أن العراق خرج من الحرب قوياً ولكن الحرب استنزفت موارده. كان لا يزال أقوى دولة في المنطقة: ٥٥ فرقة مقابل عشر فرق عام ١٩٨٠ ؛ مليون جندي مدرب تدريباً جيداً؛ ٥٠٠ طائرة و ٥٥٠٠ دبابة. لكن الكارثة المالية لم تكن تقل ضخامة. فعندما بدأت الحرب كانت لديه مدخرات قدرها ثلاثون بليوناً من الدولارات. وعندما انتهت كانت ديونه قد بلغت مئة بليون دولار. ولهذا السبب لم يترك صدام حسين مناسبة واحدة إلا واغتنمها ليقوم بابلاغ جميع زواره الأجانب الذين كان يستقبلهم في قصره الفخم وسط بغداد أنه كان خلال الأعوام الثمانية الماضية «الدرع الواقي للأخوة العرب من التهديد الفارسي» وأنه يتوقع أن تقوم «أكثر الأقطار العربية ثراء وهي السعودية والإمارات العربية المتحدة والكويت بالعون والمساعدة في تسديد كامل ديوننا».

في التاسع من آب عام ١٩٨٨ ، غداة وقف إطلاق النار بين العراق وإيران أخذت الكويت قراراً بزيادة انتاجها النفطي، مخالفة بذلك الاتفاقات المعقودة في اطار منظمة الأوبيك. وقد تم التركيز الكويتي في تحقيق هذه الزيادة الانتاجية على آبار الرميلة الواقعة في المنطقة الحدودية المتنازع عليها مع العراق والتي كانت موضوعاً في السابق لمناقشات دبلوماسية صاخبة.

واعتبر صدام حسين مبادرة الكويت إلى زيادة انتاجها من النفط استفزازاً وخيانة ومن شأنه أن يزيد أزمة زيادة الانتاج وانخفاض الأسعار حدة وأن يؤدي إلى انخفاض دخل العراق الذي يعتمد في ٩٠٪ من موارده على النفط بمقدار ٧ بلايين دولار أو ما يساوي فوائد ديونه. وكان هذا بمثابة خنقه ببطء.

من ناحية أخرى لا يمكن تصور بلدين هما على طرفي نقيض كالعراق والكويت.

ففي العراق تتركز السلطات في شخص حاكم مطلق التصرف يعيش هوس أحلام السلطة والقوة. وفي مواجهة العراق، البلد المتقشف الذي يعد ١٨ مليوناً من البشر يعانون مختلف أشكال الحرمان، تتربع إمارة الكويت على الثروة والوفرة حيث يتقاسم ما يوازي الألف من أفراد أسرة آل الصباح الحاكمة المناصب المختلفة إضافة إلى السلطة والأرباح وكأنهم أعضاء مجلس الإدارة في أي شركة من الشركات المزدهرة. أما الاستثمارات الكويتية في الخارج فكانت تتجاوز ١٠٠ مليار دولار وتؤمن للإمارة حوالى ٦ مليارات من الدولارات سنوياً، أي أكثر من عائدات البترول ذاتها. وكان على رأس المستفيدين من هذه العوائد ٧٠٠,٠٠٠ شخص يحملون الجنسية الكويتية. أما غير الكويتيين من فلسطينيين وايرانيين وباكستانيين وغيرهم البالغ عددهم حول ١,٢٠٠,٠٠٠ شخص والذين يديرون اقتصاد البلاد فلم يكن نصيبهم منها إلا فتات الموائد.

والمال في الغالب يجعل صاحبه متعجرفاً أعمى البصيرة. وهذا هو ما أصاب زعماء الكويت وجعل بالتالي وقوع المأساة أمراً حتمياً. لقد عجزوا عن قراءة النذر بوقوعها فكانت الحرب المأساوية.

وقبيل ظهر ١٢ فبراير عام ١٩٩٠ يوم ذكرى مولد الرئيس أبراهام لنكولن وصل جون كيلي إلى بغداد. وكان في أواخر الأربعينات من عمره متوسط الطول شعره أسمر وتتميز حركاته بالهدوء والرزانة. وهو دبلوماسي محترف متخصص في الشؤون الأوروبية. ولم يحتل في الشرق الأوسط سوى منصب واحد وهو سفير بلاده في لبنان وكانت هذه هي زيارته الأولى للعراق وبوصفه مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط.

كان الطقس بارداً وسفيرة الولايات المتحدة في العراق إبريل غلاسبي تنتظره عند سلم الطائرة بصحبة اثنين من المسؤولين العراقيين. وكانت غلاسبي ذات الملامح البارزة والوجه الصارم قد انخرطت في السلك الدبلوماسي بعد تخرجها من جامعة جون هوبكنز وتتكلم العربية بطلاقة. واحتلت عدداً من المناصب وخصوصاً في تونس ودمشق قبل أن تتولى إدارة الشؤون الأردنية والسورية واللبنانية في وزارة الخارجية. وكانت عازبة وتعيش في بغداد مع أمها وكلبها، ولم تكن حتى مجيء كيلي قد ظفرت بمقابلة خاصة مع صدام حسين.

كانت تقارير الإدارة الأميركية عن الزعيم العراقي تدور حول ثلاثة محاور رئيسية: أولا قدرته ورغبته في أن يصبح الزعيم الحقيقي للعالم العربي وثانياً إعجابه الشديد بجمال عبد الناصر وسحر زعامته وحبه في أن يكون مثله وثالثاً تقاربه مع الغرب. وكانت هذه النقطة الثالثة برأي كيلي ومستشاريه الأكثر أهمية. فعندما هاجمت القوات العراقية ايران عام ١٩٨٠ كان النظام البعثي يعتبر من أقوى حلفاء موسكو في المنطقة. وبعد توقيع اتفاقيات كامب ديفد عام ١٩٧٨ رئس العراق جبهة الرفض التى استهدفت عزل القاهرة ومعاقبتها على تقاربها مع الدولة اليهودية. وفي ذلك الوقت كان العراق ملجأ لأكثر الجماعات الفلسطينية الإرهابية عنفا وفي مقدمتها أبو نضال ورجاله.

على أن العراق خرج من حرب السنوات الثمانية مع ايران أقرب إلى الغرب من أي وقت مضى. إذ كان اقتصاده أكثر ارتباطا بالأقطار الغربية منه بالاتحاد السوفييتي، وفي ترسانة أسلحته أسلحة من الغرب وخصوصاً من فرنسا لا تقل حجماً عن الأسلحة السوفييتية. ودفع هذا كله الأميركيين إلى المجازفة بأموالهم في العراق بوصفه قوة ضخمة تعمل على الاستقرار في المنطقة.

استقبل صدام حسين جون كيلي بعد ظهر الثاني عشر من فبراير ١٩٩٠. وكانت المقابلة هي الأولى مع أحد الرسميين الاميركيين منذ زمن بعيد. وبادر المبعوث الاميركي مضيفه، خلال تبادل التحيات، بقوله: «انتم قوة اعتدال في المنطقة وتتمنى الولايات المتحدة إقامة أوثق العلاقات مع العراق».

لقد سرّ صدام حسين بهذا الاطراء وغمره شعور بالفخر، كما قال لدى سماعه ذلك، وقام بعد ساعات من المقابلة بنقل ما دار فيها إلى عدد من زعماء الدول العربية وكان أول من اتصل به هاتفياً هو الملك الاردني حسين.

وبهذا أبلغ كيلي الرسالة الأولى من سلسلة طويلة من الرسائل المبهمة والمتناقضة التي سوف تكون لها نتائج خطيرة.

وفي ١٥ فبراير وبعد المقابلة بثلاثة أيام بثت اذاعة «صوت أميركا» برنامجاً قالت إنه يعكس وجهة نظر الحكومة الأميركية وأهابت فيه بالرأي العام العالمي أن يتحرك ضد الدكتاتوريين الذين يحكمون في مختلف اقطار العالم. وذكرت العراق وأدانت صدام حسين بوصفه أسوأ دكتاتور في العالم. فغضب الرئيس العراقي غضباً شديداً. ولم ينفع

معه الاعتذار الذى قدمته واشنطن عبر سفارتها في بغداد. ورفض قبول القول بأن إذاعة «صوت أميركا» قد تعبر عن رأي يخالف الرأي الرسمي، وإذ جاء هذا الحادث بعد أطراء كيلي عليه مباشرة فقد اتخذه صدام دليلاً على أن الأميركيين يقومون بلعبة مزدوجة.

ومما رسّخ قناعته هذه، قيام وزارة الخارجية الاميركية، يوم ٢١ فبراير بنشر تقرير عن حقوق الإنسان خصّت العراق بعدد من صفحاته تجاوز ١٢ صفحة وصفت فيها الحكومة العراقية بأنها أسوأ منتهك لحقوق الانسان، وأشارت إلى ممارسة هذه الحكومة المتكررة للتعذيب والاعدامات السريعة دون محاكمة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد لأن لجنة الشؤون الخارجية في الكونجرس الأميركي أرادت، بعد صدور هذا التقرير، تبني قرار يدين «العراق لخرقه الفاضح لحقوق الانسان» مما دفع بإدراة الرئيس بوش إلى الاحتجاج على هذه الخطوة والحؤول دون تبنيها من قبل مجلس النواب.

وكشفت جميع هذه الاشارات المتناقضة عن أن الادارة الأميركية لم تكن مهتمة اهتماماً جديا بما يحدث في الشرق الأوسط، وأن العراق والمنطقة ليسا بين أولوياتها. فالرئيس بوش وزملاؤه، وعلى الأخص جيمس بيكر وزير الخارجية كانوا يركزون اهتمامهم وطاقتهم في الحوار الأميركي السوفييتي وفي تفجر الديمقراطية الرائع في اوروبا الشرقية.

وفي ٢٣ فبراير ١٩٩٠ وصل صدام إلى عمان. وبقي مسار الرحلة وموعد الوصول سراً حتى اللحظة الأخيرة. فخوفاً من الاغتيال ركب طائرة خاصة بلا إشارات مميزة. أما الطائرة التي كان يستخدمها في الرحلات الرسمية فكانت قد هبطت في عمان قبل ساعات وعلى متنها زملاؤه وحرسه. وعندما استقبله الملك حسين كان يبدو قلقاً ومتوترا. وكان قد جاء إلى عمان للمشاركة في احتفالات الذكرى السنوية الأولى لمجلس التعاون العربي. وفي حين أن الملك حسين كان يعلق آمالاً كبيرة على المجلس الذي كان يضم العراق والأردن ومصر واليمن، فان صدام حسين لم يكن يعيره اهتماما خاصاً. والواقع أن المناسبة لم تثر أيضاً اهتمام العرب والصحفيين الأجانب في عمان. ومما يذكر أنه لم يكن بوسع أحد عندئذ أن يتنبأ بما سيقال في الاجتماع وخصوصاً وراء الكواليس.

وألقى صدام خطاباً شديد اللهجة تنبأ فيه بأن تراجع قوة موسكو سوف يطلق يد

الولايات المتحدة في الشرق الأوسط خلال السنوات الخمس القادمة على نطاق لم يسبق له مثيل. قال: «ألا تقوم واشنطن الآن بمساعدة اليهود السوفييت على الهجرة إلى إسرائيل؟ ألا تقوم كذلك بتسيير دورياتها في الخليج بالرغم من انتهاء الحرب العراقية الايرانية؟» وقال صدام في خطابه الذي أذيع من عمان بأن دوافع أميركا واضحة. قال:

«إن البلاد التي ستمارس أكبر نفوذ في المنطقة وتهيمن على الخليج وبتروله سوف توطد تفوقها كقوة عظمى لا تُنافس. وهذا يبرهن على أن أهل الخليج وسائر العرب الآخرين في غفلة عما يجري وأن المنطقة ستحكم وفقاً لمشيئة الولايات المتحدة. وستقوم هذه بتحديد سعر البترول بشكل يخدم مصالحها لا مصالح الآخرين».

كانت رسالة صدام لزملائه واضحة وهي أن هيمنة العراق على الخليج لا هيمنة الولايات المتحدة هي التي تخدم مصالح العرب على أفضل وجه.

على أن ما قاله صدام أثار غضب الرئيس المصري حسني مبارك حليف أميركا الرئيسي في المنطقة. فالقاهرة كانت تتلقى سنوياً من واشنطن أكثر من ملياري دولار على شكل مساعدات.

واقترح صدام في خطابه أن تسحب أرصدة البترول المستثمرة في الغرب لتغيير السياسة الأميركية. وقال: « ليس هناك مكان بين العرب الأخيار للجبناء الذين يذهبون إلى أنه ينبغي أن يترك أمر اتخاذ القرارات لقوة عظمى هي الولايات المتحدة وأن على الجميع الرضوخ لها.

خرج مبارك، الذي اعتبر هذه الكلمات هجوماً شخصياً عليه، من القاعة ولحق به الوفد المصري. وقال للملك حسين الذي بدت على محياه علائم القلق والذي كان قد تبعه بعد وقت قصير:

ـ لا يمكن السكوت على كلام كهذا. سوف أعود إلى مصر.

وفي محاولته تلطيف الأجواء، اقترح الملك حسين تنظيم لقاء مع الرئيس العراقي لازالة سوء التفاهم. فرفض مبارك أول الامر هذا الاقتراح بشدة ثم عاد واقتنع بالحجج التي قدمها الملك الأردني. وهكذا اجتمع الثلاثة مساء ٢٤ في القصر الهاشمي حيث كان الملك حسين يقطن قبل مصرع زوجته الملكة عالية إثر حادث تحطم طائرة

هليكوبتر. كان جو اللقاء متشنجاً شديد الوطأة. وبدل أن يحاول صدام حسين تهدئة الأمور أعلن مطالب محددة وتكلم بلهجة لا مجال للمسايرة فيها وأشار إلى ٣٠ مليار دولار من الديون التي كانت العربية السعودية والكويت قد منحتها للعراق خلال الحرب مع ايران. وقال: «إذا لم يلغوا تلك الديون ويقدموا لي ٣٠ مليار دولار إضافية سوف أقوم بالانتقام.»

ولما استبد الغضب بمبارك قال: «إن مطالبك غير معقولة. وسوف تخلق متاعب كثيرة.» ثم خرج من الاجتماع وعاد إلى القاهرة. فاضطر الملك حسين الى الغاء اليوم الثاني من مناقشات المجلس.

على أن خطاب صدام أثار موجة عارمة من الاعجاب والاستحسان لكنه في الوقت ذاته أثار القلق وخصوصاً في الكويت والسعودية اللتين كانتا تخشيان قيام بغداد بهجوم مباغت بالصواريخ يتبعه اجتياح شامل أو القيام بسلسلة من الأعمال الارهابية تستهدف أفراداً من الأسرتين المالكتين.

وفي الرياض، بادر المسؤولون السعوديون الى الإتصال بشعبة وكالة الاستخبارات المركزية فيها وأبلغوها تهديدات صدام حسين. وقامت هذه الشعبة، بدورها، بنقل المعلومات الى مركز القيادة العامة في لانغلي قرب واشنطن. ولكن لم يصدر أي رد فعل من الادارة الأميركية. وكانت النتيجة العملية الوحيدة هي قرار وكالة الاستخبارات المركزية بوضع العراق تحت الرقابة الدائمة وتكثيف عملية جمع المعلومات حوله. وقد واجهتها في تحركها هذا صعوبة الركون الى مصادر معلومات جديرة بالثقة. لأن السيطرة التامة على قنوات السلطة في بغداد كافة كانت معقودة بحزم لصدام حسين ولأفراد أسرته عن طريق البوليس السري الذي يتمتع بحضور كثيف وفعالية كبيرة. وكان وليم كيسي مدير وكالة الاستخبارات المركزية في عهد ريغن قد اعترف بأنه ليس للوكالة عميل ماهر واحد في العراق وأن الوضع لا يزال على حاله.

***

وفي تلك الأثناء كانت العواصم العربية الرئيسية تتداول تقريراً سرياً حول الوضع الاقتصادي في العراق وضعه مصرفي من أصحاب النفوذ في الشرق الأوسط.

يستهل المصرفي تقريره بالتذكير بالفترة من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٠ ـ أي السنة التي

شهدت بداية الحرب ضد ايران ويشير إلى ارتفاع عائدات البترول العراقية فيها من مليار إلى ٢٥ مليار دولار. ويضيف أن الوضع في بداية ١٩٩٠ لم يكن يبشر بالخير. ثم يقول:

«إن صورة السبعينات البراقة تلاشت وحل محلها وضع اقتصادي مظلم، وخراب واسع في جميع أنحاء البلاد، وضياع الأمل بالنسبة للأجيال القادمة. ترى هل هناك ما يمكن عمله لتغيير هذا الواقع المؤلم؟ يحزنني أن أقول إنه في ظل الحكومة الحاضرة لا بد وأن يسير الوضع من سيء إلى أسوأ.»

ثم يشير صاحب التقرير إلى أن تراكم الديون وعجز بغداد حتى عن دفع فوائدها «سوف يحمل الحكومة على انتهاج سياسة متهورة خطرة فتقبل على الاستدانه بفائدة تبلغ ٣٠٪ في السنة. ويكشف التقرير عن حقيقة تثير الدهشة وهي أن العراق كان في عام ١٩٨٩ أكبر مستفيد في العالم من «برنامج المجتمع الأميركي لتقديم التسهيلات المالية» الذي يستهدف بيع المنتجات الزراعية الأميركية في الخارج.

ولعل أكثر فقرات التقرير أهمية هي الفقرة الأخيرة التي تنبأت بكثير من وضوح الرؤية بوقوع ما وقع بالفعل. فقالت «إن صدام حسين يدرك الآن تماماً حقيقة وضعه المالي». فما هي الخيارات المتاحة له في العراق ذاته؟ إنها محدودة جداً. لكن الكويت موجودة دائماً على بعد أمتار من حشود قواته المرابطة على شط العرب. والعراق بحاجة إلى منفذ إلى مياه الخليج المفتوحة.

وكانت هناك دلائل على المصاعب التي تواجهها بغداد في كثرة من مشروعاتها الطموحة والمتعثرة مثل بناء شبكة من الطرق تحت أرض بغداد ومن أكثر من ١,٨٠٠ ميل من السكك الحديدية وبناء سدين مائيين الكترونيين.

***

وهناك مراقب آخر للخلافات المتفاقمة داخل «الأسرة العربية» التي كان صدام كثيراً ما يشير اليها في خطاباته وأحاديثه الخاصة وهو الملك حسين، فخلال حكمه الذي امتد ٣٧ عاما ولفت الأنظار بضعفه من ناحية وبقدرته على البقاء من الناحية الأخرى كان أكثر إحساساً من أي شخص غيره بالمؤشرات التي تنذر بالأزمات الوشيكة. كان يدرك أن تعرض المنطقة لهزة سياسية أخرى قد تعرض وجود بلاده ذاته للخطر. فالاردن الذي يضم ثلاثة ملايين من السكان ـ ٦٠٪ منهم من الفلسطينيين ـ

ويفتقر إلى الموارد يمكن إزالته عن الخريطة بسهولة. وقال الملك حسين لأحد زائريه بصوت رزين لا أثر فيه للانفعال:

«إنني أشعر بتزايد التوتر على نحو شبيه بما حدث قبيل حرب عام ١٩٦٧. ولم أشعر خلال السنوات الأربعين الماضية بأن المنطقة بلغت مفترق الطرق الذي تشهده الآن».

وكان الملك حسين يتحدث ووراءه صورة لصدام حسين.

كان الرئيس العراقي حليفا وفي الوقت ذاته مصدر قلق للملك حسين، إذ كان شريكاً لا يمكن للأردن الضعيف أن يسيّره وزعيماً قد يزعزع توازن القوى الهش في المنطقة بطموحاته المعلنة.

وبعد فشل لقاء عمان في ٢٤ فبراير اقترح الملك على الرئيس العراقي أن يقوم بنفسه بجولة تشمل دول الخليج في محاولة منه للسعي إلى اتفاق بين الكويت والعربية السعودية والعراق. وبالفعل قام في ٢٦ فبراير برحلة استغرقت ثلاثة أيام وشملت مختلف عواصم المنطقة وأجرى خلالها محادثات مكثفة مع الزعماء الخليجيين، ثم عاد إلى عمان في الأول من آذار منهوك القوى. وفي صباح الثالث من آذار اتصل به صدام حسين وقال. «الطائرة في طريقها إليك أنا في انتظارك ببغداد».

اجتمع الرجلان أربع ساعات قدم خلالها الملك حسين تقريراً مفصلاً عن جولته، وسرعان ما تبين ان المفاوضات وصلت الى الطريق المسدود، لأن الملك الهاشمي لم يتلق أي اشارة إيجابية من زعماء الخليج فيما يتعلق بأهداف صدام حسين الثلاثة: تسوية الخلافات الحدودية مع الكويت وبالأخص حقول الرميلة الغنية التي تقع في المنطقة المتنازع عليها. الموافقة على تأجيره جزيرتي وربة وبوبيان اللتين تؤمنان له منفذاً على الخليج، وتسوية مشكلة الديون المتراكمة على العراق خلال الحرب مع ايران.

وأبلغ الملك حسين الرئيس العراقي أن أمير دولة الكويت يرفض المفاوضات المباشرة حتى يعترف العراق رسمياً بسيادة واستقلال الكويت. ومن الجدير ذكره هنا ان حكومة بغداد كانت قد اعترفت عام ١٩٦٣ باستقلال الكويت إلا أن مجلس الثورة لم يلبث أن الغى هذا القرار.

لم يظهر الغضب على وجه صدام حسين الذي كان جالساً على كنبة واسعة ومريحة، يشعل بين الحين والآخر سيجارة، ويتابع باهتمام شديد ما يقوله الملك الهاشمي كما لو كان يتوقع تلك النتيجة السلبية.

وعند نهاية الاجتماع عبر صدام عن جزيل شكره لزائره على الجهد الذي بذله، وأبلغه أنه يأمل «مع الوقت أن تسود الحكمة والارادة الطيبة بالنسبة لهذا المسألة» ولم يكن من الأمور العادية صدور مثل هذه الكلمات الرصينة التي تغلب عليها روح التوفيق عن رجل عود زملاءه على الخوف من نوبات غضبه (وكان حسني مبارك الذي لم يُـخف نفوره من صدام قد وصفه أمام عدد من الزعماء العرب بأنه «مضطرب الشخصية»).

ولم تكد تمضي ثلاثة أيام على عودة الملك حسين حتى دعا صدام جميع أعضاء القيادة العليا إلى اجتماع سري وأمرهم بأن يضعوا الخطط لحشد القوات على الحدود مع الكويت.

وسرعان ما اشتد التوتر. وفقد الكويتيون بعد النظر الذى كانوا يتحلون به. فبالرغم من أن الفرق العراقية لم تكن قد تحركت بعد باتجاه الحدود فإن مسؤولاً كويتياً كبيراً أسر للأردنيين خلال مروره بعمان بأن « صدام حسين لا يريد الجزيرتين وحدهما بل الكويت برمتها».

الفصل الثاني

تاريخ يسوده العنف

ظلت لندن طوال قرن من الزمن تعتبر الخليج أرضا بريطانية تتيح لها السيطرة على الطريق إلى الهند والشرق الأقصى. وتضافر عزم بريطانيا الواضح على أن لا يكون لغيرها نفوذ في المنطقة مع دهاء دبلوماسييها على زرع بذور النزاع الحالي.

وحتى الحرب العالمية الأولى كان العراق والكويت يشكلان جزءاً من الامبراطورية العثمانية. والواقع أن الكويت بمساحتها الصغيرة البالغة حوالي ١٠,٠٠٠ ميل مربع كانت تابعة لولاية البصرة. وفي عام ١٩١٣ وبينما كان يشتد قرع طبول الحرب في اوروبا وقع الانجليز والأتراك اتفاقية تمنح الكويت الحكم الذاتي. وفي خضم الحرب التي قاتل فيها الأتراك إلى جانب الألمان اعترفت لندن بامارة الكويت وبحدودها واستقلالها عن الامبراطورية العثمانية.

على أن تجزئة هذه الامبراطورية الذي أوجد لبريطانيا حليفاً استراتيجياً لم ترض العراقيين الذين انكروا حرمانهم من منفذ إلى الخليج وفقد منطقة لم يسبق أن كانت تتمتع بوجود مستقل.

ثم إنه كان هناك سبب آخر لغضب العراق الذي وقع عام ١٩١٨ تحت الانتداب البريطاني. ففي عام ١٩٢٥ أجبرت حكومة بغداد على توقيع اتفاق مع كونسورتيوم ضخم للشركات باسم شركة البترول العراقية (IPC). وأكدت الاتفاقية على أن الشركة ستظل بأيدي البريطانيين وعلى أن يكون مديرها من رعايا بريطانيا وأن يظل الامتياز نافذاً إلى عام ٢٠٠٠. وهكذا أطلقت يد الشركة في استغلال أكبر حقل للنفط في التاريخ والحصول على أرباح خيالية.

والواقع أن الكيان العراقي كان كياناً مصطنعاً كالكويت وكحدود الدول في المنطقة. ففي أعقاب اتفاقية سايكس بيكو التي قسمت الغنائم من الدولة العثمانية بين بريطانيا وفرنسا جرى إنشاء العراق من ثلاث ولايات تركية وهي بغداد والبصرة والموصل. وقد لخص أحدهم هذا الوضع تلخيصا رائعا بقوله: «لقد كان العراق من صنع تشرتشل الذي خطرت له فكرة جنونية وهي الجمع بين حقلي نفط متباعدين وهما

كركوك والموصل وذلك بدمج ثلاث فئات من الناس وهي الأكراد والسنة والشيعة . »

وربما كانت هذه الولادة الصعبة غير المتوازنة هي التي جعلت من تاريخ العراق الحديث سلسلة متواصلة من أعمال العنف. وفي عام ١٩٥٨ أطاحت الثورة بالحكم الملكي الموالي للغرب وقتلت الجماهير الغاضبة الملك فيصل ورجمت رئيس وزرائه نوري السعيد وقضت عليه. وبعد ذلك بسنتين نجا عبد الكريم قاسم زعيم الثورة بصعوبة من محاولة لاغتياله. وكان بين الذين حاولوا اغتياله شاب في الثانية والعشرين من عمره وهو صدام حسين الذي استطاع الهرب إلى سوريا بالرغم من إصابته بجروح.

وفي عام ١٩٦٢ رفعت الجماهير الغاضبة رأس قاسم على مِنْخس وطافت به الشوارع. وفي عام ١٩٦٨ استولى حزب البعث على السلطة. وكان هذا انتصاراً لصدام الذي اعتبر رجل النظام القوي. وبالرغم من أنه احتل منصب نائب رئيس مجلس الثورة فإنه كان أقوى رجل في البلاد.

وكان ولا يزال يسيطرعلى مختلف دوائر الأمن ثلاثة من اخوته غير الاشقاء وهم برزان وسبوي ووثبان. أما صهره حسين كمال المجيد فكان المسؤول المباشر عن المذابح التى تعرض لها الأكراد وعن استخدام الأسلحة الكيماوية ضد السكان المدنيين. وهو مفتاح كل مشتريات الدولة من السلاح ويتقاضى عمولة على كل صفقة. ويقال إن مكاسبه من شراء ١٢٠ من صواريخ سكود عام ١٩٨٧ بلغت ستين مليون دولار.

كان يجمع بين هذه المجموعة الصغيرة المتربعة على سدة الحكم لا دمها فقط بل ودم الآخرين. فعُدي الابن البكر لصدام ظل يضرب حارسا من حراس أبيه أمام ضيوفه حتى قضى عليه. فغضب صدام وهدد بقتله. فطلبت زوجته ساجدة من أخيها عدنان خير الله وزير الدفاع التوسط لدى صدام. وبالرغم من أن هذا عفا عن ابنه فلم يغفر إطلاقا لوزير الدفاع مع أنه صهره وقريبه. فأمر بقتله. لكن قيل إنه قتل بحادث تحطم طوافة.

إن العنف هو سلاح صدام حسين الرئيسي. وعندما بلغ قمة السلطة احتفل بالمناسبة بإعدام ٢١ من أعضاء وزارته وبينهم واحد من أقرب أصدقائه إليه وقال عنه: «كان أقربهم إليّ لكنه ابتعد عني».

***

وبعد سنة دعا عددا من وزرائه وزملائه إلى سجن بغداد المركزى لكي يشكلوا فريق إعدام. وكان ضحايا هم من السجناء السياسيين. وكانت هذه طريقته في جعل من تحدثهم انفسهم بمعارضته يرون ما سيحل بهم. ووصف هذا المشهد بعبارة شديدة السخرية بقول: «إن اولئك الأشد إخلاصاً هم الذين نكتشف أنهم مذنبون.»

لم يكن صدام في الأصل جندياً. لكنه يكن للجيش إعجاباً شديداً مشوبا بالحذر. فهو يريد له أن يكون قوياً ولكن مطيعاً في الوقت ذاته. ويحب أن يظهر في زي قائد الجيش لكن الضباط الكبار يشعرونه بالنقص ويعتبرونه مدعياً. وهذا هو السبب في الاكثار من تطهير الجيش على نطاق واسع. وخلال الحرب العراقية الايرانية أشيع أنه جرى إعدام كثرة من كبار قادة الجيش. وقال بصراحة: «لم يعدم سوى قائدي فرقتين وقائد وحدة ميكانيكية. وهذا أمر عادي في الحروب.

ومع هذا انبرى له أحد الضباط في اجتماع للقيادة العليا وأخذ ينتقد خطته الهجومية. فاستمع صدام إلى انتقاداته ثم سحب مسدسه الذى يحمله دائما في حزامه وأطلق النار على رأسه.

وفي عام ١٩٨٨، بعد وقف المعارك بقليل، زج بالمئات من الضباط في السجون وتمّ إعدام العديد منهم فيما بعد. وفي عداد الذين اختفوا إلى الأبد بطل من أبطال الحرب هو الفريق ماهر عبد الرشيد والد زوجة أحد ابنائه.

من ناحية أخرى، صدر تقرير عن حقوق الإنسان عام ١٩٩٠ يؤكد واضعوه أن «العراق أصبح في ظل حزب البعث أمة من المخبرين». وهذا التعريف مؤلم وصحيح في الوقت نفسه لأن ٢٥٪ من سكان العراق يعملون لحساب أجهزة الأمن المختلفة. وقد تم تنظيم معظمهم وتدريبهم بواسطة خبراء البوليس السري الالماني الشرقيLA STASI.

وفي حياته الخاصة، يطلب صدام حسين على الدوام، وبشكل دوري، ان يعرضوا عليه فيلمه السينمائي المفضل «العراب». كما يرتاح الى مقارنة نفسه بملك بابل نبوخذ نصر الذي حكمها بين ٦٠٥ و ٥٦٢ قبل الميلاد. وسبب ذلك هو ايمان سلفه هذا بالحكم بالقوة واحتلاله للقدس وتهديمه الهيكل وأسره الشعب اليهودي.

قال نابليون إنه يبني خطط معاركه على أحلام جنوده النائمين. أما صدام حسين فيبدو أنه يضع خططه وأحلامه بفضل ترحيب الديمقراطيات الغربية وتواطئها. ففي

١٩٨٤ انفق العراق ١٤ مليار دولار على شراء الأسلحة أي ما يوازي نصف انتاجه الوطني. وبين ١٩٨٢و ١٩٨٥، استورد العراق ما يعادل ٤٢,٨ مليار دولار من الأسلحة. ولم تنخفض مشترياته بفعل وقف إطلاق النار مع ايران. وكانت بغداد خلال السنوات القليلة الماضية أكبر مستورد للعتاد الحربي في العالم واحتكرت لنفسها ما يقارب ١٠٪ من الاسلحة التي بيعت على وجه الأرض.

بعد أن تحالف صدام حسين مع موسكو وعقد معها معاهدة «صداقة وتعاون» في عام ١٩٧٢ أخذ يقيم علاقات مع الأقطار الغربية لأنها هي وحدها القادرة على تزويده بما يحتاجه. فعندما اعتزم في أواسط السبعينات إنشاء صناعة نووية زوده الفرنسيون بالمفاعل المطلوب ضاربين عرض الحائط بمخاطر الانتشار النووي. ولم يخف صدام رغبته في حيازة أسلحة ذرية. (وقد أصيبت أحلامه بنكسة في ١٩٨١ عندما أغارت الطائرات الاسرائيلية على المفاعل النووي العراقي أوزيراك).

وكانت لديه ترسانة ضخمة من الأسلحة الكيماوية التي استخدمها ضد القوات الايرانية والقرويين الأكراد. وهنا أيضاً لعبت المساعدات الغربية دورا أساسيا. وقد أعد الخبراء قائمة بأسماء ثلاثمئة شركة أسهمت بدرجات متفاوتة في تسلح العراق وخصوصا في صنع الأسلحة الكيماوية. وكانت أكثر الشركات نشاطا في هذا الباب المانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا والنمسا وبلجيكا. وبالرغم من أن الولايات المتحدة كانت دائماً تنفي أنها تزود العراق بالأسلحة فإن كثرة من الشركات الأميركية الخاصة باعت مواد حربية لبغداد عبر شركات أخرى لعبت دور الوسيط.

إن العملية التي كشف النقاب عنها في مطار هيثرو اللندني يوم ٢٨ آذار ١٩٩٠ أظهرت اتساع هذه التجارة. فقد وضعت الجمارك البريطانية عندئذ يدها على قطع كهربائية لأغراض عسكرية تدخل في تركيب الصاعق الخاص بالقنبلة النووية. وقد تطلبت هذه المصادرة ١٨ شهراً من التحقيقات المشتركة للأجهزة الامنية البريطانية والجمارك الاميركية. وقد تم صنع تلك القطع في شركة أميركية تقع ضمن ولاية كاليفورنيا وبالتحديد في سان دييغو.

بدأت العملية عندما اتصل وسطاء يعملون لحساب العراق بهذه الشركة فسارع مدراؤها إلى إبلاغ أجهزة الجمارك الاميركية التي دست أحد رجالها بين المفاوضين.

وسارت الإجراءات بشكل طبيعي جداً حتى تم نقل القطع المطلوبة الى لندن بواسطة طائرة شحن تابعة لشركة TWA حيث بقيت لمدة أسبوعين في عنبر التخزين التابع لمنطقة مطار هيثرو الحرة. وعند نقل البضائع الى طائرة عراقية تدخلت الجمارك وأوقفت عملية النقل وألقت القبض على خمسة عاملين في شركة الطيران بينهما عراقيان ولبناني وبريطانيان.

وفي سان دييغو، فقد أدت متابعة خيوط الشبكة الى القبض على عدد من البريطانيين العاملين في فروع شركات بريطانية في أميركا.

وشكلت القطع المصادرة مفاجأة للسلطات. فمنذ سنة أو سنتين والتقارير تتالى عن اعتزام بغداد صنع أسلحة نووية. فأكدت القطع المصادرة أسوأ مخاوف الخبراء وتساءلوا عما إذا كان العراق قد اقترب أكثر مما توقعوه من صنع القنبلة.

ورد صدام على ذلك بخطاب أشار فيه إلى «القوى المعادية للعرب التي تحاول وقف تقدم العراق». لقد كان في موقف حرج.

وفي أيلول من العام ١٩٨٩ هز انفجار ضخم المجمع العسكري للإسكندرية الواقعة جنوبي بغداد حيث يتم تصنيع السلاح الكيميائي. وبالرغم من التعتيم التام على ما حدث فإن صور الاقمار الصناعية للتجسس وما أدلى به بعض الشهود العيان أظهرت ضخامة الكارثة: أكثر من ٧٠٠ قتيل ومئات المصابين بعاهات دائمة. وفي شباط ١٩٩٠ حاول أحد الصحافيين التابعين لمجلة الاوبزرفر البريطانية التحقيق في تلك المأساة. وكان اسمه فرزاذ بازوفت، من اصل ايراني ويحمل الجنسية البريطانية. ولم يكد هذا الصحافي يبدأ بجمع المعلومات حتى ألقت المخابرات العراقية الرهيبة، التي يديرها سَبَوِيْ الأخ غير الشقيق لصدام، القبض عليه. وبعد ان اتهم بالتجسس لحساب اسرائيل عرض على شاشة التلفاز حيث أدلى باعترافات بدا انها فرضت عليه وانتزعت منه بالقوة. ولقد أدى حكم الاعدام الذي صدر بحقه الى موجة احتجاج لا في اوروبا والولايات المتحدة فقط بل من قبل بعض المسؤولين العرب.

وبعد أيام قليلة من صدور الحكم اغتنم وزير الخارجية الاردني مروان القاسم فرصة تواجده في تونس للإتصال بطارق عزيز وزير خارجية العراق المشارك بدوره في اجتماع وزراء الخارجية العرب. وقال القاسم لعزيز أثناء مقابلة جرت بينهما على هامش

الاجتماعات «إنه لمن الخطأ الفادح ان تقدم الحكومة العراقية على إعدام بازوفت. لأن الصحافة سوف تستغل القضية وسوف تصبح الصورة التي يكونها الغرب عن العراق سلبية جداً». ومما أثار دهشة مروان القاسم، الذي يعرف طارق عزيز منذ سنوات، هو ردة فعل الوزير العراقي الغاضبة والقاطعة والحاسمة «يجب إعدامه وإلاّ سوف يكون في العراق الاسبوع القادم أكثر من ١٠٠٠ جاسوس».

واعدم بازوفت شنقاً في ١٥ آذار ١٩٩٠. وأغضبت موجة الادانة لاعدامه صدام الذي لم يستطع أن يفهم كيف أن العرب الذي طالما أظهر تسامحاً كبيراً نحوه انقلب فجأة وأمعن في انتقاده. وهكذا تضافرت قضية بازوفت ومصادرة القطع في مطار هيثرو وتحول كثرة من الأميركيين ضده على اقناعه بأن هناك مؤامرة دولية عليه. وهكذا فإن هذا الرجل البسيط الحذر والفخور المصاب بجنون القوة أخذ ينظر إلى العراق بوصفه قلعة محاصرة قادرة على تحدي العالم الذى أمده بقوته.

الفصل الثالث
انكم تشنون حربا اقتصادية

في ٢ نيسان، القى صدام حسين أمام قيادات جيشه خطاباً تم نقله، بكامله، على موجات الإذاعة العاملة. وقد كان حاسر الرأس، يرتدي زياً كاكياً تزينه شارات رتبة الجنرالية. واستغرق خطابه أكثر من ساعة، إلا أن بعض الجمل التي وردت فيه أذهلت العالم بأسره. فبعد أن شرح ما توصل اليه العلماء والباحثون العراقيون في مجال انتاج الأسلحة الكيمائية اضاف: «والله، اذا حاولت اسرائيل القيام بشيء ضد العراق سوف نعمل على جعل النار تلتهم نصفها... إن الذين يهددوننا بالقنبلة النووية سوف يبادون بالأسلحة الكيماوية.»

ووصلت هذه الكلمات الى مكتب جون كيلي في اليوم نفسه. فقام سكرتير الدولة المساعد لشؤون الشرق الأوسط بقراءتها أكثر من مرة. وفي كل مرة كان يتملكه شعور بالذهول لقساوة لهجة الخطاب وعنفها. فما كان من هذا الرجل الذى أغدق الثناء على الرئيس العراقي قبل شهرين إلا أن انتقل في الحال الى مكتب دنيس روس الواقع في أحد الطوابق العليا من بناء وزارة الخارجية. وكان روس يحتل منصب مدير مكتب التخطيط السياسي ومن أقرب المساعدين لوزير الخارجية جيمس بايكر.

رأى كيلي وجوب القيام برد فوري ومباشر يؤكد رفض الولايات المتحدة السماح بتهديدات من هذا النوع. وكان جون كيلي بتقلبه بين الصلابة واللين أشبه بالدكتور جيكل والمستر هايد بالنسبة للعراق.

وسرعان ما توصل روس وكيلي إلى خطة للعقوبات وذهبا إلى مكتب جيمس بيكر في الدور السابع. ولم ينتظرا في الغرفة الخارجية ذات الجدران المكسوة بالواح خشبية داكنة سوى بضع دقائق، دخلا بعدها على جيمس بيكر وقالا له: « ينبغي علينا أن نرسل إشارة لا غموض فيها وخصوصا فيما يتعلق باتخاذ عدد من الاجراءات في الميدان الاقتصادي.» فما كان من بيكر الذي أزعجته لهجة صدام العدوانية إلا أن وافق على اقتراحهما الذي استهدف ثلاثة أمور بوجه خاص وهي رفض منح العراق قروضا من بنك التصدير والاستيراد، والغاء «برنامج قروض المجتمع» وأخيرا اتخاذ إجراء لمنع النظام العراقي من استيراد «مواد يمكن استخدامها للأغراض العسكرية».

وبينما كان الخبراء يعملون على اعداد الصيغة النهائية للخطة قام بوش بالتعبير عن رأيه في تهديدات صدام حسين وهو على متن طائرة البوينغ الرئاسية التابعة للقوات الجوية وذلك في طريقه إلى اتلانتا وانديانابوليس. على أن الكلمات التى استخدمها كانت مبهمة تعكس ارتباكه وعدم اعتباره العراق بين أولوياته. قال: «أعتقد أن تصريحات(صدام) سيئة جداً. وسوف أطلب في الحال وبإلحاح من العراق التخلي عن استخدام الاسلحة الكيمياوية لأنها لا تساعد الشرق الاوسط وأمن العراق واقول أكثر من ذلك إنه يؤدي إلى نتائج معاكسة، واقترح صرف النظر عن كل ما قيل في استخدام الاسلحة الكيمائية أو البيولوجية».

وفي ٩ نيسان، اجتمع دنيس روس وجون كيلي في مكتب جيمس بيكر ولحق بهما روبير كيميت سكرتير الدولة المساعد للشؤون السياسية والذي يعتبر في عداد الحلقة الضيقة من مساعدي الوزير. كان بيكر قد حصل على موافقة بوش المسبقة. وبعد أن تم استعراض خطة العقوبات الاقتصادية بالتفصيل من جديد، اقرت بشكلها النهائي، ووقع الاختيار على كيميت للقيام بمهمة التفاوض الشاقة مع مختلف الوزارات والوكالات المعنية لتطبيقها على أن الحزم الذى بدا في الاجتماع سرعان ما تبخر، وبقيت الخطة حبرا على ورق. أما أسباب الفشل فتكمن في مقاومة البيروقراطية الفدرالية وعدم المتابعة السياسية.

وصدر التحفظ الأول عن وزارة التجارة التي ذهبت إلى أن وقف تقديم القروض من بنك الاستيراد والتصدير سيعاقب رجال الاعمال الأميركيين. وعارض المسؤولون في الوزارة ذاتها الغاء برنامج قروض المجتمع لأنه برأيهم يضايق مزارعي القمح الأميركيين.

أما مجلس الأمن القومي التابع للبيت الأبيض والمكلف بمتابعة مسائل السياسة الخارجية فأكد دعمه لمبدأ العقوبات ولكنه رفض الإسراع في تطبيقها ودعا الى التأني. وأيد روبرت غيت الرجل الثاني في المجلس والمساعد السابق لمدير وكالة الاستخبارات الاميركية فكرة التدرج في اتخاذ الاجراءات. وترأس روبرت كيميت فيما بعد اجتماعا عقد في الغرفة الخاصة باجتماعات مجلس الأمن القومي بالبيت الأبيض حضره وكلاء الجهات الحكومية الرئيسية. ولم يخدع الاجماع الذي بدا في الاجتماع أحداً لأن الخطة ظلت حبراً على ورق.

كان الرجل الوحيد القادر على التغلب على التحفظات وفرض آرائه هو جيمس بيكر. لكنه كان منصرفاً بوقته وأفكاره إلى توحيد ألمانيا ورحلاته لمقابلة نظيره السوفييتي ادوارد شيفارنادزه والتحضير معه لقمة بوش ـ غورباتشوف التى كانت ستعقد في مالطة في شهر مايو/ أيار. وكما قال واحد من أقرب زملاء بيكر إليه «فان الرادار في واشنطن لم يلتقط بعد الصاروخ العراقي».

وهكذا فإن صدام حسين لم يتلق أي إنذار رسمي. والواقع أن صدور عدد من الاشارات المشجعة الأميركية ساعد على زيادة غموض الموقف الأميركي.

وفي ١٢ نيسان أي بعد ستة أيام من الخطاب العنيف الذى ألقاه صدام وصل وفد يضم خمسة من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي برئاسة روبرت دول ممثل كانساس وزعيم الأقلية الجمهورية في مجلس الشيوخ وهو نفسه الذي فشل في التغلب على بوش في الانتخابات الأولية وذلك في سباقهما على الرئاسة.

وعليه فإنه كان على صدام حسين أن يخاطب رجلا يعتبره مهماً وصاحب نفوذ وتتفق آراؤه مع آراء بوش.

جرى الاجتماع في مدينة الموصل الواقعة شمالي البلاد قرب الحدود السورية. وحضر صدام وهو يرتدي بزة رمادية أنيقة وربطة عنق قاتمة اللون. وجلس وسط غرفة صغيرة على كنبة مغطاة بالحرير الاخضر وأمامه طاولة زجاجية في حين توزعت المقاعد الباقية بشكل دائري حوله.

بدأ مترجم بقراءة رسالة جلبها الشيوخ وتقول: «إننا جئنا لأننا نؤمن بدور العراق الأساسي في الشرق الأوسط، فإن سعيكم الى الاسلحة الكيماوية والبيولوجية لا بد وان يعرض بلدكم لمخاطر جمة بدل تأمين الحماية له. إن مبادرات كهذه تهدد ايضاً بلداناً أخرى وتثير اضطرابات خطيرة في الشرق الأوسط. ثم إن تصريحاتكم الأخيرة التي تهدد باستخدام السلاح الكيماوي ضد اسرائيل، أحدثت دوياً في العالم أجمع. ومن الاجدى بالنسبة لكم وللسلام في الشرق الأوسط ان تعيدوا النظر في مثل هذه المشاريع الخطرة والتصريحات والمواقف التي تستفز الآخرين.»

استمع صدام إلى الرسالة بدون أي انفعال ظاهر. وعند الانتهاء من قراءتها هز رأسه والتفت إلى دول الذي كان يجلس على يمينه وقال بهدوء: «انني أدرك أن هناك حملة

واسعة علينا تشنها الولايات المتحدة وأوروبا . »

كان دول رجلاً صلبا في الستين من عمره. قال: «إن بوش ليس مصدر هذه الحملة. وقد قال لنا البارحة إنه ضدها . » وأعاد دول الى الذاكرة موقف الولايات المتحدة الذي أدان اسرائيل عام ١٩٨٠ على أثر الهجوم الجوي الذي شنته على المفاعل النووي العراقي. هنا قاطعه صدام حسين وقال: «لقد أدنتموها، ولكنني اطلعت على تقارير عديدة تفيد ان الولايات المتحدة كانت على معرفة مسبقة بالهجوم . »

وتدخل السيناتور الجمهوري لولاية وايومنغ، آلان سمبسون وقال:

«ان مشكلتكم ليست مع الحكومة او الشعب الأميركي وإنما مع صحافتنا المتعجرفة التي يصعب إرضاؤها . »

وانتقل دول في حديثه إلى البرنامج المعادي للعراق الذي بثته إذاعة صوت اميركا في فبراير، وقدم اعتذاره وابلغ صدام ان المسؤول عن البرنامج قد طرد من وظيفته. وختم حديثه بقوله: «اسمح لي أن أذكر أنه منذ ١٢ ساعة فقط أبلغني الرئيس بوش أن حكومته تأمل في تحسين العلاقات مع العراق وأنه سوف يعارض فرض عقوبات على العراق. وإذا لزم الأمر فإنه سوف يستخدم الفيتو ضد أي قرار مثل هذا ما لم يحدث أي عمل استفزازي».

وهنا تدخلت السفيرة ابريل غلاسبي التي لزمت الصمت طوال الوقت وختمت الاجتماع بقولها: «إنني كسفيرة أستطيع أن أؤكد لك يا سيدي الرئيس أن هذه في الحقيقة هي سياسة الولايات المتحدة».

على أنه كانت هناك دوافع انتخابية وراء لهجة المصالحة التي سادت الاجتماع. فأعضاء الوفد كانوا يمثلون ولايات اميركية زراعية. فروبرت دول يمثل ولاية كنساس التي تصدّر كميات كبيرة من القمح الى العراق. وعلى هذا الاساس تصدرت المصالح التجارية لائحة الاسباب الداعية للاعتدال الاميركي. فالولايات المتحدة الاميركية تبيع بغداد بما يقارب المليار دولار سنوياً من القمح والدواجن والذرة. ومنذ ١٩٨٣ تم تمويل غالبية المشتريات بواسطة قروض بلغت ٥ مليارات دولار بضمانة الحكومة الاميركية.

ولخص ممثل كانساس الوضع بجملة واحدة فقال: «نحن نلبي حاجة العراق من الغذاء بأسعار مدعومة».

ولم يكن لدى أحد رغبة في إفساد تبادل للمنافع من هذا النوع. وعندما استقبل بوش، في البيت الأبيض، الوفد العائد من العراق أصغى بعناية شديدة الى آراء روبرت دول التي يسودها الاعتدال والتفاؤل وسمع منه كلاماً عن صدام حسين يصفه بالقائد الذي يمكن للولايات المتحدة أن تؤثر عليه.

وحضر الاجتماع رئيس مجلس الأمن القومي الجنرال برنت سكوكروفت. وكان هذا العسكري الدقيق الملامح والطويل القامة قد تدرج في كواليس السلطة العليا منذ سنوات طويلة. فكانت بداية عمله في البيت الأبيض في عهد نيكسون كمساعد لهنري كيسنجر. واذ كان هذا العسكري المحترف يميل دائما إلى وزن الأمور والمحافظة على اتزانه فإنه أيد موقف دول الداعي إلى اعتبار العراق وزعيمه دعامتين أساسيتين لاستقرار الشرق الأوسط.

وكمؤشر على هذا الاعتدال انتهز بوش فرصة انتهاء شهر رمضان ووجه (في ٢٥ نيسان) رسالة ودية لصدام حسين عبر فيها عن أمله «في أن تسهم الروابط بين الولايات المتحدة والعراق في السلام والاستقرار في الشرق الأوسط».

وبعد وقت قصير أدلى جون كيلي بشهادة أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ استخدم فيها اسلوباً مختلفاً تماماً عن الأسلوب العنيف الذي استخدمه في ٢ نيسان للرد على تهديدات صدام حسين. قال:

> «لا تزال الادارة الأميركية تعارض فرض العقوبات التي توقع على المصدرين الأميركيين وتزيد العجز في الميزان التجاري سوءاً. ثم إنني لا أرى كيف يمكن للعقوبات أن تقوي امكان ممارسة نفوذ مهدىء على أعمال العراق».

إن هذه الكلمات التي صدرت عن المسؤول عن الشرق الأوسط عكست الموقف الرسمي لوزارة الخارجية الذي يمكن تلخيصه بالعبارة التالية وهي أنه ليس مطروحاً في الوقت الراهن اتخاذ إجراءات اكثر صلابة ضد العراق. وكان جيمس بيكر نفسه قد تحول إلى هذا الاتجاه. فبينما كان في موسكو التقى بالرئيس المصري الذي كان يقوم بزيارة

رسمية، وناقش معه تهديدات العراق. فأشار الرئيس المصري إلى أن التهدئة أفضل وسيلة لنزع فتيل حركات الزعيم العراقي الاستفزازية.

وفي بداية أيار وصلت إلى واشنطن اشارتان تنذران بالخطر. لكن لم يكن أحد من المسؤولين بوزارة الخارجية لأخذهما بعين الاعتبار.

وجاءت الأولى مفاجأة للبيت الأبيض. وكانت عبارة عن رسالة تلقاها من وكالة المخابرات المركزية تقول فيها إن بحوزتها معلومات عن «هجوم عراقي محتمل على الكويت» وكان البيت الأبيض قد تلقى إشارة إلى احتمال وقوع الهجوم ولكن على اسرائيل. وبالرغم مما أثارته معلومات الوكالة من تشاؤم شديد، فقد بقي الموقف الرسمي كما هو.

وفي هذه الأثناء وصل وفد من الخبراء العسكريين والسياسيين الاسرائيلين إلى واشنطن. وكان في جعبته تحليل قاتم للوضع يقول بأن طبيعة النظام العراقي المعتدلة والإصلاحية الظاهرة ليست سوى ستار من الدخان. ويضيف بأن صدام حسين دأب منذ شهر فبراير على اتخاذ مواقف متصلبة: إذ طالب بانسحاب السفن الأميركية، وحث العرب مرة أخرى على استخدام النفط كسلاح سياسي؛ ولم يكتف بالتهديد بمهاجمة اسرائيل حليفة الولايات المتحدة، بل تحدث عن احتمال استخدام الأسلحة الكيماوية. وختموا تحليلهم بقولهم إن إنهماكه في بناء آلته العسكرية على نطاق واسع دليل آخر على غرائزه العدوانية.

ومن الواضح أنه كانت لدى الوفد الاسرائيلي معلومات نقلوها في ١٥ نيسان للسفير الأميركي في اسرائيل وليم أ. براون وذلك على مائدة غداء في عيد الفصح. وكان بين الحضور شيمون بيريز زعيم حزب العمل والجنرال ايهود باراك نائب رئيس أركان القوات الإسرائيلية. وبينما كانوا يتحدثون عن تهديد صدام حسين بشن هجمات على اسرائيل بالأسلحة الكيماوية إذا هاجمت إسرائيل العراق قال باراك:

> «إن صدام حسين يحاول خداع العالم. فخطته ليست الهجوم على إسرائيل. عليكم أن تحولوا أنظاركم إلى ما هو جنوب العراق. فالحقيقة هي أن أنظاره مشدودة اليه».

وواضح أن باراك كان يشير إلى الكويت والإمارات.

لم ينجح الإسرائيليون في جعل الآخرين يشاطرونهم قلقهم. فبعض الذين استمعوا إليهم فسروا التصريحات العراقية بأنها تعبير عن الخوف من غارة إسرائيلية جديدة على مصانع الأسلحة الكيماوية. وشدد البعض الآخر على رغبة صدام في تكريس زعامته للعالم العربي.

لقد غشي واشنطن عمى غريب. فقد اعتُبر صدام حسين ضيق الأفق في نظرته إلى العالم. فلم يكن يعرف لغة أخرى غير العربية، ولم يكن قد قام إلا بزيارة واحدة إلى الغرب. وكان ذلك في عام ١٩٧٥ عندما ذهب إلى فرنسا لمفاوضة جاك شيراك رئيس الوزراء الفرنسي على شراء مفاعل نووي. ولم يكن يعرف شيئاً عن الولايات المتحدة. وحدث مرة خلال حديثه مع زائر غربي أنه فوجيء عندما علم من هذا الزائر ان الانتقاد البسيط للرئيس الأميركي لا يعد انتهاكاً خطيرا للقانون كما هو الحال في العراق حيث قد يعاقب بالإعدام.

لم يكن في واشنطن من يدرك أن ضيق أفق صدام حسين فيما يتعلق بنظرته إلى العالم هو الذى يجعله خطراً. فقد كان يتصرف مع العالم كما يتصرف في العراق ذاته متجاهلاً القواعد والقيود التي تحكم العلاقات الدولية.

وسبق أن كان لصدام مراقب رائع في واشنطن هو السفير نزار حمدون الذى أمضى سنوات طويلة هناك. وكان حمدون دبلوماسياً محترماً له صلات بكثرة من كبار المسؤولين الأميركيين. فبعد بداية الأزمة بشهر وصفته جريدة «وول ستريت جورنال» بأنه «افضل سفير اجنبي عرفته الولايات المتحدة. إلا أنه استدعي إلى بغداد في عام ١٩٨٧ ليصبح نائباً لوزير الخارجية. ولم يكن لخلفه صلاته وحيويته.

ولا بد أنه اتضح لصدام حسين من تبادل الآراء مع المسؤولين مثل روبرت دول ومن مواقف واشنطن المتناقضة أن الزعامة الأميركية غير حازمة وتميل إلى تسوية الأمور، الأمرالذي كانت له نتائج خطيرة.

وفي ٢١ أيار حصلت حادثة عملت على ازدياد شدة التوتر. ذلك أن أحد الإسرائيليين قتل سبعة من الفلسطينيين العزل. وبالرغم من أن الحكومة الإسرائيلية بادرت الى إدانتها فإن القلاقل عمت الأراضي المحتلة. فالانتفاضة التي كانت تتربص بالإسرائيليين انفجرت بعنف لا مثيل له. ولم يكن من الممكن أن تقع هذه المأساة في

وقت أسوأ من الوقت الذي وقعت فيه. فقد وقعت قبل اسبوع فقط من انعقاد مؤتمر القمة العربية في بغداد لشجب تدفق اليهود السوفييت على اسرائيل بأعداد كبيرة. وفي أعقاب المجزرة استخدمت الولايات المتحدة الفيتو ضد اقتراح قدمته منظمة التحرير الفلسطينية لهيئة الأمم المتحدة لإرسال مراقبين دوليين إلى الأراضي المحتلة. وأدى هذا إلى انفجار الغضب على أميركا في العالم العربي. وشهد الأردن مظاهرات دموية.

وفي ٢٤ أيار بدا الملك حسين في حفل استقبال أُقيم في حدائق قصره الرائعة في غاية القلق بالرغم من أنه طاف على المدعوين وشاركهم الحديث ورحب بكل فرد منهم. وكان يتصرف بإباء ولباقة وكأن ما يجري في المنطقة لا يستطيع النيل من حكمه. لكن هذا لم يخدع أحداً فخلال الحفل ذاته كشف هو نفسه عن مدى تأثره بالأحداث قال: « اعتزم أن أطالب في مؤتمر القمة القادم ببغداد بمساعدة مالية ليس لي فقط، بل ولمنظمة التحرير. » وكان صدام قد قال له: «اترك الأمر لي. سوف أجبرهم على الدفع»

***

وفي صباح ٢٨ أيار التقى الملوك والرؤساء العرب الممثلون لاحدى وعشرين دولة وهم لا يعرفون ما خبّىء لهم. فما كانوا يعرفونه هو أنهم يجتمعون لشجب تدفق اليهود السوفييت وتأييد تهديد صدام حسين بتدمير نصف إسرائيل. وكان البطل الحقيقي للمؤتمر هو المضيف ـ أي صدام حسين. فمنذ عهد جمال عبد الناصر لم يُظهر زعيم عربي بأنه قادر على نشر الرعب في الدولة اليهودية.

على أن الاجتماع أخذ منحى مقلقا عند نهاية جلسة الافتتاح عندما فاجأ صدام حسين الحضور باقتراح عقد جلسة مغلقة. وحاول الملك فهد معارضة الاقتراح لكنه لم ينجح فاضطر إلى القبول. وطلب صدام أن يقتصر الاجتماع المغلق على الرؤساء والملوك وحدهم دون أعضاء وفودهم لأنه ـ كما قال صدام ـ لا داعي لسماعهم ما سيقال.

وتحدث صدام بكلمات بليغة موزونة لكي يثبت حجته. وبالرغم من أن موضوع القمة كان هجرة اليهود السوفييت الى اسرائيل فقد أصبح من الواضح أن الموضوع الذى أخذ يتحدث عنه هو دول الخليج. قال:

«إنهم يستخرجون كميات هائلة من البترول مما يساعد على الابقاء على أسعارها

المنخفضة. وكلما انخفض سعر البرميل دولاراً واحداً، يخسر العراق بليون دولار في السنة. فأنتم في الواقع تشنون حربا اقتصادية على بلادي».

وسيطر الذهول على الحاضرين. وكان أول من تصدى للدفاع الشيخ زايد رئيس دولة الامارات الذي كان يرتدي عباءة بيضاء موشاة بأسلاك الذهب، لكنه لم يكن خطيبا موفقا. فأجابه صدام بقوله:

«انني اشكر الامارات العربية على موقفها الإيجابي منا. لكنني احذركم من انني لم انس إطلاقا شحنات الاسلحة والاعتدة العسكرية التي شحنت من دبي إلى ايران خلال الحرب. وسوف يأتي يوم الحساب».

كان مبارك في هذه الأثناء منحنيا بعض الشيء إلى الأمام يحدق في الطاولة امامه وهو يشتعل غضبا وبدا القذافي وهو يجول بنظره بين الحضور وكأنه يشاهد شيئا مسليا في حين ان الملك فهد الذي سبق له ان انشأ علاقات ودية مع الرئيس العراقي كان يستمع بكثير من القلق. فقد ادرك على الفور أن ما يجري في المنطقة قد اصبح مصدر خطر كبير.

كان خطاب صدام المرتجل خليطا مزعجا من المطالب العدوانية والاتهامات المحددة والنوادر العربية ذات المغزى. وكان يستخدم الكلمات المفخمة والحركات. قال:

«ايها الاخوة دعوني، اروي لكم اسطورة قديمة قد يعرفها البعض منكم. ذات يوم، حلت كارثة بقرية صغيرة فطلب من القرويين ان يساهم كل واحد منهم بقدر معين لتعويض الخسائر. وكان يعيش في هذه القرية رجل فقير اتفق السكان على ألا يطلبوا منه المساهمة. ولكن الرجل الفقير ابى ذلك وقال لهم إن الإهانة سوف تلحق به، وقدم لهم الشيء الوحيد الذي يملكه وهو وعاء من النحاس. والفقير في هذه القمة هو العراق. ولكننا لن نخل بواجباتنا. سوف نمنح الاردن ٥٠ مليون دولار ومنظمة التحرير ٢٥ مليوناً. ونحن نريد من وراء ذلك ممارسة الضغط الاخلاقي والمعنوي على كل من تسول له نفسه عدم المشاركة. وانتم تعرفون التضحيات التي قدمناها منذ سنوات في حين لا يحترم الآخرون الاتفاقات المعقودة.

وهنا توجه صدام حسين بحديثه إلى جابر الصباح امير الكويت الجالس على بعد امتار منه، وكان النفور يطغى على شعور الواحد منهما تجاه الآخر، وقال :

«يقضي تقسيم اوبيك للحصص أن لا تتعدى حصة الكويت ١,٥ مليون برميل يومياً. ولكنها تستخرج باستمرار ٢,١ مليون برميل ونحن هم الذين يعانون من هذا. إننا نريد العودة إلى الوضع الاقتصادي الذي كان سائدا في عام ١٩٨٠ قبل الحرب مع إيران. وفي الوقت الراهن نحن بحاجة ماسة إلى عشرة مليارات دولار بالإضافة إلى الغاء ٣٠ مليار دولار من الديون التي منحتنا إياها الكويت والامارات العربية المتحدة والعربية السعودية أثناءالحرب. والحقيقة أيها الاخوة العرب، أننا نعيش في فترة أخرى من النزاع . . .» ثم تغيرت نبرته وقال :

«إن الحرب لا تعني الدبابات والمدفعية والسفن فقط. فقد تأخذ أشكالاً أخرى أقل ظهورا وأكثر عدوانا مثل زيادة انتاج البترول واستخدام التخريب والضغوطات لاستعباد أمة».

قيلت هذه الكلمات الأخيرة وسط صمت ثقيل خيم على الحضور، فتدخل الملك حسين وقال : «ينبغي ألا يحصل شيء يضر باقتصاد العراق».

ثم جاء دور من جرى اتهامهم وعلى رأسهم الملك فهد والشيخ جابر امير الكويت. لكنهما قالا كلاما مبهما لا اثر فيه للتشجيع أو الوعد بالمساعدة. ومما اثار عجب الحضور هو هدوء الشيخ جابر وعدم مبالاته شبه التامة. بل ان موقفه وموقف وفده الذي انضم اليه بعد قليل كانا ينمان عما هو اقرب الى الاحتقار لمركز العراق ومطالبه.

لقد تضاعف انتاج الأوبيك ثلاث مرات منذ الحرب الايرانية العراقية وفي كل مرة بضغط من الكويتيين الذين كانوا ينكرون امام ممثلي العراق أي دور لهم في ذلك. وكان الكويتيون يحبون أن يصفوا بلادهم بسويسرا الشرق الاوسط متناسين بأن العراق كان يصف بلادهم بأنها «دولة انشئت من بئر بترول.» ونسوا ايضا محاولة غزو بلادهم عام ١٩٧٣ عندما اجتاحت العراق شمال الكويت قبل ان يجبروا على التراجع بضغط من العالم العربي. هذا في حين ان المسؤولين العراقيين ينفذون سياساتهم بالاشارة دائما الى خمسة آلاف سنة من التاريخ المجيد الذي تحيط به هالة من الرومانطيقية.

على ان الكويتيين كانوا رجال اعمال مهرة يعيشون في الحاضر ويركزون اهتمامهم في استثماراتهم الهائلة في العالم . وكانوا يعتقدون بأن ذلك هو اقصى ما يمكن ان تبلغه تهديدات العراق، وانه لن يتجاوزها لسبب واحد واضح وهو انه لم يسبق لدولة عربية ان اجتاحت اخرى. ويمكن تلخيص موقفهم بدقة بمثل تشتم منه رائحة الموت وهو «إن العالم الذي يفقد ذاكرته لا بد وان يصبح عالما بلا مستقبل» .

وفي اعقاب خطاب صدام حسين شهدت غرف القصر ودهاليزه مناقشات طويلة جعلت كل شخص من رؤساء الدول والوزراء والدبلوماسيين المستشارين يرى بوضوح شيئا واحدا وهو ان النظام العراقي وزعيمه يمران في فترة صعبة. لكن بعضهم فقط تنبأ بأن الحل الوحيد امام صدام هو الاستيلاء على الكويت .

الفصل الرابع
الذئب والحمل

مضت الأسابيع الأولى التي تلت ٣٠ مايو في هدوء يدعو إلى الاستغراب. فبدا وكأن العواطف والمناورات قد فقدت زخمها.

ففي أواسط شهر حزيران قام أوروبي له مقام رفيع بزيارة لواشنطن أتيح له خلالها أن يتحدث عن المسألة العراقية مع عدد من الأميركيين. وقال فيما بعد «إنه لم يكن هناك عندئذ من يعتبر العراق مصدرا للتهديد، وإن الجميع كانوا ينظرون إليه بوصفه بالدرجة الأولى سوقا للمنتوجات الأميركية وواحداً من الأقطار القليلة التي تفضل التكنولوجيا الأميركية على منافستها اليابانية».

وفي نهاية حزيران قام سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء العراقي بجولة في بلدان الخليج. وكان حمادي انيق المظهر مهذبا وشيعيا ورعا، واقتصاديا درس في الجامعة الأميركية ببيروت ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة وسكنسن. وقام بزيارته لبلدان الخليج قبل شهر واحد من اجتماع الأوبيك الهام الذي استهدف اقناع زعماء الخليج بالقبول بانتاج كميات اقل من النفط والتقيد بذلك من اجل رفع سعره الى مستواه العالي السابق. وفي ٢٥ حزيران وصل الى الرياض حيث حث الملك فهد على تأييد موقف العراق وذلك لأن السعودية كانت في موقع يمكنها من العمل على تطبيق هذه الاستراتيجية.

وكان ابن سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية قد اعترف في عام ١٩٣٠ أنه «فقير إلى حد لا يملك معه حجراً يركن رأسه إليه. وبعد ذلك بسنتين كان المورد الوحيد للمملكة التي أسسها بتوحيد القبائل البدوية هي رسوم الحج. وكانت هذه تنخفض في بعض السنوات بشكل يجر الدولة إلى حافة الافلاس. ودفعته الحاجة الملحة إلى مناشدة شركات النفط الكبرى وأكثرها بريطانية لاستغلال نفط بلاده وقال لرجل أعمال بريطاني: «سوف أمنحهم كل الامتيازات التي يريدونها مقابل مليون دولار.» وبالرغم من أن هذا المبلغ كان قليلاً لدرجة لا تصدق فإن مناشدته لم تجتذب أحداً. فقد كان البترول متوافراً بكميات كبيرة وخصوصاً من شركة النفط العراقية، مما دفع شركات النفط

الكبرى إلى الاتفاق على شيء واحد وهو أنه لا بد من إبقاء نفط السعودية في الأرض إذا أريد تجنب زيادة الفائض من النفط. وعليه فإنه لم يكن في شبه الجزيرة العربية شيء سياسي او اقتصادي يثير الاهتمام.

وفي غضون خمسين سنة دار الزمن دورته وأصبحت السعودية قطباً بترولياً يستطيع بموارده الضخمة انتاج من ثمانية إلى عشرة ملايين برميل في اليوم. ولم يعد من الممكن اتخاذ أي قرار بشأن السياسة البترولية بدون السعودية. على أن الملك فهد ليس بالشخص الذي يتخذ قرارات سريعة أو جذرية. فمملكته مليئة بأصحاب الثروات الخاصة التي تبلغ ١٥٠ بليون دولار كسبوها بسهولة وسرعة تنعكسان في السياسات السعودية الإقليمية التي يشوبها الحذر وأحياناً التردد.

والملك فهد كغالبية افراد الأسرة الملكية يعتبر الكويتيين شعباً متغطرساً ينتهز كل فرصة للادعاء بأنه أقدر على التكيف من جيرانه السعوديين وأكثر تأثراً بالحياة الحديثة. وفي حين أن السعوديين كانوا منذ انشاء بلادهم يعتبرونها مسجداً كبيراً ويتجهون بأنظارهم إلى مكة فإن الكويتيين ركزوا أنظارهم في الغرب. وعليه فإن علائم القلق في الكويت لم تكن تزعج الملك فهد، لكنه كان يعلم أن تهديدات صدام حسين قد تسقط في النهاية جميع الملكيات في المنطقة.

استقبل الملك فهد المبعوث العراقي سعدون حمّادي في قصره واجتمع به مدة طويلة واستمع إلى مطالبه بانتباه. وانفرجت شفتا الملك البدين ذي اللحية القصيرة والعينين المتعبتين (كعيون غالبية أفراد أسرته الذين يعانون من مرض وراثي) عن ابتسامة لطيفة وحبذ فكرة دعوة الأوبيك إلى اجتماع خاص لإرساء نظام ثابت بين الأقطار المنتجة للنفط. ولكنه أضاف على الفور وباللهجة الودية الهادئة ذاتها أنه لاحاجة للاستعجال. ويمكن لوزراء الدول النفطية بحث المسألة عندما يجتمعون في جنيف في الشهر التالي. وحتى ذلك الحين من الأفضل ترك الأمور على حالها.

وكان الملك بطيئا في كلامه وعمله إلى حد أن الوقت لديه قد يطول إلى ما لانهاية. أما العراقيون فكان الشيء الذي ينقصهم هو الوقت. وعليه فكان من الصعب عليهم قبول رد الملك.

وذكّر سعدون حمادي الملك والشيخ زايد بالبلايين العشرة التي طلبها صدام

حسين. لكنهما تهربا من الدخول في صلب الموضوع. وعندما توقف في الكويت طلب الشيء ذاته من الأمير جابر فأجابه هذا بقوله: «لكن هذا غير معقول. فليس لدينا ذلك المبلغ من المال.

وكان حمّادي خلال النقاش يحمل صفحتين مطبوعتين على الآلة الكاتبة فيهما قائمة مفصلة بالأموال الكويتية المستثمرة في العالم والبالغة ١٠٠ بليون دولار. وعندما اطلع الأمير على ما فيها اقترح أن يدفع مبلغ خمسمائة مليون دولار خلال ثلاث سنوات كصدقة على العراق، وقال: «دعونا نتحدث أولا عن الحدود. وعندما نوقع الاتفاق نتحدث عن الأمور الأخرى».

ولم يكد سعدون حمادي يصل إلى بغداد حتى بلغه أن وزير النفط في الكويت صرح بأن بلاده سوف تواصل إنتاج كمية النفط الاضافية حتى أكتوبر. وأدى هذا التصريح ورفض السعودية الدعوة إلى عقد اجتماع خاص للأوبيك إلى اقناع صدام حسين بأن هناك كما قال لأحد زملائه «محاولة لتركيع العراق».

وفي ١٦ تموز وصل طارق عزيز وزير الخارجية العراقية إلى تونس للمشاركة في اجتماع القمة الذي دعت إليه جامعة الدول العربية. وطارق عزيز في الستين من عمره وله شاربان كثيفان ونظارتان سميكتان. وهو من المسيحيين القلائل الذين احتلوا مراكز عالية في الجهاز الحاكم. (واسمه الحقيقي يوحنا). وهو دمث الطباع ويستطيع تبليغ الرسائل العدائية بلباقة وتهذيب. وإذ كان سفير صدام الذي ينقل أفكاره إلى مختلف الجهات في العالم فقد مثل العراق في أكثر المفاوضات دقة سواء في المحادثات مع الأقطار الأوروبية لإعادة جدولة الديون أو في الضغط من أجل الحصول على قروض أخرى لشراء الأسلحة. وكان في هذا كله يعبر عن أفكار صدام ورغباته بحماسة شديدة ومهارة، وأحيانا بقسوة.

وكان الهدف من اجتماع القمة هو الحصول على تأييد الدول العربية لمنظمة التحرير. فبعد أن حمل عرفات منظمة التحرير على اتخاذ موقف أكثر اعتدالاً من إسرائيل ويقضي بالاعتراف بها والدخول في حوار مع الولايات المتحدة الأميركية، أخذ يشعر مرة أخرى بالعُزلة. وكانت الولايات المتحدة قد أوقفت المحادثات مع المنظمة رداً على هجوم قام به أبو العباس في ٣٠ مايو على الشاطىء الاسرائيلي. وأبوالعباس هذا هو

الذي سبق له أن قام بنشاطات مشابهة عندما دبر في عام ١٩٨٥ خطف السفينة الإيطالية «أكيل لورو». ومع هذا فإنه ظل عضواً في المجلس الوطنى الفلسطيني. فأصرت الولايات المتحدة على أن يقوم عرفات بطرده وشجب هجومه، ولكنه لم يفعل.

ومما أغضب عرفات عدم حضور دول عربية كثيرة الاجتماع المقرر في ذلك اليوم. لكن حضور طارق عزيز لم يكن مفاجئاً. فرئيسه صدام كان قد لعب دوراً مهما في إقناع عرفات بتبني الاعتدال والدخول في محادثات مع الولايات المتحدة. وهاجم عرفات في خطابه بعض الدول التى لم تشارك في الاجتماع وخصوصاً السعودية ومصر. وختم خطابه بقوله:

«إن القضية خطيرة ولكن كثرة من الدول العربية لا تكترث لها. ترى ما الذي تفعله؟ هل تقوم بتحديد أسعار البطاطا»

قال عرفات هذا وخرج من القاعة وانتهى الاجتماع. فذهب طارق عزيز إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية الشاذلي القليبي وقال له: «لقد أحضرت معي مذكرة مهمة ينبغي توزيعها على الأعضاء. ولا بد من الاجتماع في صباح الغد» فوافقه القليبي والتقى وهو خارج بمروان القاسم ممثل الأردن فأخبره عن المذكرة وقال:

«نحن مقتنعون بأن بعض الدول تتآمر بالفعل علينا. ولكن اود أن أقول لك بأن بلادي لن تركع وأن نساءنا لن يجبرن على التحول إلى مومسات وأن اولادنا لن يحرموا من الطعام».

وصدم مروان القاسم، وقال لعزيز: «حاذر أن تقع في الشرك الذي نصب لك». ولم يقل عزيز شيئاً وخرج.

وفي صباح ١٧ يوليو حضر طارق عزيز إلى مكتب أمانة الجامعة ومعه سفير العراق إلى تونس، وقدم المذكرة للقليبي الدبلوماسي التونسي المتزن الذي يبدو كمفكر خجول. وجاءت المذكرة صدمة له لأنها كانت في حقيقتها اعلان حرب حقيقية على الكويت. فالشكوى فيها لم تقتصر على تجاوز الحد في انتاج النفط بل تجاوزت ذلك إلى اتهام الكويت بإقامة نقاط عسكرية على الأراضي العراقية وسرقة ما يساوي ٢,٤ بليون دولار من النفط الذي تستخرجه من حقل الرميلة العراقي. واتهمت المذكرة الكويت

والامارات العربية صراحة بأنهما ضالعان في «مؤامرة صهيونية استعمارية على الأمة العربية».

وقرر القليبي أن يحاول التريث في توزيع المذكرة. وقال لعزيز بأنه في حاجة إلى ٢٤ ساعة يجري خلالها مشاورات مع الكويت والسعودية قبل أن يقوم بتوزيعها. وأضاف أنه يرغب في أن يتحدث إلى صدام. فقال عزيز: «ليس باستطاعتك التحدث إليه الآن لأنه في طريقه إلى القاء خطاب على درجة كبيرة من الأهمية. ولم يكن لدى القليبي عندئذ علم بأن ذلك الخطاب سوف يشتمل على بعض التهديدات الموجودة في المذكرة. ولم يعلم بذلك إلا في وقت لاحق من ذلك اليوم. والواقع أن طارق عزيز لم يكن هناك للمفاوضة، بل لتنفيذ أوامر صارمة من صدام. فانتهى الاجتماع.

وبعد أن خرج عزيز قام على الفور بإرسال نسخة من المذكرة للسفارة الكويتية بتونس. وبعد ذلك بساعة اتصل السفير الكويتي بالقليبي وسأله عما إذا كان سيوزع المذكرة. فاجابه القليبي بأنه ليس أمامه خيار آخر. وطلب من السفير أن يبلغ ذلك إلى وزير الخارجية الكويتي الشيخ صباح وأنه يود أن يتحدث مع أمير الكويت وولي العهد.

وعندما تسلم الشيخ صباح المذكرة أصابه ـ كما يقول شاهد عيان ـ ذهول شديد. فالعراقيون يتهمونه بأنه عميل يتقاضى أموالاً من الاميركيين. فقرر أن يلغي جميع مواعيده.

***

منذ أواخر شهر مايو أخذ العاملون في أسواق هونغ كونغ وسنغافورة المالية يحسون بتحركات غير عادية. فمكتب الاستثمارات الكويتية بلندن وهو هيئة مقرها لندن وتدير استثمارات الكويت العالمية الضخمة كان قد أخذ يبيع بعض ممتلكاته الكبرى بلا سبب ظاهر. ولم تكد تمضي بضعة أيام على اجتماع تونس الذى ابتدأ في ١٩ يوليو بدأ المكتب عملية تصفية كاملة لاستثماراته الآسيوية وتحويلها إلى سيولة نقدية. وكان رجال الأعمال الكويتيون يتصرفون بسرعة وبكثير من الحكمة لكي لا تتسرب أخبار أعمالهم فتحدث ما يشبه الانهيار في الأسواق التي تحتل الأموال الكويتية فيها موقعاً مهماً.

***

وفي ١٧ يوليو وبينما كان طارق عزيز مجتمعاً مع الشاذلي القليبي كان يجري الاحتفال بالعيد السنوي للثورة العراقية. واعتلى صدام حسين المنصة وحوله أعضاء مجلس قيادة الثورة بزيهم العسكري. وجرت العادة كلما ظهر الرئيس أمام الجمهور أن يضرب حصار شبه كامل على بغداد. لكن تدابير الأمن في ذلك اليوم كانت أشد من أي وقت مضى. قال صدام في خطابه الذي أذيع فيما بعد:

«يعود الفضل إلى اسلحتنا الجديدة في أن الامبرياليين لن يستطيعوا بعد الآن شن هجوم عسكري علينا. ولهذا اختاروا شن حرب عصابات اقتصادية بمساعدة عملائهم من زعماء دول الخليج. فسياستهم التي ترمي إلى الابقاء على أسعار البترول المنخفضة خنجر مسموم مغروز في ظهر العراق».

وذكر لأول مرة التهديد بالتدخل العسكري فقال:

«إذا عجزت الكلمات عن حمايتنا فلن يكون هناك خيار سوى العمل على إعادة الأمور إلى نصابها واستعادة حقوقنا.»

وفي ذلك اليوم نفسه بدأت طلائع القوات العسكرية العراقية بالتحرك باتجاه الحدود الكويتية. وفي وقت متأخر من بعد ظهر ١٨ تموز اجتمعت الوزارة وبدا التوتر على وجوه الوزراء وهم يخرجون من سيارات الليموزين والشمس تنحدر نحو المغيب. فالتهديد كان هناك، ولا يبعد سوى بضعة أميال، وتمثل في دبابات ت ٦٢ التي كانت في طريقها إلى بلادهم. ولكن بالرغم من شعورهم بالخطر كان أكثرهم يفضل أن لا يصدق بأن وقت الانقاذ قد فات.

كان آخر من وصل هو الأمير جابر يرافقه ولي العهد ورئيس الوزراء الشيخ سعد العبد الله الصباح. وكان الأمير قد عاد لتوه من السعودية حيث عرض الملك وساطته. فتداول في الأمر مع رئيس وزرائه قبل الاجتماع. ورأى كل منهما أن العراق قد يهاجم الكويت لكنهما اعتقدا أن العملية ستنحصر في المنطقة الحدودية المتنازع عليها. وعليه فإنه لم يخطر ببالهما أن الكويت مجرد فاصلة على وجه الزوال.

كان الغرض من اجتماع الوزارة الاتفاق على صيغة الرد على مذكرة طارق عزيز التي اتهم فيها الكويت بسرقة ما قيمته ٢,٤ بليون دولار من النفط العراقي. لكن الكلمات التي ألقيت لم تكشف عن القلق والفوضى الكبيرين اللذين كان كل منهم يشعر بهما.

كان أول المتكلمين هو الشيخ علي خليفة الصباح وزير النفط السابق ووزير المالية الحالي المغامر الذي يتصرف كرجال البنوك الغربيين ويتمتع بالاحترام في الأوساط المالية الدولية. قال:

«أعتقد أن العراق يحاول إنقاذ اقتصاده ويحمل دول الخليج مسؤولية فشله. لكن ينبغي أن لا نخدع انفسنا. فالعراق لن يتغير حتى بعد اجتماع الأوبيك في جنيف. وسوف يتواصل التصعيد.»

وهز عدد من الوزراء رؤوسهم علامة على موافقتهم على ما قاله. لكنه تقدم باقتراح أقل واقعية فاقترح أن يصدر الحل عن مجلس التعاون الخليجي، وهو هيئة دفاعية تضم الكويت والامارات العربية المتحدة وعُمان وقطر والبحرين والسعودية ـ أي جميع الدول التي وصفها العراق بأنها اعداء له.

وأصر بعض الوزراء كالوزير المسؤول عن البرلمان والوزير المسؤول عن شؤون الوزارة على أن الغرض الوحيد للتهديدات العراقية هو «ابتزاز المال بل ابتزاز الكثير منه من الكويت.» حتى ان أحدهم أضاف يقول: «علينا أن نحتفظ بهدوئنا.» وذهب سليمان المطوع وزير التخطيط إلى حد القول بأن المذكرة «علامة ضعف من السهل الرد عليها»

على أن هذه الآراء لا تمثل وجهة نظر الأغلبية الذين عبر عن رأيهم وزير الدفاع عندما قال: إنه لا يكفي أن نرفض اتهامات العراق بقولنا إن العراقيين حشدوا قواتهم على الحدود. فكان ما ينبغي معرفته ـ كما قال الأمير ـ هو مدى جدية التهديد العراقي. وقال الشيخ صباح الأحمد الصباح وزير الشؤون الخارجية الذي أذهلته مذكرة طارق عزيز وما جاء فيها من اتهامات «إن العراق قد يهاجم الكويت وإن الوضع على الحدود متفجر، وإننا نجري محادثات مكثفة مع إخواننا في مجلس التعاون الخليجي.»

كلمة واحدة كانت على كل لسان: المفاوضة. كانت الأمل الأخير لتفادي الكارثة. لكنهم نسوا الاجتماعات الكثيرة بين مبعوثي العراق والكويت ورفض الكويتيين من حين إلى آخر ولكن بكل حزم مطالب العراقيين. وعلى أي حال فإن ولي العهد قال:

«أعتقد أن العراقيين قد يقومون بعمل عسكري ولكن العملية سوف تنحصر في الحدود في منطقتي الرتقة وأم قصر».

وعندما أشرف الاجتماع على نهايته كان الحاضرون قد شعروا بالاطمئنان ولم تُلفت نظرهم كثيراً أهم كلمات قيلت في الاجتماع وهي كلمات وزير الدفاع الذي قال :

«ليست المذكرة العراقية سوى البداية. فالله وحده يعلم إلى أي حد سوف يذهبون. فمسألة أسعار النفط لا تخرج عن كونها حجة. فالواقع أن العراق هو الذئب ونحن الحمل.»

وعندما تحول المجتمعون إلى مناقشة الجوانب الاقتصادية اختلطت عليهم الأمور فهل كان عليهم أن يستجيبوا لطلب العراق عشرة بلايين دولار وإلغاء جميع الديون؟

لم يتخذوا قراراً بشأن هذا الموضوع بالرغم من أن الوضع لم يكن يحتمل التأجيل. وعهد إلى الشيخ صباح الأحمد بالدعوة إلى اجتماع طارىء لمجلس التعاون الخليجي وذلك للدعوة إلى تدخل جامعة الدول العربية. لكن لم تتخذ أية إجراءات عسكرية.

وفيما كان الاجتماع منعقداً تلقى الشاذلي القليبي في تونس رسالة تبلغه أن الحكومة الكويتية سترسل إليه طائرة سويسرية خاصة لتنقله إلى الكويت للاجتماع بزعمائها. وحال وصوله إلى الكويت دعي إلى القصر لمقابلة الأمير. وأبلغه الأمير أنه فوجىء تماماً بمذكرة طارق عزيز التي كانت قد قدمت له بتونس قبل أيام. ثم قال :

«ما هي المشكلة؟ إن المذكرة قاسية، ولا صحة لما ورد فيها. لقد قدمنا لصدام حسين الكثير من المال والنفط خلال الحرب مع إيران».

وفيما بعد قال أحد رجال الأمير للقليبي بأن الكويت قدمت إلى العراق خلالها ١٧ بليون دولار وكانت تزوده ب ٣٠٠,٠٠٠ برميل من النفط يومياً. وقيل له أيضاً إن هذه المعلومات لم تنشر من قبل خوفاً من غضب إيران وخلق المشكلات. وعند نهاية الاجتماع قال الأمير للقليبي: «حاول أن تحل المشكلة. نحن على استعداد لحل المشكلة بطريق الحوار.»

وقرر القليبي أن يقوم بزيارة بغداد. لكن بينما كان يهم بمغادرة الفندق علم أن الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودية في طريقه إلى العاصمة العراقية. فقرر أن يبقى في الكويت ثقة منه بأن الأمير سعود الفيصل سوف يتوقف في الكويت ويخبره بما جرى في اجتماعاته مع صدام حسين.

لكن الذي لم يُطلع الكويتيون القليبي عليه هو شيء آخر كانوا يفكرون فيه. فمن المرجح أنهم كانوا يعتقدون بأن الورقة الأخيرة في أيديهم هي دعم الولايات المتحدة لهم. ذلك انهم اولا لم ينسوا أن الأميركيين سمحوا لهم خلال الحرب العراقية الايرانية أن يرفعوا الأعلام الأميركية على ناقلاتهم. وأن ذلك كان بمثابة دليل على وقوفها إلى جانبهم. وهناك وثيقة غريبة مؤرخة في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩ يدعي العراقيون أنهم عثروا عليها في وزارة الخارجية الكويتية في أعقاب استيلائهم على الكويت. لكن بيتر ايرنست الناطق باسم وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إي) أصدر في ٣٠ تشرين أول ١٩٩٠ تصريحا وصف فيه الوثيقة بأنها مزورة. لكنه اعترف في تصريحه بأن الشيخ الصباح نائب مدير أمن الدولة الكويتية قام في نوفمبر ١٩٨٩ ـ كما تقول الوثيقة ـ بزيارة للقاضي وليم وبستر مدير الوكالة. على أن الحكومة العراقية واصلت القول بأن الوثيقة صحيحة. ومهما يكن من أمر صحتها فإنها وثيقة طريفة.

إن هذه الوثيقة عبارة عن مذكرة قيل إن فهد أحمد الفهد مدير أمن الدولة الكويتية أرسلها الى وزير الداخلية وتقول الفقرة الخامسة منها:

« إتفقنا مع الجانب الأميركي على أهمية الاستفادة من الأوضاع الاقتصادية المتدهورة في العراق لممارسة الضغط على الحكومة العراقية لرسم الحدود المشتركة. وقد أطلعتنا وكالة الاستخبارات المركزية على وجهة نظرها حول الوسائل المناسبة للضغط قائلة بأنه لا بد من إرساء التعاون بيننا على نطاق واسع بشرط أن يجري تنسيق النشاط على المستويات العليا. »

ويشير مدير أمن الدولة أيضاً أنه قام بزيارة لواشنطن استغرقت ستة أيام. (١٢ ـ ١٨ نوفمبر) وعقد خلالها عدة اجتماعات سرية للغاية مع كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين عبروا عن عدم رضاهم عن أداء الحرس الأميري المكلف بحماية الأمير. وكان الأمير قد تعرض لمحاولات لاغتياله. وتقول المذكرة بان الوكالة أبدت استعدادها لتدريب ١٢٣ شخصا تختارهم السلطات الكويتية لكي يقوموا بعد ذلك بحماية الأمير وولي العهد.

ترى هل تجاوز الكويتيون الحد لأنهم كانوا على يقين من أن واشنطن لن تتخلى عنهم؟ كان زعماؤهم واثقين من الدعم الأميركي منذ زمن طويل وخصوصاً منذ عام

١٩٨٧ أي منذ أواسط فترة الحرب العراقية الإيرانية عندما رفعت الأعلام الأميركية على ناقلاتهم لحمايتها.

وفي ذلك الوقت تماماً أعلن البرلمان العراقي قراره الذي اتخذ بالإجماع برئاسة صدام حسين مدى الحياة.

***

في ٢٤ تموز وصلت أخبار الى مقر وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إي) مفادها أن فرقتين عراقيتين غادرتا قواعدهما للتمركز على الحدود الكويتية.

وفي صباح ذلك اليوم وصل حسني مبارك إلى بغداد في مهمة وساطة. ولم يكن اختيار الجامعة العربية له الأفضل نظرا للشكوك المتبادلة بين صدام حسين وبينه. ومهما يكن من أمر فإن صدام حسين قال له:

«لن استخدم القوة... لن استخدمها قبل استنفاد جميع الإمكانات عبر المفاوضات. لكن يا أخ مبارك لا تقل هذا للكويتيين لأنه لن يزيدهم إلا غروراً»

وفي اعقاب هذا مباشرة غادر مبارك العراق الى الكويت حيث أبلغ بعض ما سمعه إلى الأمير. قال له: «لا تقلق يا صاحب السموفقد سمعت من صدام نفسه أنه لن يرسل قوات وأنه لا يعتزم مهاجمة الكويت.» وهكذا فإنه لم يضف إلى ذلك عبارة «قبل إستنفاد جميع الامكانات عبر المفاوضات». ونقل مبارك العبارات المجتزأة ذاتها لواشنطن.

***

وفي ٢٥ تموز استدعى صدام ابريل غلاسبي السفيرة الأميركية. ولما كانت قد أبلغت بموعد المقابلة قبل ذلك بساعة فقط فإنه لم يكن لديها الوقت الكافي لإبلاغ وزارة الخارجية بواشنطن والتزود بتعليماتها. وأدخلت السفيرة على الرئيس العراقي في الساعة الواحدة بعد الظهر. وبدا عليها التوتر وهي تهم بإجراء مقابلتها الخاصة الأولى معه. وجاء الحديث الذي جرى بينهما مفاجئاً وحتى مزعجاً. واستطاعت شبكة «إي بي سي» الحصول على تسجيل للحديث الذي يعتبر وثيقة كبرى بالنظر إلى ما يشتمل عليه

من دلالات بعضها غير عفوي ولكن تستحق أن نوردها*

حضر المقابلة طارق عزيز. واستهلها صدام بالترحيب بغلاسبي ودعاها إلى الجلوس قائلا: «لقد استدعيتك لإجراء حوار سياسي شامل معك، وفيه رسالة موجهة إلى بوش». قال صدام:

«تعلمين انه لم تكن هناك علاقات بيننا وبين الولايات المتحدة إلى عام ١٩٨٤. كما أنك تعرفين الظروف والأسباب التي أدت إلى قطع العلاقات. على أن قرار استئناف العلاقات اتخذ عام ١٩٨٠ أي خلال الشهرين اللذين سبقا حربنا مع إيران.

«وعندما بدأت الحرب ولتجنب أي سوء تفسير أجّلنا إقامة العلاقات على أمل أن تنتهي الحرب في الحال.

«فلما تبين أن الحرب ستطول، وللتأكيد على أننا دولة غير منحازة، كان من المهم أن نعيد إقامة علاقاتنا بالولايات المتحدة. وكان هذا في عام ١٩٨٤.

«ومن الطبيعي القول بأن الولايات المتحدة ليست كبريطانيا مثلاً. ذات العلاقات التاريخية مع الشرق الأوسط، بما فيه العراق. ثم إنه لم تكن هناك علاقات بين العراق والولايات المتحدة بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٤. ويمكن للمرء أن يستنتج أنه من الصعب على الولايات المتحدة أن تتوصل الى تفاهم تام مع العراق حول كثرة من الأمور. على أنه عندما جرى استئناف العلاقات كنا نأمل في تفهم أفضل وفي تعاون أفضل لأننا أيضاً لا نفهم خلفيات كثرة من القرارات الأميركية.

«وتعامل أحدنا مع الآخر خلال الحرب وعلى مستويات مختلفة أهمها مستوى وزيري الخارجية. وكنا نأمل في تفاهم مشترك أفضل وفي فرصة أكبر للتعاون وذلك لفائدة شعبينا وباقي الأمم العربية. لكن هذه العلاقات أصيبت بشروخ. ووقع الأسوأ منها في عام ١٩٨٦ وبعد سنتين فقط من إرساء تلك العلاقات خلال ما يعرف «بإيران غيت» التي وقعت سنة احتلال ايران لشبه جزيرة الفاو.

---

* قام السيد عادل درويش بترجمة ما دار بينهما الى العربية.

«ومن الطبيعي القول بأن قدم العلاقات وتعقد المصالح المتبادلة قد يمتصان الأخطاء. لكن عندما تكون المصالح محدودة والعلاقات حديثة العهد فإن التفاهم يصبح سطحياً وقد تؤدي الأخطاء إلى نتائج سلبية. وقد يحدث أحياناً أن يكون تأثير الخطأ اكثر خطورة من الخطأ ذاته.

« وبالرغم من ذلك فإننا قبلنا اعتذار الرئيس الأميركي عبر موفده عن «إيران غيت» وأزلنا جميع الشوائب. وينبغي علينا أن لا نستعيد الماضي إلا عندما لا تكون الأخطاء الماضية وليدة الصدفة.

«وتزايدت شكوكنا بعد تحرير الفاو. فقد أخذت وسائل الإعلام الأميركية تدس أنفها في سياسة بلادنا. ودفعتنا الشكوك إلى التساؤل عما إذا كانت نتيجة الحرب وتحريرنا لبلادنا قد أقلقا الولايات المتحدة.

«وكان من الواضح لنا أن تحريرنا لبلادنا لم يرُق لبعض الجهات في الولايات المتحدة. ولست أشير بهذا إلى الرئيس الأميركي نفسه بل إلى جهات معينة على صلة بدوائر الاستخبارات ووزارة الخارجية باستثناء وزير الخارجية. وبدأت بعض الجهات تعد دراسات بعنوان «من سيخلف صدام حسين ؟» وأخذت تتصل بدول الخليج وتثيرمخاوفها من العراق وتقنعها بعدم تقديم المساعدات الاقتصادية له. ولدينا شواهد على نشاطها هذا.

«لقد خرج العراق من الحرب وعليه دين قدره ٤٠ مليار دولار. ولا يشمل هذا المبلغ المساعدات التي قدمتها الدول العربية. ومما يذكر أن بينها دول لا تعتبر المساعدات دينا مع أنها تعلم كما تعلمون أنتم أنه لولا العراق لما كانت لديها تلك المبالغ، ولما كان مصير المنطقة على النحو الذي نراه.

«وبدأنا نواجه سياسة تخفيض أسعار النفط. ثم رأينا الولايات المتحدة التي تتحدث دائماً عن الديمقراطية لا تعير وجهة نظر غيرها أي اهتمام. ثم بدأ الإعلام الرسمي الأميركي حملته على صدام حسين. واعتقدت الولايات المتحدة أن الوضع في العراق كالوضع في بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا. لقد أثارت هذه الحملة قلقنا ولكننا لم نبادر إلى الرد لأننا كنا نأمل أن تتاح الفرصة لصانعي القرار في أميركا للوقوف على الحقائق ومعرفة ما إذا كان للحملة الاعلامية أي تأثير على شعب العراق. كنا نأمل

في أن تبادر السلطات الأميركية إلى اتخاذ القرار الصحيح بشأن علاقاتها مع العراق. فالعلاقات الجيدة تساعد على تجاوز الخلافات.

«لكن عندما تقضي السياسة المرسومة بتخفيض سعر النفط بدون سبب تجاري معقول، فإن ذلك يعني شن حرب أخرى على العراق. فالحرب العسكرية تقتل الناس بإسالة دمائهم، والحرب الاقتصادية تدمر انسانيتهم بحرمانهم من فرصة التمتع بمستوى حياتي لائق. وإننا كما تعلمون نزفنا انهاراً من الدم في الحرب التي دامت ثماني سنوات لكننا لم نفقد انسانيتنا. وللعراقيين الحق في العيش بكرامة ولا نسمح لأحد بأن ينال من كرامتهم أو من حقهم في الاستمتاع بمستوى حياتي عال.

«لقد كانت الكويت والامارات على رأس واضعي هذه السياسة التي استهدفت النيل من مكانة العراق وحرمان شعبها من المستويات الحياتية العالية. وأنتم تعلمون أن علاقاتنا مع الامارات والكويت كانت قبل ذلك جيدة. وفوق هذا كله وبينما كنا غارقين في الحرب أخذت الكويت تتسع على حساب أرضنا.»

***

وهنا أخذ صدام يشير بوضوح إلى الكويت بوصفها هدفه الرئيسي. قال:

«قد تقولون بأن هذا مجرد دعاية. لكنني ألفت نظركم إلى الوثيقة التي تحدد خط الدوريات العسكرية الذي يشكل الحدود التي صدقت عليها جامعة الدول العربية عام ١٩٦١. لقد نصت الوثيقة على أنه لا يجوز اختراقها.

«اذهبي وشاهدي بنفسك ما يجري. سترين دوريات الحدود والمزارع والمنشآت النفطية الكويتية قائمة في أقرب نقطة من الحدود وذلك لإثبات أن تلك الأراضي كويتية.

«ومنذ عام ١٩٦١ والحكومة الكويتية مستقرة، في حين أن الحكومة العراقية تعرضت لتعديات كثيرة. وحتى بعد عام ١٩٦٨ (الذي استولى فيه البعث على الحكم) وطيلة عشر سنوات كنا غارقين في مشكلاتنا مثل مشكلة الأكراد في الشمال ومشكلة حرب اكتوبر وغيرهما.

«إننا نعتقد أنه ينبغي على الولايات المتحدة أن تفهم أن الشعب الذي يعيش في

رخاء وأمن اقتصادي يمكنه أن يتوصل إلى تفاهم معها حول المصالح المشتركة المشروعة لكن الشعب الجائع والمحروم اقتصادياً لا يستطيع ذلك.

«إننا لا نقبل تهديدا من أحد لأننا لا نهدد أحداً. ونقول بوضوح بأننا نأمل في أن لا تكثر الولايات المتحدة من الأوهام وأن تسعى إلى كسب الأصدقاء لا إلى زيادة أعدائها.

«لقد قرأت تصريحات أميركية عديدة عن أصدقائها في المنطقة. وبالطبع من حق الجميع ان يختاروا أصدقاءهم ولا اعتراض لدينا على ذلك. ولكنكم تعرفون جيداً انكم لستم الذين حميتم هؤلاء الاصدقاء خلال الحرب مع إيران. وأستطيع التأكيد لكم أنه لو اكتسح الايرانيون المنطقة لما كان في استطاعة القوات الأميركية وقفهم إلا باستخدام الأسلحة النووية.

«ما اقوله لا يهدف الى التقليل من شأنكم وانما انا آخذ بعين الاعتبار العوامل الجغرافية وطبيعة المجتمع الاميركي التي ترفض التضحية بأكثر من عشرة آلاف قتيل في المعركة الواحدة.

«تعلمون أن ايران قبلت بوقف اطلاق النار. ولكن لم يحصل ذلك بسبب قصف الولايات المتحدة لمنشأة نفطية ايرانية واحدة، وانما حصل بعد تحرير الفاو. أهكذا يكافأ العراق لأنه ساهم في تأمين استقرار المنطقة وقام بحمايتها من مدٍّ لا مثيل له؟

«ثم ماذا تعني أميركا عندما تقول الآن بأنها ستحمي أصدقاءها ؟ ليس لذلك معنى سوى التحامل على العراق.

«إن موقفكم هذا بالاضافة إلى التصريحات التي أصدرتموها هو الذي شجع الإمارات والكويت على تجاهل الحقوق العراقية.

«أقول لكم بوضوح إننا سوف نحصل على كل حق من الحقوق الواردة في المذكرة. وقد لا يحدث هذا الآن أو خلال شهر أو بعد سنة لكننا سنحصل عليها كلها. لسنا بالشعب الذي يتخلى عن حقوقه. فليس هناك حق تاريخي أو حاجة تبرر قيام الامارات والكويت بحرماننا من حقوقنا. وإذا كانت هاتان الدولتان في حاجة إلى ذلك فنحن أحوج منهما اليه.

«ينبغي أن يكون لدى الولايات المتحدة تفهم أفضل للوضع. وعليها أن تذكر

اولئك الذين تريد أن تقيم معهم علاقات وأن تقول من هم أعداؤها. وعليها أن لا تعتبر أحدا عدوا لا لسبب إلا لأنه يختلف معها في الرأي حول النزاع العربي الاسرائيلي.

«إننا نفهم بوضوح قول أميركا بأنها تريد تأمين تدفق سهل للنفط. ونفهم أميركا عندما تقول بأنها تسعى إلى صداقة دول المنطقة، وترغب في تعزيز المصالح المشتركة. لكن ما لا نفهمه هو أن تقوم اميركا بتشجيع بعض الجهات على الحاق الضرر بمصالح العراق.

«إن الولايات المتحدة تريد أن تضمن تدفق النفط. هذا مفهوم. لكن ينبغي عليها أن لا تستخدم أساليب ثم تنكرها. إن ذلك من قبيل ليّ العضلات والضغط. فإذا استخدمتم الضغط فسوف نستخدم الضغط والقوة.

«إننا نعلم أنه باستطاعتكم إلحاق الضرر بنا حتى ولو لم نهددكم. لكن باستطاعتنا أيضاً أن نلحق الضرر بكم ففي وسع كل شخص أن يسبب ضررا يتناسب مع قوته وحجمه. ليس باستطاعتنا أن نزحف على بلادكم لكن باستطاعة الأفراد من العرب الوصول إليكم.

***

وهنا ضرب صدام حسين بالمجاملات الدبلوماسية عرض الحائط وأخذ يهدد الولايات المتحدة بموجة من الهجمات الارهابية. ولكي يجعل الامور أكثر وضوحا قال:

«في استطاعتكم المجيء إلى العراق ومعكم الصواريخ والطائرات لكن لا تدفعونا إلى الحد الذي لا نعود عنده نهتم بما يحدث. وعندما نشعر بأنكم تريدون جرح كرامتنا وحرمان العراق من فرصة تحقيق مستوى حياتي أفضل فإننا لن نأبه لشيء وسيكون خيارنا الموت. ولن نخاف عندئذ إذا أطلقتم مئة قذيفة مقابل كل قذيفة من قذائفنا. فالحياة بلا كرامة لا قيمة لها.

***

وكان هذا تهديداً للرئيس بوش بأن صدام حسين مستعد لمحاربة أميركا بالرغم من أنه كان يعلم أنه يرجح أن يخسر المعركة. وأضاف يقول:

«ليس من المعقول أن يُطلب من الشعب العراقي نزف أنهار من الدم خلال الاعوام

الثمانية الماضية ثم يُقال له: عليك الآن أن تقبل بعدوان الكويت والامارات العربية والولايات المتحدة وإسرائيل. نحن لا نضع جميع هذه البلدان في سلة واحدة. ومما يؤذينا ويزعجنا أن تكون هناك خلافات بيننا وبين الكويت والامارات. لكن ينبغي أن يكون الحل في الإطار العربي وعبر العلاقات الثنائية المباشرة. نحن لا نضع الولايات المتحدة أيضاً في خانة الأعداء. نحن نضعها في الموقع الذي نريده لاصدقائنا ونبذل الجهد كي نكون في عداد أصدقائها. ولكن تصريحاتكم المتكررة في العام الماضي تظهر جليا ان اميركا لا تعتبرنا اصدقاء لها، حسناً، فهم أحرار فيما يفعلون.

«وعندما نبحث نحن عن الصداقة فإننا نطلب الشرف والحرية وحق الاختيار. وكما نريد التعامل مع غيرنا على مستوانا، نتعامل مع الآخرين على مستواهم. نحن نأخذ مصالحنا ومصالح الآخرين بعين الاعتبار ونطلب من الغير مقابلتنا بالمثل. ماذا يعني استدعاء وزير الدفاع الصهيوني، هذه الأيام، الى الولايات المتحدة الأميركية؟ وما هو معنى التصريحات النارية لإسرائيل مؤخراً؟ وماذا يعني تكاثر الحديث عن الحرب الى درجة لا مثيل لها؟»

***

يبدو واضحاً أن الرئيس صدام كان لا يزال يعاني من صدمة ضرب مفاعل اوزيراك النووي. فلم يتردد عن الإفصاح عن مخاوفه من هجوم اسرائيلي وشيك وربما بمساعدة الولايات المتحدة الأميركية وقال:

«نحن لا نريد الحرب لأننا نعرف ما تعنيه. لكن لا تدفعونا إلى اعتبارها الحل الوحيد للعيش في كرامة وعلى مستوى حياتي لائق.

«نحن نعلم أن الولايات المتحدة الأميركية تمتلك السلاح النووي. ولكننا مصممون على العيش بكرامة أو الموت حتى آخر فرد فينا. ولا نعتقد أنه يوجد شخص واحد في العالم لا يفهم ما أعنيه. نحن لا نطلب منكم حل مشاكلنا. لقد قلت إن المشاكل العربية تحل بين العرب، وإنما المطلوب منكم عدم تشجيع أحد على فعل لا يقوى على تحمل عواقبه. ولا أعتقد بأن صداقة العراق تؤذي أحداً. وفي رأيي أن الرئيس بوش لم يقترف أخطاء مع العرب، مع اعتقادي بخطأ تجميد الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية. ويبدو أنه اتخذ هذا القرار لتهدئة اللوبي الصهيوني أو أنه كان جزءا من

استراتيجية ترمي الى استيعاب الغضب الصهيوني قبل إعادة الحوار من جديد مع منظمة التحرير. وأتمنى ان يكون الاستنتاج الثاني هو الصائب. على أننا سنظل نعتبره قرارا خاطئاً. ترى متى سيأتي الوقت الذي تمتدحون العرب فيه مرة واحدة مقابل كل ثلاثة تصريحات تصدرونها لإرضاء الصهيونية. ومتى ستسعى البشرية إلى حل أميركي يقيم التوازن بين حقوق مئتي مليون من البشر وبين حقوق ثلاثة ملايين يهودي.

«نحن ننشد الصداقة ولكننا لا نجري وراء أحد من أجلها. وكذلك فإننا نرفض العدوان المسلح أيا كان مصدره. وإذا جوبهنا بالعدوان فإننا سنقاوم. وهذا حقنا سواء أجاء العدوان من أميركا أم من الإمارات او الكويت أو اسرائيل. لكنني لا أضع هذه الدول على مستوى واحد. فإسرائيل اغتصبت الأرض العربية بمساعدة الولايات المتحدة. ثم ان الكويت والامارات لا تؤيدان اسرائيل. وعلى أي حال فإنهما تظلان عربيتين. لكن عندما تحاولان إضعاف العراق فإنهما انما تساعدان بذلك الأعداء وللعراق الحق عندئذ في الدفاع عن نفسه».

***

وهنا ولكي يزيد من وقع كلامه أعاد إلى الذاكرة حدثين سابقين من شأنهما أن يساعدا الولايات المتحدة على التفكير، فقال:

«التقيت في عام ١٩٧٤ بإدريس ابن الزعيم الكردي الراحل الملا مصطفى البرازاني. وجلس عندئذ على الكنبة ذاتها التي تجلسين عليها الآن. جاء عندئذ ليطلب مني تأجيل تطبيق الحكم الذاتي في كردستان العراقية الذي اتفق عليه في ١١ مارس ١٩٧٠. وكان جوابي له: «إننا مصممون على الوفاء بالتزاماتنا. وعليكم انتم أيضاً أن تلتزموا بالاتفاق.» وعندما أحسستُ بأن لديه نوايا عدوانية قلت له: «بلغ تحياتي لأبيك وقل له بأن صدام حسين يقول ما يلي.» ثم أطلعته على ميزان القوى مدعما بالإحصائيات تماماً كما فعلت مع الايرانيين في رسائلي المفتوحة لهم خلال الحرب وختمت حديثي معه بتلخيص العواقب بجملة واحدة وهي «إذا حاربنا فإننا سننتصر» أتعرفين لماذا؟ شرحت له جميع الأسباب بما فيها السبب السياسي. فالأكراد (في عام ١٩٧٤) كانوا يعلقون الآمال على خلافاتنا مع شاه إيران. وكان سبب النزاع مع إيران هو مطالبها في شط العرب. ولم نكن على استعداد للقيام بتنازلات. لكن لو أجبرنا على الاختيار بين

نصف شط العرب وبين العراق كله فإننا نتنازل عن شط العرب للحفاظ على العراق كما نريده.

«ونحن نأمل أن لا تدفعوا الأحداث إلى الحد الذي نجد فيه أنفسنا مضطرين إلى تذكر الاختيار الذي اضطررنا له في علاقاتنا مع إيران. وبعد اجتماعنا مع ابن البرازاني تنازلنا عن نصف شط العرب (بموجب اتفاق الجزائر عام ١٩٧٥). وتوفي البرازاني ودفن خارج العراق وخسر الحرب.

***

ثم توجه صدام بحديثه إلى السفيرة وقال:

«نأمل في أن لا ندفع إلى هذا. فكل ما يقف في طريق علاقاتنا مع إيران هو شط العرب. فإذا كان علينا أن نختار بين شط العرب والعيش بكرامة فإننا سنفاوض معتمدين على الحكمة التي أظهرناها عام ١٩٧٥. وكما أن البرازاني أضاع الفرصة التاريخية فسوف يضيع الآخرون فرصتهم.

***

وختم صدام هذا السرد التاريخي بقوله بدون مجاملة:

«وفيما يختص بالرئيس بوش آمل أن يقرأ هذا بنفسه وأن لا يترك في أيدي إحدى عصابات وزارة الخارجية التي استثني منها وزير الخارجية وكيلي لأنني أعرفه وتبادلت الرأي معه.

***

وأخيراً استطاعت غلاسبي أن تجيب فقالت:

«أشكرك أيها السيد الرئيس، إنه يسر أي دبلوماسي أن يجتمع بك ويتحدث معك. إنني أفهم رسالتك بوضوح. لقد درسنا التاريخ وعلمونا أن نقول: «الحرية أو الموت».

«أعتقد انك تعلم جيداً أننا شعب كانت لنا تجربتنا مع المستعمرين.

«يا سيدي الرئيس، ذكرت خلال هذا الاجتماع أشياء كثيرة لا أستطيع التعليق عليها نيابة عن حكومتي. لكن إذا سمحت فسوف أعلق على نقطتين. لقد تحدثت

عن الصداقة، وأعتقد أنه اتضح من الرسائل التي بعثها رئيسنا أنه بمناسبة اليوم الوطني يؤكد. . .

***

وهنا قاطعها الرئيس قائلا: «لقد كان لطيفا وظفرت كلماته بتقديرنا واحترامنا.» فقالت غلاسبي: «كما تعلمون فإنه طلب من الادارة الأميركية رفض اقتراح تطبيق العقوبات التجارية.» فقال صدام وهو يبتسم: «لم يعد في أميركا ما يمكننا شراؤه سوى القمح. فكلما أردنا شراء شي آخر قالوا لنا إن بيعه محظور عليهم. وأخشى أن تقولوا لي يوما: «إنكم ستصنعون البارود من القمح.» وهنا سارعت غلاسبي إلى طمأنته بقولها: لدي تعليمات مباشرة من الرئيس الأميركي تقضي بالسعي إلى إقامة علاقات أفضل مع العراق.» وهنا تساءل صدام حسين: «لكن كيف؟ ونحن أيضاً راغبون في ذلك لكن الأمور تجري على نحو يناقض رغبتنا.» فأجابت غلاسبي بقولها:

«كلما واصلنا المحادثات كلما قل احتمال حدوث ذلك. فمثلاً أشرتم إلى قضية المقال الذي نشرته وكالة الإعلام الأميركية. لقد كان الأمر محزناً وقدم لكم اعتذار رسمي بشأنه».

وهنا مال صدام نحوها بطريقة ساحرة وقال: «كان موقفكم كريما. ونحن عرب يكفينا أن يقول لنا أحدهم: (آسف. لقد أخطأت) وتعود الأمور إلى مجاريها. لكن الحملة الاعلامية استمرت وحفلت بكثرة من القصص. ولو كانت هذه القصص صحيحة لما أغضبت أحداً. لكن ما نستخلصه من استمرارها هو أن هناك تصميم على (إفساد علاقاتنا). ووافقت غلاسبي على ما قاله ومضت تقول:

«لقد شاهدت بنفسي برنامج ديان سواير على قناة (أي بي سي) وما حدث فيه رديء ويفتقر الى الموضوعية. إنه صورة حقيقية لما يحدث في الاعلام الأميركي حتى السياسين الأميركيين أنفسهم. تلك هي أساليب الإعلام الغربي. ويسرني انكم تضمّون صوتكم الى أصوات الدبلوماسيين الذين يواجهون وسائل الاعلام بشجاعة. إن ظهوركم ولو لدقائق قليلة في وسائل الاعلام يساعد على فهم الشعب الأميركي للعراق، ويعزز التفاهم المتبادل ولو كان الرئيس الأميركي يملك رقابة على الاعلام لكان عمله أسهل.

«إن الرئيس بوش يا سيدي لا يريد إقامة علاقات أفضل وأعمق معكم فحسب،

بل وإسهامكم في السلام والرخاء في الشرق الأوسط. والرئيس بوش رجل ذكي. ولن يقوم بإعلان حرب اقتصادية على العراق.

«ما تقوله صحيح. وأنت مصيب في قولك إننا لا نريد أسعاراً أعلى للنفط. لكنني اطلب منك أن تنظر في إمكان عدم تقاضي أسعار باهظة للنفط».

فقال الرئيس صدام بلهجة ودية:

«نحن لا نريد أسعارا عالية جدا. ودعيني أذكرك بأنني في عام ١٩٧٤ أوحيت لطارق عزيز بفكرة المقال الذي كتبه منتقداً سياسة الابقاء على أسعار النفط المرتفعة. وكان أول مقال عربي يعبر عن ذلك الرأي».

وتدخل طارق عزيز لأول مرة وقال: «إن سياستنا في منظمة الأوبيك تعارض في القفز المفاجىء للأسعار». فقال الرئيس:

«إن ٢٥ دولارا للبرميل ليس بالسعر المرتفع.» فقالت السفيرة:

«لدينا كثرة من الأميركيين الذين يريدون سعرا أعلى لأنهم من المناطق التي تنتج النفط». وكان هذا هو الضوء الأخضر الثاني الذي جعل صدام حسين يعتقد أن السفيرة، ومن خلالها الرئيس بوش، يوافقان على طلبه رفع الأسعار. فقال صدام:

«كان السعر في إحدى المراحل ١٢ دولارا للبرميل الواحد. وتخفيض الميزانية العراقية بمقدار ٦ ـ ٧ كارثة.» فأجابت السفيرة:

«أعتقد أنني أفهم هذا. لقد عشت هنا سنوات. وأنا معجبة بجهودكم الخارقة لبناء بلادكم. أعرف أنكم بحاجة إلى الأموال. إننا نفهم ذلك. ورأينا هو أنه ينبغي إتاحة الفرصة لكم لإعادة بناء بلادكم. لكن ليس لنا رأي في نزاعات العرب فيما بينهم مثل نزاعكم مع الكويت حول الحدود.

«لقد كنت في السفارة الأميركية بالكويت في أواخر الستينات. وكانت تعليماتي تقضي بعدم إبداء الرأي في هذه القضية التي لا شأن لنا فيها. لقد أصدر جيمس بيكر أمرا إلى الناطق الرسمي للتأكيد على ذلك. إننا نأمل في أن تحلوا القضية بالوسائل المناسبة عبر القليبي أو الرئيس مبارك. وكل ما نرجوه هو حلول سريعة لهذه القضايا».

(وهذا ضوء أخضر آخر فيما يتعلق بالخلافات حول الحدود مع الكويت).

وأضافت غلاسبي :

«هل لي يا سيادة الرئيس أن أتحدث عن صورة هذا كله في أذهاننا؟

«في تقديري ـ بعد خمس وعشرين سنة من الخدمة في هذه المنطقة ـ أنه ينبغي أن تظفر أهدافكم بتأييد اخوانكم العرب. وأنا الآن أتحدث عن النفط. لكنك يا سيادة الرئيس خضت حربا مريرة مؤلمة. وأقول بصراحة إنني الآن لا ارى سوى قواتكم المحتشدة في الجنوب. وذلك في الأحوال العادية ليس من شأننا. لكن عندما يحدث هذا في إطار ما قلته في عيدكم الوطني، وعندما نقرأ التفصيلات الواردة في رسالتين من وزير الخارجية، وعندما نقرأ عن وجهة نظر العراق بأن الإجراءات التي اتخذتها الإمارات والكويت هي بعد التحليل الدقيق بمثابة عدوان عسكري على العراق ـ عندما نقرأ هذا لا بد وأن يساورنا القلق. ولهذا السبب تلقيت تعليمات تطلب مني أن أسألكم بروح من الصداقة لا بروح من المواجهة عن نواياكم.

«إنني في هذا لا أعدو وصف قلق حكومتي. ولا أعني أن الوضع سهل لكن قلقنا مجرد قلق.»

فقال الرئيس صدام :

«نحن لا نطلب من الناس أن لا يشعروا بالقلق عندما يكون السلام على المحك. فذلك شعور إنساني نبيل نشعر جميعا به. ومن الطبيعي أنكم بوصفكم قوة كبرى أن تشعروا بذلك. لكن ما نطلبه هو أن لا تعبروا عن قلقكم على نحو يمكن أن يحمل المعتدي على الاعتقاد بأن عدوانه يظفر بالتأييد.

«نريد التوصل إلى حل يضمن لنا حقوقنا ولا يحرم الآخرين من حقوقهم. وفي الوقت ذاته نريد من الآخرين أن يعلموا أن لصبرنا حدوداً فيما يتعلق بأعمالهم التي تضر بحليب أطفالنا ومعاشات الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن خلال الحرب، ومعاشات اليتامى الذين فقدوا والديهم.

«نحن كدولة لنا الحق في الازدهار. لقد أضعنا فرصا كثيرة بسبب الحرب، وعلى الآخرين أن يقدروا دورنا في حمايتهم. وحتى هذا العراقي (وأشار صدام إلى المترجم) يشعر بالمرارة كسائر العراقيين. لسنا معتدين ولا نقبل العدوان. لقد ارسلنا مبعوثين

ورسائل مكتوبة. وفعلنا كل ما بوسعنا عمله فطلبنا من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد أن يعقد مؤتمر قمة رباعية. لكن الملك اقترح اجتماعاً لوزراء البترول. وقبلنا. وجرى الاجتماع في جدة كما تعلمين. وتوصل المجتمعون إلى قرارات لا تعبر عما اردناه. ومع ذلك قبلناها.

«وبعد الاجتماع بيومين فقط أصدر وزير النفط الكويتي تصريحا يناقض الاتفاق. وبحثنا المسألة خلال قمة بغداد. وأخبرت الملوك والرؤساء بأن بين اخواننا من يشنون علينا حربا اقتصادية وأن بعض الحروب لا تستخدم فيها الأسلحة وأننا نعتبر هذا النوع من الحرب عملا عسكريا موجها ضدنا. فإذا ضعفت قدرة جيشنا، وإذا عادت ايران الى الحرب فإنها قد تحقق الأهداف التي عجزت عن تحقيقها في الماضي. ثم إن ضعف قدراتنا الدفاعية قد يشجع إسرائيل على مهاجمتنا. قلت هذا أمام الملك والرؤساء العرب ولم أذكر اسمي الامارات والكويت لأنهما كانا في ضيافتنا.

«وكنت قبل ذلك قد أرسلت مبعوثين لتذكيرهم بأن حربنا ضد إيران اشتملت على الدفاع عنهم. وعليه فإنه ينبغي عليهم أن لا يعتبروا الأموال التي قدموها لنا ديونا. لقد فعلنا أكثر مما كانت الولايات المتحدة ستفعله مع من يهاجم مصالحها.

«وتحدثت عن هذه المسألة مع عدد من الدول العربية الأخرى وشرحت الوضع لأخي الملك فهد عدة مرات عبر المبعوثين والهاتف. وتحدثت مع أخي الملك حسين ومع الشيخ زايد بعد مؤتمر القمة. ورافقت الشيخ زايد إلى الطائرة عندما كان في الموصل، فقال لي: «انتظرحتى أصل الى بلادي.» لكن ما حدث بعد وصوله هو صدور تصريحات في غاية السوء لا عنه وإنما عن وزير نفطه.

«وبعد اتفاق جدة بلغنا أنهم يتحدثون عن الالتزام بالاتفاق لمدة شهرين فقط يقومون بعدها بتغيير سياستهم. والآن قولي لنا: ماذا كان سيفعل الرئيس الأميركي لو وجد نفسه في موقف كهذا. لقد ذكرت أنه كان من الصعب علي أن اتحدث عن هذه القضايا علنا. لكن علينا أن نخبر الشعب العراقي الذي يواجه المصاعب الاقتصادية عن المسؤول عن ذلك.»

وإزاء هذه الكلمات القاسية فضلت غلاسبي تغيير الموضوع فقالت: «لقد قضيت أربعة أيام في مصر.» فقال صدام:

«الشعب المصري لطيف وطيب وعريق. ويفترض في دول النفط أن تساعده. لكنهم لؤماء إلى حد لا يتصوره المرء. ومن المؤلم الاعتراف بذلك. والعرب يكرهون بعضهم بسبب جشعهم. » فقالت السفيرة:

«إنك تساعدنا يا سيدي الرئيس لو شرحت لنا تقديرك للجهود التي بذلها إخوانك العرب وما حققته. » فقال الرئيس:

«فيما يتعلق بهذا الموضوع اتفقنا مع الرئيس مبارك على قيام رئيس وزراء الكويت بالاجتماع مع نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في السعودية لأن السعوديين بادروا إلى الاتصال بنا بفضل جهود الرئيس مبارك. وقد اتصل مبارك بي قبل قليل وأبلغني موافقة الكويتيين على الاقتراح. » فقالت السفيرة بارتياح «تهانينا!»

فواصل صدام كلامه قائلا:

«سوف يعقد اجتماع بروتوكولي في السعودية، ثم ينتقل المجتمعون إلى بغداد لإجراء مناقشات أعمق بين الكويت والعراق مباشرة. ونأمل في أن يتغلب بعد النظر والحرص على المصالح الحقيقية على جشع الكويتيين. » فسألته السفيرة: «هل لي أن أسألك متى تتوقع أن يصل الشيخ سعد إلى بغداد؟» فأجاب الرئيس:

«أعتقد أنه سيصل يوم السبت أو الاثنين على أبعد تقدير (٢٨ أو ٣٠) تموز وقد أبلغت الأخ مبارك أن الاتفاق سيتم في بغداد يوم السبت أو الأحد. وأنت تعرفين أن زيارات مبارك كانت دائما تبشر بالخير» فقالت السفيرة:

«هذه أخبار جيدة، تهانينا» وهنا توقف صدام حسين عن اللعب بأوراقه وقال:

«ابلغني أخي مبارك أنهم (الكويتيين) في خوف شديد. وقالوا إن القوات العسكرية على بعد عشرين كيلو مترا فقط من خط الجامعة العربية (الحدود). فقلت للرئيس المصري إنه بغض النظر عمن هناك وسواء، أكانوا من البوليس أم حرس الحدود أم الجيش، وبغض النظر عن عددهم وعما يفعلونه يمكنك أن تطمئن الكويتيين وأن تعدهم بالنيابة عنا بأننا لن نفعل شيئا إلى أن نجتمع بهم. فإذا وجدنا عندما نجتمع بهم أن هناك أملا فلن يحدث شيئاً. ولكن إذا تعذر التوصل إلى حل فسيكون من الطبيعي أن لايقبل العراق بالموت حتى ولو كانت الحكمة فوق كل شيء وهذه أخبار جيدة» فقال

طارق عزيز: «هذا للصحافة وحدها.»

على أن كل ما بقي في ذهن غلاسبي من المقابلة هو هذه الخاتمة المتفائلة ونسيت التهديدات والانذارات التي أطلقها صدام حسين خلال حديثه. واستأذنت السفيرة بعد أن طمأنت الرئيس العراقي مرة أخرى إلى أن رسالته ستصل إلى الشخص الموجهة إليه. قالت:

«أعتزم الذهاب إلى الولايات المتحدة يوم الاثنين القادم (٣٠ تموز). وآمل أن اجتمع مع الرئيس بوش في واشنطن خلال الأسبوع القادم. وقد خطر ببالي أن أؤجل سفري بسبب المصاعب التي تواجهنا. وعليه فإنني سأسافر يوم الاثنين.»

وأخيراً تبادلت هي وصدام التحيات والتمنيات.

***

أمضى الشاذلي القليبي ٤٨ ساعة في الكويت بانتظار وصول وزير الخارجية السعودي لإبلاغه ما جرى في اجتماعاته ببغداد لكنه تركها وهو يشعر بالإحباط لأن الوزير لم يظهر. وعندما انتهت مقابلة غلاسبي للرئيس صدام توجه طارق عزيز بعد أن حضر المقابلة إلى فندق الرشيد لتناول الغداء مع القليبي الذي كان قد وصل إلى بغداد في ذلك اليوم. وفيما كان عزيز ينفث دخان سيجاره ويشرب كأسا من الويسكي واصل التصلب الذي أظهره في ١٧ تموز عندما سلمه المذكرة.

تحدث عزيز عن المؤامرات التي تحاك ضد العراق وقال بأن الولايات المتحدة ضالعة فيها. وقال: «إن عدالة موقف العراق شيء مؤكد»، وأضاف بأن على الأسرة الحاكمة في الكويت أن ترحل وأنهم يسرقون النفط ويحاولون تدمير الشعب العراقي.

كان القليبي قد سمع حسني مبارك يقول للكويتيين والأميركيين بأن صدام حسين قال له بأنه لن يكون هناك غزو للكويت. فسأل القليبي طارق عزيز: «ماذا قال صدام حسين لمبارك؟»

أجابه عزيز وهو ينفث دخان سيجاره: «لا أعرف ما الذي قاله له. لكن ما أعرفه هو أن كل شيء يعتمد على اجتماع جدة في ٣١ يوليو مع الكويتيين. فكل شيء يتوقف عليه.»

وفي مساء ذلك اليوم توجه القليبي إلى الكويت لابلاغ الأمير.

في ٢٦ تموز وهو اليوم الذي اكتشفت فيه المخابرات احتشاد أكثر من ٣٠,٠٠٠ جندي عراقي على حدود الكويت قام القليبي بإبلاغ أمير الكويت وولي العهد ووزير الخارجية الكويتيين ما جرى في اجتماعه ببغداد. فساور القلق الزعماء الكويتيين ولكنهم ظلوا مقتنعين بأن الغزو لن يقع. وذكر القليبي اجتماع القمة بجدة في ٣١ يوليو. فقيل له بأن السعوديين والمصريين سوف يعملون على انجاحه.

لكن ما لم يعرفه القليبي خلال وجوده في هذه الاجتماعات هو أن الأمير تلقى في اليوم ذاته رسالة هامة من الملك فهد يرحب هذا فيها بحضوره إلى جدة في ٣١ يوليو للمشاركة في مؤتمر جدة. وجاء فيها:

«في الوقت الذي اتطلع فيه إلى هذا الاجتماع الأخوي أود أن أقول بأنني على يقين تام من أن حكمتكم وبعد نظركم سوف يحققان أهدافنا بمشيئة الله ويرسخان الحب والتفاهم بين الدولتين الشقيقتين.»

ومن الواضح أن الملك قصد التأكيد للأمير على أهمية توصله في مؤتمر الكويت إلى اتفاق مع العراق. لكن الأمير كان قد قرر عدم حضور المؤتمر مما أغضب صدام حسين فيما بعد. ودون ملاحظة على رسالة الملك فهد إليه يطلب فيها من أخيه الشيخ سعد ولي العهد أن يمثله في ذلك المؤتمر. وورد في الملاحظة قوله:

«ينبغي أن نحضر الاجتماع وفقا للشروط السابقة. ومن المهم أن لا ننسى مصالحنا، وعليه فلا تأبه لما قد يقوله لك السعوديون والكويتيون عن الأخوة والحفاظ على التضامن العربي فلكل طرف مصالح عليه أن يرعاها. إن السعوديين يريدون إضعافنا وإستغلال تنازلاتنا للعراقيين وذلك لكي نقدم لهم تنازلات في المنطقة المنزوعة السلاح. أما العراقيون فيريدون تعويض خسائر الحرب من مواردنا. ولن نستجيب لمطالب أي منهما... وذلك أيضاً هو موقف أصدقائنا في مصر وواشنطن ولندن. ونتمنى لك حظاً سعيداً.»

وبعث الأمير برسالة إلى الملك فهد يشكره فيها على دعوته ويبلغه بأن أخاه سيمثله ويبدو فيها في غاية التفاؤل بقوله:

«دعني اشكرك وأثني على مجهودك الأخوي وحكمتك وبعد نظرك. ونحن على يقين من اجتماعنا برعايتكم ودعمكم سوف يؤدي بمشيئة الله إلى النتائج المرجوة وإلى التخلص من المصاعب وإلى الثقة المتبادلة والحب للجميع.»

وكانت الرسالتان والملاحظة لولي العهد مؤشرات هامة على أن قمة جدة لن تنجح.

***

وفي ٢٧ تموز أرسلت وكالة المخابرات المركزية إلى البيت الأبيض صورا جوية لحشود متزايدة من الرجال والعتاد. فبادرت واشنطن إلى تحذير الكويت ومصر والسعودية. لكن ردود هذه الدول على التحذير أجمعت على استبعاد فكرة الغزو وتحدثت عن «ابتزاز عراقي» للحصول على جزيرتين كويتيتين في الخليج وعلى حقل نفط متنازع عليه. وشاركتهم الرأي وزارة الخارجية الأميركية ومجلس الأمن القومي.

وفي ١٨ يوليو أخذت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية تبدو أكثر دقة وتنذر بالمزيد من الخطر. إذ ذكرت أن الرئيس العراقي أنشأ خطوط إمداد واسعة لقواته العسكرية المتمركزة على الحدود، كما أشارت بوجه خاص إلى العدد الكبير من الشاحنات الذي يوفر الدعم اللوجستي. وكان وليم وبستر مدير الوكالة مقتنعا بأن مثل ذلك الدعم اللوجستي ضروري إذا كان الغرض من العملية مجرد الترهيب.

وأخذت وكالة الاستخبارات تتلقى معلومات جديدة في كل ساعة تقريباً. وكان مصدر اكثر هذه المعلومات هو من وكالة الأمن القومي.

كانت هذه الوكالة التي تفوق وكالة الاستخبارات كثيرا في حجمها وميزانيتها أكبر وأحدث مركز للمعلومات في العالم. وهي تقوم في «فورت ميد» بالقرب من واشنطن وتتألف، كالدماغ البشري، من منطقتين: منطقة اليمين المسماة «كاريبون» ومنطقة اليسار «لودستون». وكانت لديها أجهزة كومبيوتر ضخمة قادرة على استيعاب ٢٠٠ مليون كلمة في الثانية الواحدة. وكان بإمكان بعض تلك الأجهزة نقل ٣٢٠ مليون كلمة في الثانية أي ما يعادل ٢٥٠٠ من الكتب التي يحوي كل واحد منها ٣٠٠ صفحة. وبفضل مراكز التنصت التابعة لها والموزعة في أرجاء العالم وأقمار تجسسها،

كانت قادرةعلى التقاط الأحاديث السرّية وعلى تحديد تحركات الفرق العسكرية، مهما صغرت، في كل نقطة من الأرض. وهي بفضل محلليها ورياضييها ومترجمي رموزها، وكلهم من أفضل الجامعيين الاميركيين، تستطيع حتى معرفة دقائق حديث يجري في غرفة مقفلة وذلك بقياس الكتروني لذبذبات زجاج النوافذ بواسطة أشعة غير مرئية.

في ٢٨ تموز نفسه، قابل ياسر عرفات صدام حسين الذي طلب منه الذهاب الى الكويت وقال له: «تحدّث مع الأمير وأبلغه أنه اذا دفع عشرة مليارات دولار مقابل استثماره حقل الرميلة النفطي على الحدود، فسوف اسحب بعض قواتي».

ولم يقل صدام حسين لعرفات بأنه لا يعتزم غزو الكويت.

***

وفي ٢٩ تموز وصل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية إلى الكويت. واضطر إلى انتظار ساعات طويلة قبل مقابلته الأمير. وما أن بدأ عرفات بعرض الاقتراح العراقي حتى قاطعه الأمير جابر بفظاظة: «لا أريد النقاش في هذا الموضوع. فخلال ثمانية وأربعين ساعة سأكون في طريقي إلى جدة لعقد قمة مع العراق ولنتكلم بدلا من ذلك عن الهجرة اليهودية السوفييتية الى اسرائيل».

كان الاحتقار والجفاء يطغيان على لهجة الأمير. وبالرغم من المهانة التي شعر بها عرفات فإنه لم يستطع أن يقول شيئاً. فالكويت كانت المموّل الرئيسي لمنظمة التحريرالفلسطينية.

وعند نهاية الاجتماع حاول عرفات العودة الى الاقتراح العراقي ولكن الأمير قاطعه من جديد: «قلت لك بوضوح، لا أريد الخوض في الموضوع».

ثم قابل عرفات ولي العهد الشيخ سعد. فكان الحديث بين الرجلين أقرب إلى الحديث الطبيعي. قال عرفات:

«عليكم دفع مبلغ عشرة ملايين دولار. فالعراقيون خطرون. وأنت تعلم أنني أنا من الكويت وعشت فيها عدة سنوات. حاولوا أن تحلوا المشكلة.» فأجاب الأمير سعد: «أنا ذاهب إلى جدة.» فقال عرفات:

«لا تذهب خالي الوفاض. اقترح حلاً.» فأتى الأمير بحركة تدل على الضجر وقال: «القرار الأخير للأسف ليس بأيدينا». وكان من الواضح أنه في غاية القلق بسبب تطور الأحداث على ذلك النحو. فسأله عرفات: «هل أنتم مستعدون لمجابهة عسكرية». فهز سعد رأسه وقال:

«لا لسنا أقوياء كالعراق. ونحن لا ننوي القتال.»

***

وبحلول ٣٠ تموز صار بمقدور وكالة الاستخبارات المركزية تكوين صورة تقديرية واضحة للحشود العراقية قرب الحدود الكويتية: ١٠٠,٠٠٠ (مئة ألف) جندي عراقي بينهم قوات النخبة التابعة للحرس الجمهوري، ٣٠٠ دبابة و ٣٠٠ مدفع ثقيل. وكانت واشنطن لا تزال تلتزم الصمت.

ولم يقطع حبل الصمت إلا عندما دخل جون كيلي في اليوم التالي مبنى الكابيتول ليدلي بشهادته أمام لجنة الشرق الأوسط الفرعية التابعة لمجلس النواب. وبعد أن أدلى بها أجاب بهدوء على الأسئلة التي وجهت إليه وخصوصا أسئلة النائب لي هاملتون الذي قال:

«ورد في الصحف تصريح لوزير الدفاع ريتشارد تشيني يقول فيه إن الولايات المتحدة ملتزمة بالدفاع عن الكويت إذا هوجمت. فهل هذا هو ما صرح به؟ هل يتفضل السيد كيلي بتوضيح هذا الأمر؟» فرد كيلي بقوله:

«لا أعرف التصريح الذي تشيرإليه. ولكنني واثق من موقف الحكومة من هذه القضية. ليست هناك معاهدة بيننا وبين دول الخليج. هذا واضح. ونحن ندعم استقلال وأمن جميع الدول الصديقة في المنطقة. ولنا قوات بحرية في المنطقة منذ عهد ادارة ترومان وذلك لأن استقرارها يخدم مصالحنا. ونحن ندعو إلى حل سلمي لجميع النزاعات ونعتقد بوجوب احترام سيادة كل دولة في الخليج.» فقال لي هاملتون:

«وماذا سيكون موقفنا من استخدام القوات الأميركية إذا تجاوز العراق مثلا الحدود الكويتية؟ فرد كيلي بقوله:

«هذا سؤال افتراضي لا أستطيع التعرض له. واكتفي بالقول بأن هذا سيكون

موضع اهتمامنا الشديد ولكني لا أستطيع الخوض في ميادين الافتراض». فسأله لي هاملتون:

«لكن إذا حدث شيء من هذا فهل يكون موقفنا صحيحا إذا قلنا بأنه لا توجد معاهدة أو التزام يوجب استخدام القوات الأميركية؟» فأجاب كيلي:

«هذا صحيح تماما.»

وأذاعت محطة الاذاعة البريطانية (بي بي سي) تصريحات كيلي وسُمعت في بغداد. وعليه ففي هذا الوقت الحرج وعندما كان السلم والحرب في الميزان أرسل كيلي إشارة إلى صدام يمكن اعتبارها تعهدا بعدم تدخل الولايات المتحدة.

ولا يوجد في تاريخ الدبلوماسية الأميركية الحديث سوى خطأ واحد في الحسابات مثل هذا وذلك عندما قال دين أتشيسون وزير الخارجية للكونجرس عام ١٩٥٠ بأن «كوريا الجنوبية ليست في مجال الدفاع الأميركي.» وفي اعقاب ذلك قامت كوريا الشمالية بغزو كوريا الجنوبية.

***

وفي اليوم ذاته غادر ثلاثة من المسؤولين العراقيين بغداد إلى جدة للاجتماع بالوفد الكويتي ومواصلة المفاوضات. وكان هذا الاجتماع آخر خيط رفيع يربط العالم «بمنطق السلم» وكان هذا الخيط على وشك الانقطاع. وقبل موعد الاجتماع بثلاث ساعات فقط أعلن أمير الكويت بأنه لن يحضره وأن ولي العهد سوف يمثله فيه.

وكان لهذا النبأ وقع «الإهانة القاتلة» على صدام حسين، وقرر هو الآخر عدم الذهاب إلى جدة وإرسال عزت ابراهيم الرجل الثاني في حزب البعث.

الفصل الخامس

«إنها البداية فقط»

كان مؤتمر جدة حدثاً مضطربا مأساويا أدى إلى الحرب لأنه لم يكن بمقدور أحد أن يتجنبها. كما أنه لم يكن لدى أحد رغبة في ذلك.

واجتمع الوفدان في غرفة بمركز المؤتمرات الحديث في العاصمة السعودية في الساعة السادسة من مساء ٣١ تموز.

وضم الوفد الكويتي الشيخ سعد ولي العهد ورئيس الوزراء ووزير العدل الذي كان قد أظهر حكمة وبعد نظر في خطابه في اجتماع مجلس الوزراء قبل ذلك بثلاثة عشر يوما.

وضم الوفد العراقي بالاضافة إلى عزت ابراهيم - نائب رئيس مجلس قيادة الثورة والرجل الثاني في حزب البعث - سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء، وعلي حسن الماجد ابن عم صدام حسين الذي سوف يُعين بعد ذلك بأسابيع قليلة حاكما للكويت.

وبقي الكويتيون والعراقيون في جدة حتى اليوم التالي أي الأول من أغسطس، لكن المفاوضات الحقيقية لم تدم على أكثر تقدير أكثر من ساعة ونصف من السادسة إلى السابعة والنصف من مساء اليوم الأول ورفعت الجلسة بعد ذلك وذهب المشاركون إلى الجامع للصلاة.

وحيا الأمير عبد الله ولي العهد السعودي الوفدين لكن لم يكد يبدأ الاجتماع حتى غادر القاعة.

***

بدأ العراقيون بالكلام فتلا عزت ابراهيم بياناً مُعَدا كرر فيه الاتهامات العراقية للكويت واحدا تلو الآخر. لكن بيانه خلا من أي اتهام محدد. وقرأه ببطء وعناية شديدة وبدون أن يزيد عليه كلمة واحدة. وجاءت لغته غريبة تتخللها التعابير الدينية. وقال أحد الكويتيين ممن حضروا الاجتماع: «لقد ولد لدينا شعورا غريبا. ان عليه مسحة من التزمت بدا معها وكأنه موعظة في أحد الجوامع.»

أحدثت هذه المقدمة في البداية ارتباكا لدى الكويتيين. لكن ما لبث الشيخ سعد ولي العهد أن أخذ يفند بهدوء المظالم العراقية واحدة بعد أخرى. وبالرغم من أن الجو لم يكن قد توتر كثيراً فان احتمال فشل المؤتمر بدا واضحا للجانبين.

قال سعدون حمادي: «إن هذا الاجتماع الذي علقنا عليه الآمال الكبيرة تكشف عن خيبة أمل شديدة. لقد اعتبرناه فرصتنا الأخيرة، وتوقعنا أن يحمل لنا الكويتيون مشروع حل. كنا على اتصال بهم وشرحنا لهم كل شيء بوضوح. ولكن لم يكن لديهم أي شيء ملموس يعرضونه. ولم يخرج ما كان لديهم من حجج يدافعون بها عن أنفسهم وادعاءات ببطلان اتهاماتنا لهم».

وقال الشيخ سعد ولي العهد الكويتي: «دار النقاش حول البترول. وقال العراقيون أيضا بأن الكويتيين بدأوا بوضع قوات من الشرطة داخل الأراضي العراقية، وأن الكويت قد غيرت سياستها وأن سياستها الجديدة تعرض مستقبل الامارة للخطر ورددت على جميع الملاحظات والأسئلة بطريقة مباشرة».

في إحدى مراحل الاجتماع انتقل المفاوضان الرئيسان إلى غرفة جانبية وتحدثا لمدة ١٠ دقائق. ثم سأل عزت ابراهيم، رئيس الوفد العراقي الأمير سعد: « ما رأيكم بدعوة أعضاء الوفدين كي يسمعوا ما عندكم؟» فوافق رئيس الوفد الكويتي. وقد بدا الجو غير العدائي السائد متناقضاً مع خطورة المواضيع المطروحة.

بدأ الجو بالتوتر عند طرح الأمور المالية. وبالرغم من نفي الفريقين، فإن الأمور المالية كانت موضع نقاش حاد طويل.

طلب عزت ابراهيم مبلغ ١٠ مليارات دولار، وعلى شكل قرض إن استحال تقديمها كهبة. وبعد أخذ ورد وافق ولي العهد على تقديم قرض بمبلغ تسعة بلايين دولار. وأحسّ العراقيون بأن المقصود من إنقاص المبلغ ملياراً واحداً هو محاولة مقصودة لإذلالهم، فأجابه عزت ابراهيم بقوله: « لا لست مخولاً من قبل الرئيس صدام حسين بقبول أقل من ١٠ بلايين دولار».

وبعد رفع الجلسة في السابعة والنصف وتأدية الصلاة، عاد الوفد الكويتي الى الفندق بانتظار حفل العشاء الذي يقيمه الملك فهد.

يقول عبد الله بشارة أمين سر مجلس التعاون الخليجي الذي حضر المناقشات: «اقترحنا على ولي العهد السعودي تقديم اقتراح يتفق بموجبه الطرفان على النقاط الاربع التالية: وقف جميع الدعايات العدائية في وسائل الاعلام وخاصة العراقية؛ وانسحاب القوات المرابطة على الحدود بين البلدين، ثم، وهذا هو الأهم سياسياً، اعتماد إجراءات كفيلة بزرع الثقة المتبادلة بين البلدين بواسطة الحوار والزيارات. . . الخ، وأخيراً التوصل الى اتفاق حول الاجتماع المقبل».

وهكذا تقرر مواصلة المفاوضات في بغداد، الأمر الذي رسّخ اعتقاد الكويتيين بأن العراقيين لن ينفذوا أياً من تهديداتهم. والواقع أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار خطورة الوضع والقلق الدولي المتزايد وجدنا أن النقاط الأربع التى وافق عليها الوفد الكويتي لا تخلو من مسحة خيالية.

وكانت ردود فعل أسواق النفط العالمية على الحشود العراقية على الحدود الكويتية قد بدأت تظهر. ففي ذلك اليوم الذي كان الوفدان يستعدان فيه لمغادرة القصر الملكي السعودي حيث كان الملك فهد في انتظارهم، ارتفع سعر برميل النفط ٤٥ سنتا وبلغ سعر نفط برنت حوالي عشرين دولاراً.

بدأ تقديم العشاء في التاسعة والنصف. وحضر الملك فهد ومعه الملك حسين الذي كان قد وصل قبل بضع ساعات. وجلس الملك وعلى يمينه ولي العهد الكويتي وعلى شماله عزت ابراهيم. وأحيط الملك فهد قبل جلوسه الى المائدة علما بمجرى المفاوضات وخصوصا برفض الكويتيين رفع مبلغ القرض من تسعة إلى عشرة بلايين دولار. وساد المكان جو ثقيل حاول الملك فهد جهده أن يخفف من وطأته بالحديث عن مباهج تربية الخيول الأصيلة وتوالدها. لكن تبادل الحديث انقطع. وظل الملك يتحدث وكأنه يتحدث مع نفسه ـ إذ لاذ العراقيون بالصمت وخيم على الكويتيين جو من الكآبة وتشتت الفكر ـ وكان الفريقان يحاولان إخفاء شعورهما بخيبة الأمل بالرغم من أن أحد المفاوضين الكويتيين ادعى فيما بعد بأن العراقيين كانوا في قرارة نفوسهم مسرورين ـ قال: «كانوا على وشك الانتهاء من اجتماع انتهى إلى الجمود. وهذا بالضبط ما كانوا يريدونه».

وقبيل انتهاء المأدبة التفت الملك فهد إلى ضيوفه وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وأعلن

أن السعودية ستدفع البليون دولار المختلف عليه ـ «كهدية من بلادي للعراق وبدون أية شروط» .

فشكره العراقيون بحرارة . وبعد قليل انسحب إلى داخل القصر. ولا بد أنه ظن أن مبادرته كافية لتنفيس الاحتقان لدى الوفدين . وكان هذا أيضاً تقدير الملك حسين الذي نهض أيضاً وترك الكويتيين والعراقيين وحدهم .

فقال الشيخ سعد لعزت ابراهيم : «قبل أن نضع التفاصيل المتعلقة بالقرض علينا أن نطرح للبحث مسألة أخرى . علينا أن نرسم بالضبط الحدود بين البلدين ـ ويمكننا أن نقوم بذلك الآن وفي هذا الاجتماع . ومن ثم يكون المبلغ بين أيديكم» . فاستولى الغضب على عزت ابراهيم واتهم الكويتيين بسوء النية وسأل ولي العهد الكويتي : «لماذا لم تطرحوا مسألة الحدود في بداية الاجتماع؟» .

وجاء جواب ولي العهد الكويتي غريباً . قال : «لم تكن لدينا أوامر من الأمير بمعالجة هذه القضية عند بدء الاجتماع» .

فاشتدت حدة النقاش وقال ولي العهد الكويتي بأن الكويت تلقت تأكيدات من الحكومة البريطانية بأن العراق لن يهاجم . ولا ريب في أن عبارته هذه كانت مؤسفة واستفزازية ـ وقال له عزت ابراهيم : «إننا نعرف تماماً كيف نحصل على المال الذي نحتاج اليه منكم ومن السعوديين» .

وعندما قال هذا كان هو وسعد يقفان أحدهما قبالة الآخر وهو يصيح غاضباً . فأجابه سعد : «لا تهددنا . فالكويت لها أصدقاء أقوياء جداً (ومن المؤكد أنه كان يقصد الولايات المتحدة وبريطانيا) . ولدينا حلفاء أيضاً . وسوف تضطرون إلى تسديد ما عليكم من ديون لنا» .

كانت هذه التهديدات آخر ما صدر عن الطرفين . وافترق الوفدان بدون أن يتبادلا التحيات الرسمية وعادا إلى فندقيهما . وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل والملك فهد غارق في النوم .

وفي العاشرة من صباح الأول من أغسطس وبينما كان سعدون حمادي في غرفته بالفندق تلقى مكالمة هاتفية من وزير خارجية الكويت الذي اقترح إصدار بيان

مشترك، وذكر النقاط التي يرى أن يشتمل عليها. وأصغى حمادي باهتمام. وفوجىء بعبارة وردت فيها وتشير إلى «إحراز تقدم» فقال بأن عليه أن يتصل برئيس وفده.

وذهب سعدون إلى غرفة عزت ابراهيم وأبلغه الاقتراح الكويتي. فقال عزت ابراهيم: «هذا ليس صحيحاً. لم نستطع تسوية شيء. لا نستطيع أن نفعل ذلك».

واتصل حمادي بالوزير الكويتي وأبلغه بأن لكل وفد أن يصدر بيانه ويصرح للصحافة بما يشاء.

وغادر الوفد الكويتي جدة في الساعة الرابعة بعد الظهر. وحال وصوله إلى الكويت توجه ولي العهد إلى مكتب الأمير بقصر بيان الذي شيد عام ١٩٨٦ ليكون مقراً للمؤتمرات. وكان خلال رحلة العودة يبدو قلقا وقال لاعضاء الوفد: «إنني أرى في الافق شبح الكارثة».

***

في صباح الأول من أغسطس أيضاً كان الشاذلي القليبي في القاهرة. وكان قد وصل إليها قبل ذلك بيومين للمشاركة في مؤتمر إسلامي يهدف إلى العودة الى وحدة الصف العربي. وعندما أفاق في صباح ذلك اليوم قرأ في أخبار الصباح أن قمة جدة لم تسفر عن أي اتفاق. وكان قبل ذلك على يقين بأن الاجتماع سيسفر عن التوصل إلى اتفاق. فأقلقته الأخبار الواردة من السعودية. فرفع سماعة التلفون واتصل بالشيخ صباح وزير الخارجية الكويتية. فهدأ الشيخ صباح مخاوفه وقال له بأن اجتماع جدة لم يكن سوى اجتماع بروتوكولي وأنه سيكون هناك في الرابع من أغسطس اجتماع آخر ببغداد حيث ـ كما أضاف ـ سيجري التوصل إلى حل. وأعاد القليبي السماعة الى مكانها وهو يشعر بتفاهة ما سمعه. فأجرى مكالمة ثانية مع الأمير عبد الله بالسعودية، وسأله عما جرى في اليوم السابق. وجاء الجواب صريحاً: «كان أصدقاؤنا العراقيون كالكويتيين في غاية التشدد. وما هذا سوى البداية. فلننتظر ما سيجري في بغداد».

***

وغادر العراقيون السعودية بدون حتى وداع مضيفهم. تركوا جدة قبل الظهر. وبعد أن توقفوا قليلاً في المدينة المنورة (لأن سعدون حمادي كان شيعياً تقياً) واصلوا

رحلتهم، فوصلوا بغداد في الرابعة بعد الظهر. وتوجه عزت ابراهيم على الفور للاجتماع بصدام حسين الذي كان ينتظره بفارغ الصبر وأطلعه على أسباب فشل الاجتماع بالتفصيل. فاستدعى صدام حسين أعضاء مجلس قيادة الثورة. وقبل مرور نصف ساعة كان قد اتخذ قرار غزو الكويت في تلك الليلة.

***

وفي اليوم ذاته ارتفع سعر البترول ٦٠ سنتا ولم يسمع في العبدلي نقطة الحدود الوحيدة بين البلدين والتي تبعد ٤٥ ميلا عن الكويت عن وقوع حوادث. وواصلت السيارات مرورها بشكل عادي.

***

وفي اسرائيل شاعت قصة مسلية عن خبير خطوط طلب منه أن يفحص خط صدام حسين لكن بدون أن يعرف أنه خطه. فقال بعد فحصه: «إن كاتب هذا بحاجة إلى مساعدة طبية نفسانية». وحتى هذا الوقت لم يبد القلق على الاسرائيليين ولم يبدأوا بالتعبئة. ففي ذلك اليوم ذاته تزوج الميجر جنرال أمنون شاهاك رئيس المخابرات العسكرية. وفي حفل الاستقبال الذي أقيم سأله الصحفيون عما اذا كانت البلاد معرضة للغزو العراقي. فاعتبر السؤال مسلياً وأجاب بالنفي. وبعد ذلك ببضع ساعات ذهب لقضاء شهر العسل.

***

وصل جيمس بيكر إلى اركوتسك (في قلب سيبريا) الساعة السابعة مساء (حسب التوقيت المحلي) لإجراء محادثات مع نظيره السوفييتي ادوارد شيفارنادزه. ولم يخطر ببال أي منهما أن هذه المدينة اللطيفة ذات الشوارع العريضة والأبنية الداكنة ستشهد اول اختبار حقيقي للعلاقة الاميركية السوفييتية الجديدة.

فقد صرح جورج بوش وميخائيل غورباتشوف في كثرة من المناسبات أن «عهداً جديداً قد بدأ». ولم يخطر ببالهما أنها ستبدأ بهذه الطريقة المأساوية. وكانت أخبار ما يجري في الخليج تصل إلى بيكر على خط خاص يصله بواشنطن. فأخذ يشعر بأن الأمور تتخذ منحى خطيراً.

التقى بيكر بشيفارنادزه على عشاء خاص. ومنذ أصبح شيفارنادزه ذو الشعر

الأبيض والابتسامة العريضة وزيراً للخارجية قبل ذلك بخمس سنوات أثبت أنه مفاوض رائع. هذا بالرغم من أنه لم يجر إعداده لهذا المنصب. إذ سبق له أن كان ضابطا في المخابرات الروسية (KGB) ووزيراً للداخلية وزعيم جمهورية جورجيا حيث حكم بطريقة قمعية. وجلس الاثنان في المقعد الخلفي لسيارة زيل التي اخترقت شوارع اركوتسك والأعلام الأميركية ترفرف في وجه الرياح الباردة.

أخذت الأحداث تتوالى بسرعة، وبدأت الولايات المتحدة تنفض عن نفسها غبار الخمول وتولي تطور الأحداث اهتماماً شديداً. وعقد اجتماع في وزارة الخارجية لمديري مختلف الوكالات المعنية ففشل مؤتمر جدة وحجم الحشود العراقية على الحدود أقنع المسؤولين الأميركيين بان هدف صدام ليس مجرد الضغط على الكويت. وتلقى المجتمعون معلومات من وكالة المخابرات المركزية مفادها أن غزو الكويت صار وشيك الوقوع.

وفي البنتاغون عقد الجنرال كولن باول رئيس الأركان اجتماعا مغلقا مع كبار العسكريين في غرفة مجاورة لمقر القيادة العسكرية. وكانت الغرفة هي غرفة المؤتمرات المعروفة باسم (المصفحة) هي صومعة نظام الدفاع الأميركي المحصنة ضد أي محاولة للتنصت.

حتى ٣٠ تموز لم يكن البنتاغون يعتبر الغزو العراقي أمرا محتمل الوقوع. فقد ذهب المحللون بأن العراق يفتقر إلى أربع أمور أساسية وهي: نظام للاتصالات، ومدفعية، وذخيرة ووسائل لوجستية ضرورية لدعم الهجوم. وبالرغم من توافر هذه العناصر في الأول من أغسطس فإنه لم يتنبأ أحد بالغزو. والواقع أن أحد الحاضرين ـ وهو الجنرال نورمان شوارز كوف ـ عاد إلى مقره في فلوريدا.

وفي تلك الأثناء دعا مضر بدران رئيس الوزراء الأردني إلى عقد جلسة مغلقة للبرلمان وسبق لمضر أن رافق الملك حسين في رحلاته إلى العواصم العربية للوساطة. وكان قبل ذلك بيومين قد زار بغداد والكويت. وقال مضر لأعضاء البرلمان: «من الواضح أن العراق لن يتنازل عن مطالبة الكويت بالتعويض عن خفض أسعار البترول. وهو لا يريد الغاء ديونه فقط. إنه يصر على تجاوز الكويت والإمارات الحد في الانتاج عملا أسوأ من الحرب مع إيران».

وواصل عرضه لمواقف العراقيين لمدة ثلاث ساعات. وقال أحد الحاضرين فيما بعد: «كان من الواضح أنه يعرف بأن الغزو سيقع في الساعات القليلة المقبلة وأنه أراد أن يهيئنا لذلك».

ومن المصادفات الغريبة أن المخابرات العسكرية الاسرائيلية علمت بأن الغزو وشيك الوقوع من مصادر اردنية بعد ظهر اليوم ذاته. وعملا بالاتفاقات القائمة منذ عدة سنوات قامت في الحال بإخطار المركز المحلي لوكالة المخابرات المركزية الأميركية.

***

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساء في واشنطن عندما خرج ريتشارد هاس المدير الأعلى لشؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي من الاجتماع بوزارة الخارجية وعاد إلى البيت الأبيض للاجتماع مع رئيسه الجنرال برنت سكوكروفت. وهناك قدم تقريرا مفصلاً عن مختلف بيانات ووجهات نظر الذين حضروا الاجتماع. وتبين شيء واحد وهو أنه ليس هناك إجماع على أن العراق هو مجرد عرض للعضلات لإجبار الكويت على تقديم تنازلات في المفاوضات.

وبعد نصف ساعة غادر سكوكروفت وَهاس مكاتب مجلس الأمن القومي بالدور الأرضي وصعدا للاجتماع ببوش في مسكنه بالدور الأول من المبنى الرئيسي. وبينما كان ثلاثتهم يناقشون نتائج الاجتماع ودلالاته رن جرس التلفون وعندما رفع سكوكروفت السماعة سمع صوت روبرت كيميت وزير الخارجية بالنيابة بسبب غياب جيمس بيكر ونائبه لورنس ايغلبرغر. وأبلغ كيميت سكوكروفت أنه تلقى معلومات لم تتأكد بعد عن وقوع اول إطلاق نار بالكويت.

كان كيميت قد اتصل قبل ذلك بوقت قصير ببيكر في اركوتسك حيث كانت الساعة تشير إلى السابعة من صباح الثاني من أغسطس. وبما أن خط التلفون لم يكن «مأمونا» بسبب إمكان التنصت إليه كان عليه أن ينقل معلومات محددة بعبارات غامضة. لكن بيكر فهم فحوى الرسالة: جميع الدلائل تشير إلى أن الغزو أصبح وشيكا.

وبعد ذلك بنصف ساعة إجتمع بشيفارنادزه للمرة الثانية وأبلغه ما سمعه من

واشنطن. قال بيكر: « إن مخابراتنا تقول بأن القوات العراقية المحتشدة على الحدود الكويتية تتلقى الامدادات باستمرار. ومن المتوقع وقوع الغزو. ونأمل في كبح جماح العراقيين».

كان وزير الخارجية صديقا لجورج بوش. وكان كلاهما نموذجاً صادقاً للمجتمع الراقي في الساحل الشرقي وله القدرة على التعبير عن الوقائع الدرامية باسلوب لا أثر فيه للانفعال. وتحدث بيكر عن الأمر مع شيفارنادزه الذي صار يكن له الاحترام بكلمات محسوبة كما لو كان يتحدث إلى زميل له من أيام الدراسة ببرنستون.

واستمع شيفارنادزه الى بيكر بمزيج من عدم التصديق والاحراج. وأجابه بأن الزعماء السوفييت يعرفون صدام حسين منذ زمن طويل وأضاف وهو يبتسم: «إنه يتعامل معنا. وأنا أثق فيه. ولا أعتقد أنه يعتزم غزو الكويت».

وفي أعقاب ذلك مباشرة عقدا مؤتمراً صحفيا وهما لا يعرفان أن غزو الكويت قد وقع بالفعل.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة عندما تلقى الرئيس بوش وزميلاه معلومات اكثر تفصيلا من دوائر المخابرات تؤكد أبعاد الغزو. إذ لم يكتف صدام باحتلال الحدود بل تجاوز ذلك إلى اجتياح البلاد.

***

في مدينة الكويت استيقظ ولي العهد في الساعة الواحدة والنصف صباحاً (العاشرة والنصف مساء بتوقيت غرينتش، والسادسة والنصف مساء بواشنطن) عندما تلقى مكالمة مقلقة من وزير الدفاع الذي كان يتكلم من مركز القيادة العسكرية يقول فيها بأن القوات العراقية اجتازت الحدود. فكان أول ما تبادر إلى ذهنه هو قناعته من قبل بأن صدام يريد الاستيلاء على آبار النفط القريبة من الحدود وربما أيضاً على جزيرتي بوبيان ووربة عند مدخل الخليج اللتين كان يطمح إلى الحصول عليهما منذ سنوات.

اتصل ولي العهد سعد على الفور بعدد من افراد الأسرة الحاكمة. وكان الذهول قد سيطر عليهم جميعاً. وازدادت حدته عندما أخذت الأنباء ترد بالتدريج عن تحرك مئات الدبابات الثقيلة السوفييتية الصنع من طراز ت ٦٢ إلى الكويت. وكانت على بعد ٣٥

ميلا من العاصمة ترافقها شاحنات تحمل مئات الجنود والعربات المساندة المليئة بالبترول والماء.

***

أذاع راديو بغداد بيانا أعلن فيه أن «جماعة كانت تحاول قلب الحكومة الكويتية». وقبل مضي وقت طويل أصدر مجلس قيادة الثورة بيانا يقول إن المحاولة نجحت وإن « الثوار الشباب يطلبون المساعدة من العراق. وردا على نداء الحكومة المؤقتة الجديدة في الكويت قرر العراق تلبية طلبهم للمساعدة». وأضاف البيان بشكل محدد: «لقد دعا العراق إلى منع كل إمكان للتدخل الأجنبي في شؤون الكويت وفي مصير الثورة». وأدانت إذاعة بغداد آل الصباح وقالت « إنهم خونة وعملاء للصهيونية».

وتم بسرعة تحييد القاعدتين الجويتين الرئيسيتين في الكويت . فاحتلت وحدات المظليين قاعدة أحمد الجابر قرب المطار بدون أية مقاومة.

وقصفت قاعدة علي السالم قرب الحدود السعودية قصفا ثقيلا قبل نزول المروحيات المحملة بالجنود.

وبعد الغزو مباشرة هبطت طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية وهي في رحلتها رقم ١٤٩ إلى كوالا لامبور في مطار الكويت الذي يبعد ثمانية أميال عن العاصمة. وكانت الطائرة من طراز بوينغ ٧٤٧ وعلى متنها ٣٦٧ راكبا وطاقم يتألف من ثمانية عشر شخصا. وبعد هبوطها على المدرج في الساعة الثانية صباحا ببضع دقائق أخذت الطائرات العراقية تقصف المطار بينما كان طابور مدرع يتجه إليه. فوقع المسافرون في الفخ وصار من الممكن تحويلهم إلى رهائن.

ولم يبد الجيش الكويتي المؤلف من ٢٥٠٠٠ جندي سوى مقاومة ضئيلة لآلة الحرب العراقية.

***

في الرابعة صباحا تبين لولي العهد وباقي أسرة آل الصباح أنه لا أمل في وقف الحرب. وكانوا على اتصال دائم بواسطة التلفون بالسفارة الأميركية. وعندما عُلم بأن طلائع القوات أصبحت على بعد بضعة أميال من العاصمة قرر الأمير وأقرب أفراد

أسرته إليه مغادرة قصر دسمان الفخم المسوّر حيث كان يعيش عدد من أفراد الأسرة الحاكمة. وأخذ أفراد الحرس الأميري مواقعهم حول القصر. لكن لم يكن لدى أي منهم أمل في الدفاع بشكل فعال ضد النيران الأميركية. وأخذ الخوف يحل محل الذعر. وصارت تتلو الأوامر أوامر مضادة: فهل كان عليهم مغادرة القصر في الحال أو الانتظار؟ وهل كان عليهم الاتصال بإحدى القاعدتين الجويتين العسكرية لإعداد طائرة؟ وكان الأمير قد فقد ثقته بالقوات الجوية، فقال بأنه يحتمل أن يكون العراقيون قد حيدوها.

ربما كان آل الصباح عندئذ يعيشون في غرف القصر التي تتلألأ أضواؤها اللحظات الأخيرة من عهد امارة دامت قرنين ونصف قرن من الزمن. فبفضل الذهب الأسود والدخل القومي الذي لا يقل عن عشرين بليون من الدولارات كانت الكويت قد أصبحت أغنى دولة في العالم. لكن النفط الذي عاد عليها بالثروة طيلة سنوات أصبح سبب سقوطها. ففي حين أن الجميع كانو يحسدونها، فإن المسؤولين فيها فقدوا القدرة على الرؤية، والرغبة في التوصل إلى حلول وسط. ولم يدركوا أنهم كانوا فريسة سهلة تنتظر من ينقض عليها. وكان صدام حسين بالمرصاد.

وأرعب صوت القذائف من في القصر. وأخذ تبادل نيران الأسلحة الأتوماتيكية يقترب. ولاحت أعمدة الدخان المتصاعدة. وتعرضت المباني والمستودعات لإصابات مباشرة. ولم يعد لدى آل الصباح أدنى شك فيما يحدث: لقد كان قصر دسمان أحد الأهداف وربما الهدف الأول الذي حدده صدام لقواته. إذ كان يدرك أن الاستيلاء على الكويت لن يتم بدون إزالة المسؤولين عن امارة تافهة.

وانهمك الخدم في تحميل عدد من السيارات المتوقفة عند مدخل القصر. وفي الساعة ٤٥ : ٤ صباحا انطلق آل الصباح ربما لآخر مرة مسرعين بسيارات الليموزين عبر الحدائق الرائعة المحيطة بالقصر. وشق الموكب طريقه عبر الشوارع المهجورة إلا من بعض الوحدات المدرعة المتجهة إلى جبهة القتال الزاحفة عليهم.

كانت جميع التفصيلات قد وضعت وأجريت آخر مكالمة تلفونية قبل الانطلاق مباشرة. فتوقفت السيارات أمام باب السفارة الأميركية حيث كان السفير بانتظارهم فحيا الأمير وحاشيته. وكانت بانتظارهم على بعد خطوات مروحية أميركية متأهبة

للانطلاق. ولما لم يكن فيها متسع للجميع فقد استقلها الأمير وولي العهد وعدد من افراد الحاشية، وتوجه الآخرون بالسيارات جنوبا إلى السعودية. وكانت الحدود على بعد ٣٠ ميلا فقط والطرق إليها لا تزال آمنة. وعندما أقلعت الطائرة بالأمير الذي كان قد أضناه ما مرّ به ويشعر بالانهاك، ألصق وجهه بزجاج إحدى النوافذ وأخذ يراقب طوابير الجنود العراقيين وهي تدخل ضواحي عاصمته.

وبسبب الفارق في التوقيت فإن اليابان كانت أول دولة صناعية ومالية كبرى تعرف تفاصيل الاجتياح. فبينما كانت الولايات المتحدة تستعد للنوم وأوروبا غارقة فيه، أخذت اليابان تتابع الأحداث ساعة فساعة. فبالنسبة لليابان التي تستورد ٨٠٪ من حاجاتها النفطية من الخليج بسبب عدم توافر المواد الخام فيها، اعتبرت ما يجري من أحداث مأساوية أمراً في غاية الخطورة. وفي الأسواق حيث تجري عمليات بيع النفط وشراؤه ارتفعت أسعاره كثيرا، وسرت آثار ذلك إلى الاسواق المالية في الشرق الاقصى كما تسري النار في الهشيم. ولم يلبث ذلك أن انعكس في الثاني من أغسطس على العالم كله.

كان الملك حسين نائما في قصره وسط عمان عندما رن الهاتف الموضوع إلى جانب سريره. فنظر إلى المنبه وهو شبه نائم فوجده يشير الى السادسة صباحاً. وكان وزراؤه والمقربون إليه قد تلقوا منذ زمن طويل تعليمات صارمة بأن لا يزعجوه أو يوقظوه بالتلفون إلا في حالات الطوارىء.

كان صوت المتحدث على الطرف الآخر يطغى عليه الانفعال إلى حد أن الملك لم يعرف للوهلة الأولى صاحبه الذي كان يصرخ: «هل سمعت؟ هل سمعت؟» فأدرك الملك حسين أن المتحدث هو الملك فهد. وكان هذا يتحدث إليه من جدة فأضاف: «لقد غزوا الكويت ولا يبعد الكويتيون سوى بضعة أميال عن العاصمة. عليك أن تتصل بصدام حسين وأن تطلب منه أن ينسحب إلى منطقة الحدود المتنازع عليها».

حاول الملك حسين تهدئة الملك فهد الذي كان قد حاول جاهداً الاتصال بصدام حسين. فوعد الملك بالتدخل في الحال.

***

عندما نشبت الحرب كان الشاذلي القليبي غارقاً في النوم بالقاهرة فلم يستطع حتى ان يسمع جرس التلفون عندما بدأ يدق في جناحه حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحاً. وحدث عندئذ بالضبط أن عاد مساعده شوقي المرزوق من حفلة فوجد التلفون يرن أيضاً في غرفته. وكان المتحدث عبد الرحمن العوضي وزير الصحة الكويتي الذي قال: «أحاول الاتصال بالقليبي ولكنه لا يجيب. أرجو أن توقظه». فسأله المرزوق: «وهل الأمر خطير؟ فقال العوضي: «اجل وخطير جداً».

وعندئذ أسرع المرزوق إلى جناح القليبي وأيقظه ووصله بالعوضي. فأبلغه هذا خبر الغزو. فقاطعه القليبي: «لا بد أن يكون ذلك للاستيلاء على المناطق الحدودية فقط» فقال العوضي: «لقد اجتاح الكويت بأسرها. ونحن بحاجة إلى عقد اجتماع في الحال لوزراء خارجية الدول الأعضاء بالجامعة العربية».

ووضع القليبي السماعة والتفت إلى المرزوق وقال: « إنه يبالغ، إنه يحاول إخافتنا. » فعلق المرزوق على ذلك بقوله إنه يصدق العوضي. على أنهما عندما فتحا الراديو بعد ذلك لم يسمعا شيئاً عن الموضوع.

وحوالي السادسة والنصف صباحاً استطاع القليبي أخيراً أن يتصل بالأمير فيصل وزير الخارجية السعودية. فقال الأمير: « يا لها من كارثة. انهم يستولون على البلاد، ولا ريب على البلاد برمتها». وعندئذ صدق القليبي خبر وقوع الكارثة. فاتصل تلفونيا بمروان القاسم وزير الخارجية الأردنية الذي كان قد غادر القاهرة في الليلة السابقة، وطلب منه إبلاغ الخبر للملك حسين. وعندئذ قرر مروان القاسم أن يخالف القواعد ويتصل بالقصر بالتلفون بالرغم من عدم وثوقه من الطريقة التي سيُستقبل بها اتصاله. ففوجىء بأن لدى الملك علم بذلك.

وفي السادسة والنصف حاول الملك الاتصال ببغداد. وكانت لديه عدة أرقام توصله عادة بصدام حسين. فطلبها كلها ولكنه لم يوفق في الاتصال به. ولم يستطع الاتصال إلا بطارق عزيز وزير الخارجية.

***

لم يعلم صدام شيئاً عن محاولات الملك الاتصال به. فقد كان مرابطا في الحصن المنيع الذي بناه قرب بغداد. وكان يتوسط أعضاء مجلس قيادة الثورة وكبار ضباط الجيش

وهو يتابع تقدم قواته داخل الكويت. وبحلول الساعة السادسة والنصف كان الغزو قد نجح، وسيطرت قواته فعلياً على البلاد بأسرها، وبدأت بالقضاء على جيوب المقاومة في العاصمة. ولم يستطع صدام أن يخفي سروره وهو يستمع إلى ما تورده الاذاعات عن أخبار الجبهة. فالدولة التي استولى عليها كانت صندوقا بداخله كنوز خيالية. هذا بالإضافة إلى أنها كانت في نظره جزءاً لا يتجزأ من الأراضي العراقية. لكن يرجح أنه لم يدرك أنه بإصلاحه الخطأ الذي اقترفته الدول الاستعمارية كان يتحدى باقي العالم.

***

في واشنطن كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف من مساء الأول من أغسطس. وفي حوال التاسعة من ذلك المساء توجه ريتشارد هاس وبرنت سكوكروفت مباشرة بعد اجتماعهما بجورج بوش إلى قاعة المؤتمرات في الدور الأرضي. وكانت تحيط بها عدة غرف على جدرانها خرائط ضخمة لمختلف المناطق في العالم. وكانت المعلومات التي ترد إلى البيت الأبيض كل صباح من دوائر المخابرات تنقل على تلك الخرائط. وكانت القاعة مجهزة بالكمبيوترات الاكثر تطوراً والتي تمكن من في القاعة من الاتصال فوراً بأي بقعة على وجه الأرض

وأقيم في الحال فيديو للاتصالات بين البيت الأبيض ووزارة الدفاع (البنتاغون) ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية ومقر رؤساء الأركان.

وكان المشاركون في الاجتماع إلى جانب سكوكروفت وَ هاس، جون روبسون وكيل وزير المالية، وروبرت كيميت نيابة عن جيمس بيكر، ووليم وبستر مدير وكالة المخابرات المركزية، ونائبه ديك كير، والأميرال ديف جيرميه نائب رئيس الأركان، وبول ولفوفتز وكيل وزير الدفاع.

كان باستطاعة هؤلاء جميعا وكل منهم في مكتبه أن يتحدثوا وأن يتبادلوا ويقارنوا المعلومات بواسطة فيديو الاتصال. وسرعان ما أكدوا من وقوع الغزو ونطاقه. وقام برنت سكوكروفت بتنسيق مختلف الآراء والمعلومات مما أسبغ على الاجتماع ما يتميز به من رصانة ودقة.

وكان سكوكروفت يغادر القاعة بانتظام للاتصال بجورج بوش الذى كان قد بقي في مسكنه. وفي الساعة الحادية عشرة اتصل به للمرة الأخيرة قبل أن يذهب للنوم.

اتفق المشاركون على اتخاذ عدة إجراءات منها عقد اجتماع طارىء لمجلس الأمن القومي في الثامنة من صباح اليوم التالي. وتقرر تجميد جميع الأرصدة العراقية والكويتية قبل أن يضع الغزاة أيديهم عليها. ولكن تنفيذ القرار كان يستدعي عملية تنسيق فورية على نطاق العالم كله.

وكانت السلطات الكويتية قد جرت منذ عدة سنوات على تخصيص ١٠٪ من دخول النفط من أجل قضيتين: إحداهما ويا لسخرية القدر وقدرها ٢٪ لتقديم قروض للعراق خلال الحرب مع إيران، أما الـ ٨٪ الباقية فكانت تُحوَّل إلى «صندوق الأجيال المقبلة» الذي يديره مكتب الاستثمارات الكويتية، وهو شركة قابضة عملاقة مركزها لندن.

وحسب التقديرات كانت القيمة الكلية للاستثمارات التي يديرها مكتب الاستثمارات تبلغ مئة الى مئة وعشرين بليون دولار. وكان نصيب الولايات المتحدة ١٠٪ من جميع تلك الاستثمارات. إذ كانت الكويت قد استثمرت بين ٢٥ و ٣٠ بليون دولار في أميركا في الأسهم وسندات الخزينة والعقارات. وكانت الكويت المستثمر الأكبر في اسبانيا حيث كان الكويتيون أعضاء في مجالس عدد من الشركات الكبرى وفي بعض الميادين الحساسة كالصحافة والدفاع والمركبات الهيدرو ـ كربونية. ولعب مكتب لندن للاستثمارات دوراً حيوياً في الحياة الاقتصادية ومجال الأعمال ببريطانيا. فقد كان بحيازته عدد كبير من الأسهم وخاصة أسهم شبكات البنوك والفنادق. ومضى وقت كان بحيازته ٢٢٪ من أسهم شركة «بريتش بتروليوم» فاضطر إلى تخفيضها إلى ٩,٩٪ بسبب غضب الحكومة البريطانية وموقفها العدائي. وفي ألمانيا كان مكتب الاستثمارات مساهماً في كثرة من الشركات الكبرى مثل دملر ـ بنز وهوست. وكانت الكويت أيضاً أكبر مستثمر أجنبي في اليابان وذلك في سندات الخزينة والأسواق المالية. ويمكن القول بأن المكتب تمكن هو وفروعه من اختراق الأقطار الرأسمالية الرئيسة بما فيها جنوب افريقيا في غضون بضع ساعات غير صدام ميزان القوى. فباستيلائه على آبار النفط الكويتية صار يسيطر على أكثر من خمس ما ينتجه العالم من النفط. وعلاوة على ذلك كانت

الاستثمارات الكويتية كفيلة بتزويد صدام بموارد مالية ضخمة لطموحاته العسكرية، وبوسائل إضافية لممارسة الضغط على الاقتصاد في الغرب.

***

ولمواجهة هذا الخطر تحرك المسؤولون الأميركيون بسرعة. فجرى ايقاظ عدد من المسؤولين الذين يعيشون في واشنطن وضواحيها في منتصف الليل واستدعوا إلى البيت الأبيض. وكان جميعهم من المحامين الذين يعملون في وزارة العدل. ولم يكن أحد منهم يعلم تماماً وهو يتقدم نحو ضباط الأمن على باب البيت لماذا استدعي. وفي غضون دقائق عرفوا أن المطلوب منهم هو القيام بأقصى سرعة ممكنة بإعداد وثيقة قانونية يوقعها الرئيس وتجيز تجميد جميع الأرصدة العراقية والكويتية على أراضي الولايات المتحدة. وكانت هذه خطوة معادية لبغداد تهدف إلى حماية مصالح الحكومة الكويتية التي أصبحت الآن في المنفى.

وبينما كان المحامون منكبين على عملهم أخذ روبسون وكيل وزير المالية يتصل بالتلفون بحكام البنوك المركزية في العواصم الأوروبية والآسيوية. وعلم غالبيتهم بالغزو عندما فاجأهم روبسون بالاتصال بهم في مثل ذلك الوقت المبكر من صباح اليوم. روبسون يطلب منهم اتخاذ إجراءات مماثلة بأسرع ما يمكن لتجميد جميع الأرصدة قبل أن تأخذ بغداد بزمام المبادرة عبر الوسطاء الذين يهيمنون على الكويت.

وأوقظ جورج بوش في الساعة ٤٥ : ٤ صباحا بعد أن تم إعداد الوثيقة. فوقعها وبذلك أصبحت الأرصدة مجمدة بالفعل. وقام مكتب الصحافة بالبيت الأبيض بصياغة بيان يعلن ذلك.

وبينما كان بوش يوقع الوثائق التفت إلى الجنرال برنت سكوكروفت رئيس مجلس الأمن الذى جمع الحضور وقال: «تأكد من قيام وزارة الخارجية بالاتصال بالدول العربية لضمان قيامها بإدانة غزو العراق للكويت» فقال سكوكروفت بأنه سيقوم بذلك على الفور.

***

اتسع الوقت خلال الجلسة التي عقدت في غرفة المؤتمرات واستغرقت الليل كله

لاتخاذ قرار بشأن خطوة أخرى. اذ كان وقت الدهشة ـ لانه لم يكن أحد يعتقد بأن صدام حسين سوف ينفذ تهديداته ـ قد مضى، وأخذ الحاضرون في الغرفة والمتصلون بها بالفيديو يضعون أسس الرد.

ولم يكن الخيار العسكري قد طرح للمناقشة. لكن الخيارات الدبلوماسية كانت أوضح. فجرى الاتصال بالأمير وزملائه الذين لجأوا إلى السعودية بمجرد وصولهم إلى جدة. وعمل المسؤولون الأميركيون معهم على دعوة مجلس الأمن الدولي لجلسة طارئة.

وشهد مقر الأمم المتحدة بمنهاتن نشاطا غير عادي لم يعهد في مثل تلك الساعة المبكرة. فأخذت السيارات تفد تباعاً وهي تحمل السفراء والوفود. وفي الساعة الرابعة صباحاً اتخذ أول قرار بشأن الأزمة العراقية وهو القرار رقم ٦٦٠ الذي دعا العراق إلى الانسحاب من الكويت بلا شروط، وإلى اعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الغزو. ولم يمتنع عن التصويت سوى اليمن، في حين أن الصين وحتى كوبا صوتتا إلى جانب الاتحاد السوفييتي وفرنسا وبريطانيا. ورد سفير العراق إلى الأمم المتحدة بأن حكومته استجابت لنداء من «الثوار الكويتيين الشبان» من أجل المساعدة.

ودعا القرار العراق والكويت إلى «البدء في الحال بإجراء مفاوضات مكثفة لحل خلافاتهما». ورحب بأية جهود أخرى تبذل في هذا السبيل وخصوصا من قبل جامعة الدول العربية.

***

في واشنطن لم يكن أمام سكوكروفت وَ هاس وغيرهم ممن شارك في الاجتماع الماراثوني الذي استمر من التاسعة مساء إلى الخامسة صباحاً سوى ثلاث ساعات للعودة إلى بيوتهم والاستحمام وتغيير ملابسهم. فقد كان عليهم حضور اجتماع مجلس الأمن القومي مع بوش في الثامنة من صباح اليوم التالي.

***

وفي اركوتسك وعند تمام العاشرة والنصف صباحاً (أي التاسعة والنصف من مساء اليوم الفائت في واشنطن) توجه وزيرا الخارجية الأميركي والسوفييتي بعد مؤتمرهما الصحفي إلى المطار، ليعود السوفييتي إلى موسكو وليتابع نظيره الأميركي رحلته إلى اولان باتور عاصمة منغوليا. أما دنيس روس زميل بيكر فقد رافق شيفارنادزة إلى موسكو.

وتلقى بيكر خلال رحلته اتصالا من واشنطن عبر الخط الخاص وجرى إبلاغه أخبار الغزو بالتفصيل. وفيما كانت طائرته لا تزال في طريقها إلى منغوليا، وهي دولة حدودية يبلغ عدد سكانها مليونين وتفصل بين الاتحاد السوفييت والصين بعيداً عن الجنون والذعر اللذين استوليا على باقي العالم ـ ذهب إلى مؤخرة الطائرة حيث كان يجلس الصحفيون وأخبرهم عما حدث.

وبعد ذلك بساعة هبطت طائرة شيفارنادزة في موسكو. وكان لا يزال يجهل ما حدث. فلم يكد يخرج من الطائرة حتى اندفع نحوه صحفي يعمل بوكالة تاس وسأله:

«ما تعليقك على الغزو؟». وفوجىء وقال: «أي غزو؟». فقال الصحفي «غزو العراق للكويت».

وارتبك شيفارنادزه ورفض الإجابة على الأسئلة بقوله: «لم تصلني الأخبار، وأنا ذاهب للتشاورمع المستشارين» ثم التفت فجأة إلى زميله سيرجي تراسنكو وقال بغضب: «جِدْ في الحال ما يحدث».

أما روس فتوجه مباشرة إلى سفارة الولايات المتحدة واتصل ببيكر واقترح إصدار بيان مشترك سوفييتي ـ أميركي، لا يدين الغزو فقط بل يدعو إلى عمل مشترك ضد العراق. ووافق بيكر، واتصل بجورج بوش للحصول على موافقته. فرأى الرئيس أن الفكرة ثاقبة وأعطاه الضوء الأخضر. ثم اتصل بيكر بروس في موسكو وقال: «حضّر نص البيان ولكن احرص على أن يكون جيداً».

واتفق على أن يختصر بيكر زيارته لمنغوليا وأن يتوجه إلى موسكو لاعلان البيان المشترك مع شيفارنادزه. وعَهد إلى روس بالتفاوض مع السوفييت حول ذلك. فتحدث روس مع تراسنكو وقال له بأن مثل ذلك البيان سوف يقنع الدول العربية الأخرى بعدم الوقوف إلى جانب العراق، ويحبط آمال صدام في استغلال التنافس بين الدول العظمى كما كان الحال في الماضي. وتردد تراسنكو في البداية ولكنه بعد أن استشار شيفارنادزة أبلغه موافقته. فقال روس:

«هذا شيء جيد، إن البيان ينبغي أن يكون قوياً. ولا تنس أن وزير الخارجية بيكر سيأتي الى موسكو خصيصاً لقراءته».

كان أبو إياد، الرجل الثاني في منظمة التحرير والمسؤول خصوصاً عن شؤون الأمن والمخابرات، نائماً في الفيلا التي يسكن بها في ضواحي تونس. وكانت زوجته التي تعيش عادة في الكويت، قد وصلت قبل وقت قصير. وأيقظتهما مكالمة تلفونية من أفراد أسرتهما في العاصمة الكويتية. وعلما منهم بأن القتال كان يجري غير بعيد من بيتهم. فارتدى أبو إياد ملابسه وذهب في الحال إلى ياسر عرفات الذى اعتاد أن يشتغل حتى وقت متأخر من الليل في بيته بمنطقة صامد. وكان عرفات على علم بما يجري. إذ كان أفراد أسرته الذين يعيشون في الكويت قد زودوه بأخبار الغزو. فقررا زيارة عدد من العواصم العربية في اليوم التالي.

الفصل السادس
«هل نغادر الكويت؟»

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل حين تلقى دوغلاس هيرد وزير الخارجية مكالمة تلفونية من السفارة البريطانية بالكويت تبلغه بأمر الغزو. فدون التفصيلات ثم اجتاز دهاليز الوزارة الخالية ليتصل عبر خط خاص بدائرة في رقم ١٠ شارع داوننغ تعمل أربعاً وعشرين ساعة في جمع المعلومات. وجرى الاتصال في الحال بمارغريت تاتشر رئيسة الوزراء التي كانت قد وصلت لتوها إلى آسبن بكولورادو حيث كانت ستشارك في اليوم التالي مع جورج بوش في اعمال مؤتمر. وكانت الساعة عندئذ تشير إلى السابعة مساء في آسبن، وبسبب فارق الوقت، في الأول من أغسطس.

***

في هذا الوقت كان رئيس الوزراء الياباني كايفو يقضي إجازةمدّتها خمسة أيام في غوما، وهي منطقة جبلية تبعد مئة كيلومتر إلى الشمال من طوكيو. وقام مسؤولون بوزارة الخارجية بإبلاغه بأخبار الغزو بعد وقوعه بساعة واحدة. فكان رد فعله الأول قوله: «يا له من أمر مؤسف».

***

وذهلت السفيرة إبريل غلاسبي التي كانت قد خرجت من مقابلتها لصدام قبل بضعة أيام وهي مطمئنة كل الاطمئنان عندما علمت في الثاني من أغسطس بوقوع الغزو من التلفزيون وهي بغرفتها بأحد فنادق لندن. وكانت عندئذ تقيم فيه مع أمها. أما كلبها الذي تركته وراءها ببغداد فكان سيتم ترحيله على أولى الطائرات التي كانت ستُجلي النساء.

***

وكان مستشار المانيا هيلموت كول يقيم في فيلا على شاطىء بحيرة في سانت جلجن بالنمسا اعتاد أن يستأجرها كل سنة لقضاء عطلة الصيف. وفي التاسعة صباحاً اتصل به مساعده الشخصي إدوارد أكرمان من بون ليطلعه على الأخبار. ولم تصله أية

رسالة من أي زعيم سياسي غربي إلا بعد ذلك بثلاثة أيام عندما اتصل به بوش لإبلاغه أنه قرر إرسال قوات عسكرية إلى السعودية.

***

وأصيب أهل الكويت بالذعر. وحاول كثرة من السكان الهرب إلى السعودية، لكن الطرق كانت قد قطعت وصارت تخضع لسيطرة القوات العراقية. وأوقفت الأسر الهاربة عند الحواجز وأخرجت بالقوة من السيارات وانتزعت الهواتف اللاسلكية التي كانت شائعة بالكويت من السيارات وذلك للحيلولة دون استخدامها في نقل المعلومات عن مواقع القوات العراقية.

كانت المروحيات تحلق فوق المدينة، بينما كانت ٣٠٠ دبابة تقوم فيها بأعمال الدورية. وكانت النار مشتعلة ببعض عربات النقل، وطلقات المورتر والأسلحة الأتوماتيكية تسمع في السوق المالي وقرب قصر الأمير الذي كان محاطا بخمسين دبابة ثقيلة. وفي هذا القتال الذي كان الأعنف خلال الاجتياح كله قُتل الشيخ فهد أصغر إخوة الأمير ورئيس اللجنة الأولمبية الكويتية. وكان قد بقي في الكويت. وقامت زوارق السواحل الكويتية المزودة بالقذائف بتدمير بضع آليات عراقية. إلا أنه لم تكن هناك سوى بضعة جيوب مقاومة للجيش العراقي. ولم يكد ينتصف بعد الظهر حتى كان إطلاق النار قد توقف. وقتل أكثر من مئتي كويتي.

لقد حقق صدام حلمه خلال بضع ساعات. فصار يسيطر على ٢٠٪ من احتياطي العالم من النفط وعلى مئة كيلو متر من السواحل المطلة على الخليج.

***

واكتشف العالم العربي الذي كان يسيطر عليه الذهول مدى تصميم صدام حسين. فلم تعد أية دولة مجاورة للعراق تشعر بالأمان. ولم يقتصر هذا الشعور على الاردن وحده بل شمل العدوى سوريا والسعودية الثرية الضعيفة التي كانت عندئذ في الواجهة. وكان لدى صدام الوسائل العسكرية التي تمكنه من اجتياح المزيد من الأراضي. وصدرت رسالة عن إذاعة سرية بضواحي الكويت تقول: «أيها العرب. لقد اعتدي على دم الكويت وشرفها. فهبوا لنجدتها.» وأضاف المتحدث وهو يبكي: «إن الأطفال والنساء والشيوخ يستغيثون بكم».

لكن العالم العربي الذي خيم عليه الصمت لم يحرك ساكناً. ولم يكن السبب الرئيسي في ذلك الخوف بل الاضطراب والفوضى اللذين سادا على أثر الاجتياح.

على أن الملك حسين بدأ منذ الثاني من أغسطس يبذل جهودا مكثفة للحيلولة دون التصعيد.

***

بعد أن أجرى الملك حسين مكالمته الأولى مع صدام حسين بسبع ساعات تقريباً وفي الواحدة بعد الظهر اتصل صدام بالملك. ولم يكن هناك أثر للتوتر أو التصلب في حديثه. قال: «كان علينا أن ندخل الكويت وهي الآن تحت سيطرتي التامة. لقد حملونا على القيام بذلك. على أنني ملتزم بالانسحاب من الكويت. وسيبدأ الانسحاب في غضون أيام قليلة لكنه سيستغرق عدة أسابيع. أرجوك أن تفعل ما بوسعك لإقناع العرب بأن الإدانات والتهديدات لا تؤثر علينا. فقد ينتهي الأمر بأن تصبح الكويت جزءا من العراق. ومن المهم أن لا يوفروا غطاء للتدخل الخارجي». فقال الملك بأن اجتماعهما أمر ضروري. واتفقا على أن يطير الملك إلى بغداد ذلك المساء أو في الصباح الباكر.

وعلى أثر الحديث تأكد اعتقاد الملك بأنه من الممكن التوصل إلى تسوية سريعة في إطار عربي. فقام على الفور بالاتصال بالتلفون بالرئيس المصري الذي كان سيغادر القاهرة إلى الاسكندرية وأطلعه على حديثه مع صدام وعلى اعتزامه الدعوة إلى قمة مصغرة في القاهرة أو الرياض صباح الرابع من آب. وأصر الملك أنه حتى ذلك الحين ينبغي تجنب التصريحات المعادية للعراق كي لا تعرقل القمة. فقال حسني مبارك: «سوف أؤيد اقتراحك». واتفقا على أن يعرج الملك على الاسكندرية وهو في طريقه إلى العراق وذلك لمناقشة الخطط بمزيد من التفصيل. وقبل أن يختم الملك مكالمته اقترح على مبارك أن يتحدث مع صدام. فقال: « صدام! لا. لقد خيب أملي فيه».

***

في التاسعة صباحا بدأ وزراء الدول العربية بالتجمع في القاهرة في قاعة بفندق سميراميس. وكان الشاذلي قد أصبح مقتنعا بضرورة الاجتماع بوزير خارجية مصر الذي

انتدب له رجلين لمساعدته على الاتصال بالوزراء. واتصل القليبي أيضاً بوكيل الخارجية العراقي الذي كان يمثل بلاده في المؤتمر الإسلامي. وأخبره عن اجتماع مجلس جامعة الدول العربية المزمع عقده في التاسعة. فاحتج الوكيل العراقي قائلا: «لماذا الاجتماع بمثل هذه السرعة؟ لماذا لا ننتظر إلى أن تقرر حكومتي ما ستفعله؟» إلا أن القليبي رفض قائلا بأن الاجتماع ضروري جداً. وأبطأ الوزراء في الوصول ولم تبدأ الجلسة فعلياً حتى الساعة ١٥ : ١٢ بعد الظهر.

وعندما افتتحت الجلسة في جو من الاضطراب والفوضى كانت قد مضت على بدء الغزو عشر ساعات تمت خلالها سيطرة الجيش العراقي على الكويت.

ورئس فاروق القدومي مدير الدائرة السياسية بمنظمة التحرير الجلسة وذلك بموجب النظام الدوري الذي يقضي بأن يترأس كل جلسة وزير مختلف.

وطالب الوفد الكويتي بتطبيق معاهدة الدفاع العربي على الفور للدفاع عن الدولة المشاركة التي تعرضت للهجوم. لكن الوزراء الحاضرين باستثناء وزير الإمارات آثروا الانتظار والترقب.

وألقى وزير الخارجية السورية فاروق الشرع خطابا مثيرا للدهشة صرح فيه بأن علاقات بلاده مع الكويت سيئة (وذلك أيضاً بسبب عدم دفع المال) ولكن علاقاتها مع العراق آخذة في التحسن. ومع هذا ـ كما قال ـ «فإن سوريا تلتزم بميثاق جامعة الدول العربية الذي يعتبر غزو دولة عربية لأخرى عملاً غير قانوني».

وألقى الأمير فيصل ـ وزير الخارجية السعودية ـ أيضاً خطاباً مثيراً للدهشة. إذ تحدث عن العلاقات الخاصة بين بلاده وبين العراق، وأضاف أن هناك صداقة بين الملك فهد وصدام حسين. ثم قال: «إن السعودية لا توافق على غزو الكويت، لكننا مقتنعون بأن صدام حسين سوف ينسحب».

كان الشاذلي القليبي قد اقنع وكيل الخارجية العراقي بحضور الاجتماع، لكن هذا رفض الإجابة على الأسئلة التي وجهها وزراء الخارجية إليه بقوله: «لست مخولا بالتحدث. عليكم أن تنتظروا وصول وفدنا». وأعلن أن الوفد سيكون برئاسة سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء الذي سيصل في أوائل المساء، وأضاف بأن الوفد سيكون

كبيرا. ورفعت الجلسة في الساعة الثانية بعد الظهر بعد أن اتفق الحاضرون على العودة الى الاجتماع في السادسة مساء. وكان الجميع يتطلعون بلهفة الى الرسالة التي كانوا جميعا متأكدين من أن حمادي سيحملها.

***

وفي الثامنة من صباح الثاني من أغسطس، وبينما كان وزراء الخارجية العرب يغادرون قاعة الاجتماع بالقاهرة دخل جورج بوش غرفة المؤتمرات المجاورة للمكتب البيضاوي بالبيت الأبيض. وكان جميع الذين دعوا للاجتماع قد جلسوا على مقاعدهم حول الطاولة الضخمة التي كانت تحتل الحيز الأكبر من الغرفة.

وضم الاجتماع: نائب الرئيس دان كويل؛ سكرتير البيت الأبيض جون سنونو؛ وزير الخزانة نيكولاس برادي؛ وزير العدل ريتشارد ثورنبورغ؛ وزير الدفاع ريتشارد تشيني؛ مدير المخابرات المركزية وليم وبستر؛ رئيس الاركان كولن باول؛ الجنرال شوارزكوف رئيس القيادة العامة الأميركية (سنتكوم) الذي سيتولى قيادة القوات الأميركية المرسلة الى الخليج فيما بعد؛ والجنرال سكوكروفت ومساعده هاسّ وروبرت كيميت. وحضر الاجتماع كبار رجال إدارة بوش لمواجهة أخطر أزمة منذ توليهم مناصبهم. وسمح للصحفيين بدخول الغرفة لمدة بضع دقائق ليستمعوا إلى أول تصريح لبوش عن الأزمة. قال بوش:

«دعوني أقول لكم إن الولايات المتحدة تدين بشدة الغزو وتدعو إلى الانسحاب الفوري فلا مكان لهذا النوع من العدوان الوحشي في عالم اليوم». ثم أغلقت الأبواب ليبدأ الاجتماع السري الذي استغرق اكثر من ساعة.

وتركزت المناقشة في موضوع العقوبات الدبلوماسية والاقتصادية التي ستتخذ ضد العراق. وعند بداية الاجتماع التفت رئيس موظفي البيت الأبيض جون سنونو ـ وهو رجل ممتلىء الجسم ومعروف بحبه لإصدار الأوامر ـ إلى ريتشارد تشيني وزير الدفاع واقترح «إرسال طائرات بي ٢ (B2) (التي تستطيع الافلات من شاشات الرادار) لقصف العراق». لكن الحاضرين لم يكونوا يعرفون مدى جديته.

وبدا على تشيني الحرج. وقال بعد لحظة صمت: «ليس لدينا سوى طائرة واحدة

من ذلك الطراز. أما الطائرات الباقية قلم تختبر إلى حد يسمح باعتبارها صالحة للقتال».

والواقع أن إدارة بوش وجدت نفسها بمواجهة مشكلة من النوع الاستراتيجي: فمنذ عشر سنوات لم يغب التدخل العسكري في الخليج عن الاحتمالات الواردة في ذهن الادارة الأميركية. وعلى أثر سقوط شاه ايران عام ١٩٧٩ أنشأ جيمي كارتر قوة تدخل سريع لحماية حقول النفط.

ووضعت عندئذ خطة سرية تحمل الرقم ٩٠ ـ ١٠٠٢. ولكن فات واضعيها أن يأخذوا أمرين بعين الاعتبار وهما الاجتياح العراقي وضياع الكويت. إذ لم تستهدف الخطة سوى مواجهة الاتحاد السوفييتي. وعهد بتنفيذها للسنتكوم ـ أي القيادة العسكرية التي أنشئت عام ١٩٨٣. لكن بالرغم من صرف ٢٠٠٠ مليار دولار خلال السنوات الثمانية الماضية على تحديث القوات المسلحة وتقويتها فان السلطات العسكرية كانت في وضع صعب. اذ كانت القوات الأميركية قد دربت على القتال في ميادين عمليات مثل اوروبا أو كوريا ولكن ليس للقتال في الصحراء. يضاف إلى ذلك أن البنتاغون أخذ على حين غرة ولم يكن مستعداً. فقد كان قد أمضى عدة أشهر في الاستعداد لـ «عملية القضية العادلة» التي أدت إلى ارسال قوات إلى بنما للقبض على الجنرال نورييجا. وعليه فقد كان عندئذ كما قال أحد الحاضرين فيما بعد «قد عاد إلى نقطة الابتداء».

واصبح ذلك واضحا عندما سأل جورج بوش عن القوات الجاهزة. إذ كان الجواب: «هناك ٢٥٠٠٠ من الفرقة ٨٢ المحمولة جوا والمتمركزة في «فورت براغ» بكارولينا الشمالية يمكن إرسالهم في الحال. أما إرسال أعداد أكبر فسوف يستغرق أربعة أسابيع على الأقل. وحتى عندئذ لن يكون ميزان القوى في صالح الأميركيين بالنظر إلى أنه كان لدى صدام حسين مليون جندي و ٥٥٠٠ دبابة وكما قال أحد القادة العسكريين ممن حضروا الاجتماع فإنه لم يكن هناك «خيار عسكري مُرض. فليس لدينا جنود في الميدان» والواقع أنه بالرغم من الجهود المتواصلة التي بذلتها واشنطن، فإن السعودية كانت دائما ترفض فكرة وجود قواعد عسكرية أميركية على أرضها.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً عندما أمر بوش بأن تُعرض عليه جميع

الخيارات العسكرية الممكنة في مقره الصيفي بكامب ديفد قبل يوم السبت الموافق في الرابع من أغسطس. ونوقش كذلك احتمال إرسال روبرت تشيني وزير الدفاع إلى السعودية لكن لم يجر التوصل إلى قرار محدد بهذا الشأن.

في التاسعة والربع صباحا خرج بوش من الاجتماع وذهب إلى مكتبه البيضاوي لدرس بضعة ملفات. ثم توجه بسرعة إلى حديقة البيت الأبيض الجنوبية. وكانت في انتظاره هناك مروحية نقلته إلى قاعدة أندروز حيث كانت طائرة بوينغ الرئاسية التابعة للقوات الجوية على أهبة الانطلاق. فاستقلها الرئيس إلى آسبن لإلقاء خطاب حول شؤون الدفاع. وكان الرئيس قد فكر بإلغائه بالرغم من أن موعده حُدّد قبل أشهر وذلك بسبب الأزمة المتفاقمة. لكنه قرر في آخر لحظة التقيد بالموعد لأنه كان يريد الاجتماع بمارغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا. وقد قدر لها أن تؤثر كثيرا على بوش. وخلال الرحلة قام بوش بمساعدة برنت سكوكروفت بتعديل نص الخطاب بحيث ربط بين أزمة الخليج وحاجة الولايات المتحدة إلى الحفاظ على وسائل دفاع ملائمة.

***

قبل ذلك بنصف ساعة وصل الملك حسين بطائرته الخاصة إلى الاسكندرية. وكانت الساعة بمصر تشير إلى الرابعة بعد الظهر. وبدأ محادثاته مع الرئيس مبارك بالتذكير باعتقاده الثابت بأنه يمكن حل المشكلة وبأنه يمكن إقناع صدام حسين بالخروج من الكويت شرط عدم إدانة الجامعة العربية له. وأوضح أنه ينبغي عدم إصدار تصريحات تهاجم العراق قبل القمة المقرر انعقادها في الرابع من اغسطس. فوافق مبارك على ذلك.

وفي أثناء محادثاتهما رأيا أنه من المهم الاتصال بالرئيس بوش. فاتصلا به عبر البيت الأبيض وهو على علو ٣٧,٠٠٠ قدم وبينما كان في الطريق بين واشنطن وآسبن بكولورادو. وكان صوته مسموعا. فأطلعه الملك على حديثه مع صدام حسين وعلى اعتزامه التوجه إلى بغداد. وقال بأن التوصل فورا إلى حل عربي أمر أساسي. وحث الرئيس بوش على عدم الضغط على الدول العربية لكي تصدر بيانات تنتقد فيها الغزو العراقي على الأقل خلال الساعات الثماني والأربعين التالية لإفساح المجال له لوضع مشروع حل. وأضاف الملك «يمكننا تسوية الأزمة يا جورج. باستطاعتنا معالجتها.

وما نحتاج إليه هو بعض الوقت». فقال بوش: «الوقت امامك. والامر متروك لك».

كان أمام الغرفة التي يتحدث فيها الملك ومبارك شرفة تطل على البحر، وأمامهما الاسكندرية الوادعة التي توحي بالسلام والتفاؤل. وبدا أن توقف الملك فيها أقنعه تماما بأن النزاع الكويتي العراقي كان نتيجة خطأ في الحسابات ولن يلبث أن يطويه النسيان. وبالرغم من شكوك مبارك فإنه تظاهر بالاقتناع أو حاول الاقتناع بالشيء ذاته.

***

في الخامسة مساء افتتح الكنيست الاسرائيلي بالقدس جلسة طارئة خصصها للعراق. وكان موشى أرينز وزير الدفاع الإسرائيلي قد استقبل، قبل ذلك بقليل السفير الأميركي وعرض تزويد الولايات المتحدة بكل المساعدات التي تطلبها من المخابرات الاسرائيلية.

والواقع أن الغزو العراقي كشف عددا من مواطن الضعف لدى إسرائيل. فلم تكن هناك «تغطية كافية» للعراق من قبل الاستخبارات الاسرائيلية التي كانت تواجه مشكلة تجنيد العملاء وعدم وجود أقمارصناعية للتجسس لديها في تلك المنطقة.

فمنذ عام ١٩٨١ والأميركيون يرفضون تزويد إسرائيل بأية صور فوتوغرافية أو معلومات يحصلون عليها بواسطة أقمار التجسس الصناعية خارج منطقة تمتد ٣٠ ميلاً من حدود إسرائيل. إذ اعتبرت واشنطن هذه المسافة «حزاما أمنيا كافيا لتجنب جميع الأخطار المباشرة». وكانت واشنطن قد اتخذت ذلك الاجراء في أعقاب الغارة الإسرائيلية على المفاعل الذري العراقي أوزيراك.

وكانت الوزارة الإسرائيلية قد عقدت في الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم اجتماعا خيم عليه جو من التوتر. إذ انتقد بعض الوزراء وبينهم شارون نقاط الضعف التي أشرنا إليها بشدة؛ واحتدم النقاش حول بيان قدمه البريغادير ـ جنرال داني روتشيلد نائب رئيس المخابرات العسكرية (لأن الرئيس كان يقضي شهرالعسل). إذ شعر غالبية المسؤولين الإسرائيليين بأنها فوجئت تماما بتوقيت الغزو ونطاقه.

***

بينما كانت حاملة الطائرات اندبندانس مع السفن المواكبة لها في طريقها إلى الخليج لتنضم الى طراد ومدمرة وخمس بوارج أعلنت شركة لويدز البريطانية للتأمين بأنها أدخلت تعرفة فورية للتأمين على جميع السفن في تلك المنطقة وارتفع سعر برميل النفط من بحر الشمال إلى ٢٤ دولاراً.

***

وقبل أن يغادر الملك حسين عمان حاول عبثا الاتصال بالملك فهد. فأمر مروان القاسم وزير الخارجية بترتيب لقاء له مع الملك فهد والسفر الى جدة. وبعد أن قام الوزير بمحاولات عدة لذلك الغرض وانتظر طويلا تلقى رسالة من السعودية تقول: «لا تحضر».

وكان حسني مبارك أحسن حظا. ففي السادسة مساء وقبل ان يغادر الملك حسين عمان الى بغداد اتصل به وطلب منه ان يتصل تلفونيا بعدد من الزعماء العرب وبينهم الملك فهد وأن يطلب منهم ان يتريثوا وأن لا يناصروا طرفا على آخر خلال الساعات الثماني والاربعين التالية. واتصل مبارك بالفعل بالملك فهد الذي وافق على ذلك.

وفي تلك الاثناء كان وزراء الخارجية العرب مجتمعين في فندق سميراميس بانتظار وصول الوفد العراقي. لكنه تأخر كثيرا. واستولى الغضب الشديد على مندوبي دول الخليج لأن باقي المندوبين وبينهم مندوب سوريا عدوة العراق رفضوا إدانة الغزو. وانتظر الحاضرون وصول الوفد العراقي ثلاث ساعات ونصف في جو من التوتر المتزايد. وأخيرا وفي التاسعة والنصف مساء دخل سعدون حمادي القاعة واتجه الى المنصة.

وعندما تأهب لإلقاء بيانه توقع الحضور ان يشتمل على خطة سلام. لكنهم لم يلبثوا ان شعروا بخيبة امل مريرة اذ استهل بيانه بقوله: «لا مفاوضة حول الوضع في الكويت وأخذ على مدى نصف ساعة يكرر الحجج العراقية المألوفة. وقال ان بعض الدول العربية والولايات المتحدة دبرت مؤامرة اقتصادية على العراق بإبقاء اسعار النفط منخفضة وذلك لمنع العراق من استعادة عافيته الاقتصادية التي انزلت بها الحرب العراقية الايرانية افدح الاضرار. وخلا بيانه من الاشارة الى اي تنازل. وشدد على ان العراق هو الذي منع ايران من اجتياح المنطقة، وانه طوال سني الحرب « شكل العراق

ترسا لحماية دول الخليج. ولكن بالرغم من تلك الحماية فان هذه الدول رفضت مَنْحنا المساعدة المالية التي نحن في اشد الحاجة اليها».

وعندما عاد حمادي الى مقعده خيم الذهول على الحضور. اذ بدا ان بغداد تغلق الباب امام كل التسويات. وفجأة ازدادت ازمة الكويت تعقيدا. وحل التشاؤم الشديد محل التفاؤل السابق.

وعندما رفعت الجلسة الى التاسعة من صباح اليوم التالي لم يعد لدى الحاضرين اي شك حول مصير الجلسات القادمة. وعليه فان الامل الوحيد في حل عربي صار معلقا على اجتماع صدام حسين والملك الاردني.

***

بقي الملك حسين في الاسكندرية حتى وقت متأ ـ من المساء على امل ان يستطيع التوقف في السعودية للاجتماع بالملك فهد قبل ان يتوجه بطائرته الى بغداد. الا انه عندما علم ان الملك فهد لن يجتمع به عاد الى عمان. وبعد ان نام بضع ساعات توجه الى بغداد في وقت مبكر من صباح الثالث من اغسطس. لكنه قبل ان يبدأ رحلته اتصل بالتلفون مرة اخرى بالرئيس مبارك وسأله: «هل تسير الامور على ما يرام؟» فأجابه مبارك بأنه يرجح ان لا تحضر الكويت القمة المصغرة، ولهذا فانها سوف تقتصر على مصر والسعودية والاردن واليمن والعراق.

***

قبيل هبوط طائرة بوش في آسبن اتصل ببيكر الذي كان يستعد لمغادرة منغوليا وقال له: «جيم، ينبغي ان يظهر البيان المشترك مستوى عاليا جدا من التعاون بين الاتحاد السوفييتي وبيننا، والا فلن تكون هناك فائدة في ذهابك الى موسكو.

وفور وصول بوش الى آسبن اجتمع ـ وذلك للمرة الاولى ـ مع مارغريت تاتشر وصافحته وهي تحمل كعادتها حقيبتها تحت ابطها. قالت: «عليك ان تعرف يا جورج انه لن يتوقف». وكان هذا يثير مخاوف متزايدة لدى بوش. وبينما كان المؤتمر حول الدفاع منعقدا على بعد ياردات اتصل بوش تلفونيا بالرئيس اليمني علي عبد الله صالح الذي كان واحدا من حلفاء صدام القلائل. وكانت جبال كولورادو القريبة الشامخة

تسبغ على المناسبة جواً شبيهاً بجو الدروس الصيفية في احدى الجامعات .

وبعد ان القى بوش خطابه اتصل بمقر الملك فهد بالسعودية وكرر له التأكيد على عزم الولايات المتحدة الدفاع عن المملكة . فشكره الملك كثيرا . لكن قلق بوش أحرجه بدلا من ادخال السرور على نفسه . وكان الملك خجولا ضعيف الصحة . وبدا عندئذ في وضع لا يحسد عليه . اذ حدث ما كان يخشاه فأصبحت بلاده في خط المواجهة . وكانت مملكته منذ انشائها قبل ثلاثة وستين عاما واحة استقرار لكن غزو الكويت كان ـ كما قال ـ «مأساة» . اذ اصبح اميرها وافراد اسرته ضيوفا عليه . وبذلك يكون التاريخ قد اكمل دورته بطريقة غريبة . ففي عام ١٩٠٢ ـ اي قبل ذلك بثمان وثمانين سنة ـ وجد مؤسس المملكة المشرد ابن سعود ملجأ لدى آل الصباح في الكويت .

وقبل عودة بوش إلى نيويورك عقد اجتماعا مغلقاً مع مارغريت تاتشر في شاليه فخمة بمساكن كاتو يملكها سفير الولايات المتحدة في بريطانيا . فنصحت تاتشر الرئيس الأميركي بإظهار أكثر حزم ممكن وتجنيد العالم كله برعاية الأمم المتحدة . ولم تطرح الخيارات العسكرية للنقاش لكن ـ كما قال شاهد عيان ـ «قالت في صدام حسين ما قاله أنتوني ايدن خلال أزمة السويس في جمال عبد الناصر فقارنه بهتلر» .

وبحلول الساعة الرابعة بعد الظهر وعندما أقلعت الطائرة الرئاسية من آسبن إلى واشنطن كانت وزارة الدفاع الأميركية قد اتخذت عددا معينا من الإجراءات . فاستدعي على عجل طواقم طائرات الشحن سي ١٤١ العملاقة . وألغيت جميع الإجازات وصدر أمر لجميع الطيارين بالعودة إلى قواعدهم خلال ثلاث ساعات . واعترت هؤلاء الدهشة وهم يودعون أسرهم وأصدقاءهم بطريقة مفاجئة . فقد كانوا لا يعرفون سبب استدعائهم . ولم يكد يحل المساء حتى كانوا في الجو فوق الأطلنطي . ونقلت طواقم عشرين طائرة من طراز سي ١٤١ إلى القاعدة الأميركية «راين مين» بألمانيا الغربية . ونقل ٢٦ طاقما إلى طوريجون في إسبانيا . وشكل هؤلاء أول حلقات الجسر الجوي الضخم الذي سيقام مع السعودية خلال الأيام القليلة التالية .

وقُطع حفل كبير راقص في أحد المعسكرات فجأة عندما أعلن أحد الضباط بأنه على جميع الحاضرين أن يستأنفوا عملهم في الحال . ولم تقدم لهم أية ايضاحات . ولم يعد أحد منهم بعد ذلك . وكان هؤلاء ينتمون إلى وحدات العمليات الخاصة ويقومون

بالمهمات الخطرة مثل غارات الكوماندوز والرد على أخذ رهائن. وكانوا سيرسلون في تلك الليلة ذاتها إلى الشرق الأوسط.

***

وفي الثامنة من صباح الثالث من أغسطس بالقاهرة جرى ابلاغ المشاركين في اجتماع الجامعة العربية المقرر في التاسعة صباحا أنه أجل الى السادسة مساء. اذ لم يكن بالإمكان قول شيء أو اتخاذ قرار قبل معرفة ما يتمخض عنه اجتماع الملك حسين بالزعيم العراقي. وكانت العيون في العالم العربي كله شاخصة الى بغداد.

وأذيعت من الكويت المحتلة استغاثة يائسة جاء فيها: « ماذا حدث للاتفاقات المعقودة بين الدول العربية، والاتفاقات بين دول الخليج، والاتفاقات بين الدول الاسلامية. يا اخوة اللغة والدم والعروبة والاسلام ان الكويت تناشدكم المساعدة».

وخرج الكويتيون الذين ابقتهم الحرب في القاهرة الى الشوارع والدموع في اعينهم. وقال ضابط مصري لاحدهم: « ان هذا الوضع عار على العالم العربي. اننا نجلس هنا ونتفرج وكأنه لم يحدث شيء».

ومن يقرأ الصحف من العرب لم يصدق ما يرى. اذ لم تقم صحيفة واحدة بادانة الغزو العراقي للكويت. فقد كان محررو الصحف قد تلقوا أوامر مشددة بالوقوف على الحياد. وكانت الصحف الوحيدة التي أيدت صدام حسين علنا هي صحف الاردن.

***

في التاسعة والنصف صباحا وصل الملك حسين الى بغداد واستقبله صدام على الفور في القصر الرئاسي. واستغرق الاجتماع عدة ساعات لكنه انتهى بالتوصل الى اتفاق. وطرح الملك خلالها اسئلة محددة على الزعيم العراقي «هل تعتزم حضور القمة المصغرة غدا؟». فهز صدام رأسه موافقا وقال «سأكون هناك». وسأله: «هل ستخرج من الكويت؟» فأجاب «نعم اذا جرى حل خلافاتي مع تلك الامارة». وأضاف في أواخر المقابلة: «لا اريد ان يحضر القمة أحد من آل الصباح. أفضل التفاوض على اتفاق مع الملك فهد. فقد كانت لي دائما علاقات أفضل معه».

وترك صدام لدى زائره انطباعا بأنه زعيم طيب مستعد لتقديم تنازلات كبرى.

وكانت لحظة غضبه الوحيدة عندما ذكر الملك تهديدات الجامعة العربية بالتنديد بالغزو. قال: « ينبغي ان نزيل الغشاوة عن أعيننا. اذا سارت الامور في ذلك الاتجاه فسوف أقول بأن الكويت جزء من العراق وسأضمها الى بلادي» . ثم مال على الملك وخفض صوته كما لو كان يريد الادلاء بسر وقال: «على أي حال فانني وقعت معاهدة عدم اعتداء مع السعودية» .

وقبل ان يفترق الزعيمان تعانقا بحرارة وخرج الملك متفائلا ومقتنعا بأنه استطاع معالجة الازمة. وبعد بضع ساعات أصدر صدام بيانا أعلن فيه أنه سيبدأ بسحب قواته من الكويت يوم الاحد الموافق في الخامس من أغسطس ولكن لا مجال لعودة الاسرة المالكة.

***

وفيما كان الملك حسين يهم بالعودة الى عمان، كان ياسر عرفات قد وصل الى طرابلس الغرب قادما من تونس. وكان يعتزم زيارة مصر والعراق والسعودية في مهمة توسط مشابهة. اذ كان عدد الفلسطينيين المقيمين في الكويت كبيرا ويحتلون مناصب مهمة ويتبرعون بجزء كبير من ميزانية منظمة التحرير.

وفي طرابلس الغرب وجد عرفات القذافي في غاية التأثر بسبب الغزو. وقال باصرار: «أبو عمار، لا بد من التوصل الى حل سلمي. ولدي حل يقوم على نقطتين. » ثم سحب ورقة عن الطاولة التي كانت أمامه. واستمع اليه عرفات بتفهم وانتباه. وكانت العلاقات بين القذافي والفلسطينيين منذ سنوات كثيرة معقدة وأحيانا غامضة. وواصل القذافي كلامه فقال: « أولا على العراق ان ينسحب الى المنطقة المتنازع عليها. ويعود بعد ذلك شخص من الاسرة الكويتية الحاكمة غير الامير الى الكويت. ويمكن للشعب بعد ذلك انتخاب حاكمه». على ان النقطة الثانية لم تكن واقعية. لكن عرفات لم يعلق بشيء.

في ذلك اليوم ـ وهو الثالث من أغسطس ـ أخذ زمام السيطرة على الازمة يفلت تدريجا من ايدي العرب.

***

في البيت الابيض افتتح بوش في وقت متأخر من بعد الظهر اجتماعا لمجلس الامن القومي. وحضر الاجتماع ريتشارد تشيني وزير الدفاع، وبرنت سكوكروفت رئيس مجلس الامن القومي ونائبه ريتشارد هاس، ورئيس هيئة الاركان المشتركة كولن باول.

وأكد الجنرال باول للرئيس ان جميع الخيارات العسكرية يجري درسها وانها ستقدم له في اليوم التالي حسب الخطة. وكان باول في الخامسة والثلاثين من عمره. وسبق له ان حارب في فيتنام وشارك في خمس ازمات بما فيها غزو بنما ونزول قوا ت المارينز في ليبيريا لاجلاء الاميركيين منها. واعتاد ان يقول «ليس هناك استخدام شرعي للقوة». وكانت هذه وجهة نظر لم يجد بوش بدا من الموافقة عليها.

وكان لدى اعضاء هذه الهيئة التنفيذية عدد من القطع التي تحل أحجية الخليج بما فيها دعم هيئة الامم المتحدة وحلف شمال الاطلسي. وما كانوا بحاجة اليه هو عدد من الخيارات العسكرية ودعم العالم العربي.

وعندما سأل بوش باول عن المخاطر التي ستتعرض لها طلائع القوات الاميركية التي ترسل الى الميدان أجاب باول بلا تردد: «ان المخاطر كبيرة جدا. فسوف تتعرض قواتنا لهجمات العراقيين. فاذا قررت أخيرا يا سيدي الرئيس ان تزج بالقوات الاميركية في المعركة فانه ينبغي علينا ان نرسل اكبر عدد ممكن منها وبأسرع ما يمكن. اختر الهدف ركز عليه وحاول أن تسحقه». فهز بوش رأسه ولم يعلق بشيء.

وانتهى الاجتماع بعد ساعتين. وفي حين ان المجتمعين تفرقوا لاخذ قسط من الراحة اتصل بوش مرة أخرى بالملك فهد وحاول ان يقنعه بأن المعلومات المتوافرة لديه تدل على ان الزعيم العراقي سوف يزحف على السعودية. فقال الملك فهد معترضاً بأنه لا يزال واثقاً من نجاح الجهود التي يبذلها الملك حسين للتوصل إلى تسوية عن طريق المفاوضات ولاقناع الرئيس العراقي بالانسحاب. وذكّر بوش بأن القمة العربية المصغرة ستعقد في اليوم التالي أي الرابع من اغسطس.

فقال بوش: «لكن إذا ساء الوضع يا صاحب الجلالة فهل تقبل مساعدات أميركية؟». فلم يجب الملك. وطال الصمت إلى حد أن بوش اعتقد بأن الملك لم يسمع السؤال بسبب عطل طرأ بخط التلفون فكرر السؤال. وأخيراً أجاب الملك على نحو يدل على الاستسلام: «أجل سنقبلها».

. . وهناك عامل آخر في أزمة الخليج أثار غضب بوش وهو أنه اتبع أسلوبا مضللا. إذ كان منذ زمن طويل يعوّل على أهمية العلاقات الشخصية بين الزعماء. ووصفه واحد من أقرب زملائه إليه بقوله إنه «يتبع نوعاً من الدبلوماسية الشخصية»، وخصوصاً الإكثار من المكالمات التلفونية غير الرسمية مع رؤساء الدول. ويقول صديق له: «يحب جورج أن يُعرف بـ «جورج العزيز» وأن يحبه الجميع بسبب دفء مشاعره». لكن بالرغم من أنه بالنسبة إلى الكويت تلقى تقارير محددة تنذر بالخطر الشديد من وكالات المخابرات فإنه ظل حتى آخر ساعة يعتقد أن العراق لن تقوم بالغزو لسبب بسيط وهو ان اثنين من الزعماء الذين كان يثق بهم وهما الملك حسين والرئيس المصري حسني مبارك كانا يؤكدان له ذلك باستمرار. وكان يعتمد عليهما كمصدر للمعلومات أكثر مما يعتمد على التقارير السرية وصور الأقمار الصناعية التي كانت تصل إلى مكتبه كل ساعة.

والواقع أن إدارة بوش اقترفت الخطأ في الحكم الذي وقع فيه الإسرائيليون قبل نشوب حرب اكتوبر ١٩٧٣. ففي كلا الحالين كانت جميع المعلومات الضرورية لتوضيح الموقف. لكن الذي شوه المعلومات الافتراض الخاطىء بأن العراق، كمصر عام ١٩٧٣، لن يقوم بالهجوم.

***

كان هناك شخص في ناحية أخرى من واشنطن سيلعب دورا هاما في تصلب الموقف الأميركي وهو جون كيلي. ففي الثامنة من ذلك الصباح كان في مكتبه. وبدا عليه الانزعاج لأنه كان يحاول عبثاً الاتصال بالسفير المصري في واشنطن. فلم يكن أحد يعرف مكانه. وأخيرا وبعد نصف ساعة اكتشف أنه هو والقائم بالأعمال في القاهرة. فبعث على الفور برسالة تلفونية إلى وزير الخارجية المصري. وكانت عنيفة اللهجة إلى حد لا يحتمل معه أن يكون قد أرسلها بدون ضوء أخضر من رؤسائه. قال في رسالته:

«لقد قام الغرب بواجبه؛ لكن الدول العربية لا تفعل شيئا. لقد باعت الولايات المتحدة أسلحة كثيرة للأقطار العربية وخصوصاً لمصر. وإذا لم تتحرك وتتخذ موقفاً

حازما من قضية الكويت عليها أن تتأكد من أنها لن تستطيع الاعتماد من الآن فصاعدا على الولايات المتحدة».

وتنفي وزارة الخارجية الأميركية أن هذه المكالمة جرت في ذلك اليوم. لكن مصدرا مصريا رفيع المستوى وموثوقا به يصر على أنه اطلع على تلك الرسالة. والأمر الغامض هو ما إذا كانت وزارة الخارجية الأميركية قد احيطت علما بتفاصيل الحديث بين الرئيس بوش والملك حسين عندما وافق بوش على عدم الاتصال بالدول العربية خلال الثماني والأربعين ساعة التالية. فإن لم تكن على علم بذلك فإنه من المنطق ان يكون بوش قد أمر برنت سكوكروفت في الساعة الخامسة من صباح الثاني من اغسطس أن يطلب منها أن تضغط على الدول العربية لكي تدين غزو صدام للكويت.

***

واستولت الدهشة على المسؤولين المصريين ولكن الملك حسين هبط بطائرته في عمان وهو لا يعلم شيئا عن ذلك. وكانت الساعة عندئذ في عمان تشير إلى الثانية بعد الظهر.

وعندما نزل الملك من الطائرة أُبلغ أن وزير خارجيته مروان القاسم يريد أن يتحدث معه في أمر ملح. وعندما رفع سماعة التلفون قال للوزير: «لدي أخبار جيدة جدا. لقد أخبرني صدام حسين بأنه سينسحب من الكويت».

وقبل أن يدخل الملك في تفاصيل محادثاته مع صدام قاطعه الوزير بقوله: «إنك لم تسمع! فقد أصدرت وزارة الخارجية المصرية بياناً تدين فيه الغزو العراقي للكويت».
وكان هذا صدمة للملك حسين الذي قال: «إن هذا يهدم كل شيء، وربما وسع نطاق النزاع».

وأسرع الملك في العودة إلى القصر حيث حاول الاتصال بالرئيس مبارك. ووجد صعوبة في الوصول إليه. وعندما تم له ذلك أخبره عن اتفاقه مع صدام على انسحابه من الكويت وحضوره القمة المصغرة. وسأله: «لماذا أصدرتم ذلك البيان؟ لقد اتفقنا على أن لا نفعل شيئا من ذلك حتى تجتمع القمة المصغرة».

وبدا الاضطراب على مبارك وقال: «لقد تعرضت لضغط هائل من وسائل الاعلام

ومن الشعب. إن عقلي لا يشتغل»، فصرخ الملك: «حسنا اتصل بي عندما يعود إلى العمل».

وفيما بعد روى هذا مبارك بطريقة مختلفة جدا فقال: «سألت الملك حسين: هل وعد صدام حسين بالانسحاب من تلقاء نفسه؟ فأجابني الملك: «لا ولكنه قال بأنه سيفعل ذلك إذا جرى التوصل إلى حل في القمة المصغرة وخصوصاً إذا حصل على تنازلات كويتية بوساطة السعوديين». وعندما سئل مبارك عما إذا كان صدام قد التزم بالانسحاب أجاب بالنفي.

ويدعي مبارك أن حديثه مع الملك أقنعه بأنه طالما أن صدام حسين لم يقدم أي ضمانة بأنه سينسحب حتى ولو جرى التوصل إلى اتفاق في القمة المصغرة فإنه لا مبرر لاجتماع هذه القمة.

***

وأخبرنا مسؤولون عراقيون من ذوي الاطلاع أن الرئيس العراقي وافق خلال محادثاته مع الملك على الذهاب إلى جدة في السابع من أغسطس لحضور قمة مصغرة وأنه سيجري مفاوضات مع الملك فهد وأنه في حال نجاحها سينسحب من الكويت.

وقبيل نشوب الحرب وبينما كان صدام حسين مجتمعا مع دي كويار أمين عام الأمم المتحدة أعاد التأكيد على قراره الانسحاب من الكويت في الخامس من أغسطس إذا نجحت القمة المصغرة التي تقرر اجتماعها بجدة في الرابع من الشهر ذاته. وقد تأكدنا من مراجع رفيعة المستوى في العاصمة الأردنية بأن صدام حسين أبلغ الملك بالفعل بأنه على استعداد للانسحاب من الكويت وأن الملك حسين أبلغ ذلك إلى الرئيس المصري. ويدل هذا على انه عندما أخبر مبارك عرفات بأن الملك حسين ابلغه أن صدام حسين لم يوافق على الانسحاب من الكويت لم يقل الحقيقة.

***

في موسكوأخذ دنيس روس نائب بيكر يفقد صبره. وكان في تلك الأثناء يقيم في مقر السفير الأميركي ويعمل بصعوبة بالغة على التوصل إلى اتفاق حول التغييرات التي سيتم إدخالها على البيان المشترك الذي سيصدره بيكر وشيفارنادزه. وكان مشروع البيان

الذي أحضره تراسنكو معه غير صالح ويتسم إلى حد كبير بالغموض والاعتدال. فقال لتراسنكو: «لا بد من إعادة كتابته. إذ ينبغي أن يكون أقوى من ذلك». فخرج تراسنكو وعاد بعد ثلاث ساعات ومعه نص جديد غير مرض أيضاً. فعندما أطلع روس عليه قال:

«إنك تعرف ما الذي سيحدث إذا اعتمدنا هذا النص. إننا لن نوصل الرسالة المطلوبة إلى صدام حسين. فهو لن يجد في هذا النص ما يدل على اتحادنا وتصميمنا». فأجابه تراسنكو:

«إننا نواجه مقاومة لذلك. فخبراء الشؤون العربية في وزارتنا يعارضون فكرة التخلي عن شريك ثابت كالعراق».

وخرج تراسنكو مرة أخرى وعاد بعد بضع ساعات وعلى وجهه علائم النجاح. فلم يكن أمامهما وقت يضيعانه. فطائرة بيكر كانت على وشك الهبوط. فركب الرجلان سيارة ليموزين واتجها إلى المطار بأقصى سرعة ممكنة. وعندما قرأ روس النص وجده مرضيا. ولاحظ أن فيه فقرة تدعو إلى حظر مشترك على بيع الأسلحة فحذفت. وقال لتراسنكو: «إنه لا قيمة لها». فعلق زميله السوفييتي بقوله: «يمكن لوزير خارجيتكم أن يبحث ذلك مع زميله شيفارنادزه».

ووصلا أثناء هبوط الطائرة. وكان شيفارنادزه بانتظاره على المدرجات. وتصافح الوزيران. فقال شيفارنادزه وعلى شفتيه ابتسامة تنم عن الاحراج: «كنت مخطئا يا جيم عندما أبلغتك أنه لن يكون هناك غزو». ثم توجها ومعهما روس وتراسنكو في الحال إلى غرفة عليها حراسة مشددة.

استهل بيكر الحديث بقوله: «ينبغي أن يكون واضحا لصدام حسين وباقي العالم أننا متضامنان في هذا». فوافقه شيفارنادزه الذي كان يميل إلى الاسهاب ولكن بدون حماسة كبيرة. وبعد أن استمع إلى ما لدى بيكر قال: «نحن نصر على أن الاتحاد السوفييتي لن يقبل قيامكم بأي شكل من أشكال دبلوماسية المدفع».

وحاول بيكر طمأنته فقال: «لن تتخذ الولايات المتحدة إجراء من طرف واحد إلا إذا تعرض مواطنوها للخطر».

وصل الى جدة في وقت مبكر من مساء ذلك اليوم، عزت ابراهيم، الشخصية الثانية في العراق، لإجراء محادثات مع الملك فهد. وفي الوقت نفسه أظهرت صور الأقمار الصناعية أن وحدات من الحرس الجمهوري العراقي وصلت الى الحدود المشتركة بين الكويت والسعودية.

في عمان، كان الملك حسين محطما ويشعر بالمهانة واليأس، فقد اعتبر الملك البيان الذي يدين الغزو مؤامرة واسعة مدبرة من بعض الدول العربية لعرقلة جهوده ولتخريب القمة المصغرة المرتقبة ليوم الغد.

بقي الملك الذي اعتاد الكفاح والعمل عدة ساعات وحيدا في قصره. وكان الزائر الوحيد الذي سمح باستقباله هو شقيقه الأمير حسن. وقال له بصوت حزين: «كان ينبغي على العرب أن يثبتوا قدرتهم على حل الأزمة بأنفسهم ـ لقد كان علينا أن لا نفشل. والآن علينا أن نتوقع الأسوأ».

وتوقف رنين الهاتف في القصر الذي كاد أن يكون خاليا. فلم يتصل أي من الزعماء العرب بالقصر. وفي تلك الساعات التي انعزل فيها وأخذ يشك في كل شي وحتى في نفسه خطر بباله أن يتنازل عن العرش.

وكان باستطاعته سماع الضجة في المدينة. إذ كانت المدينة مسرحا للمظاهرات المؤيدة لصدام حسين والتي كانت تهتف باسمه إلى جانب اسم صدام. وكان المتظاهرون وغالبيتهم من الفلسطينيين يعلنون عن حقدهم على دول الخليج، «فالكويت» في نظرهم ليست قطرا، وليست شعبا وليست عاصمة وليست حتى بلدة. فهي بئر نفط وسط الصحراء. فالدول الخليجية المتعجرفة ترفض منح الجنسية للعرب الذين يعملون فيها والذين خدموها بإخلاص مدة طويلة. وينبغي على صدام أن يغزو السعودية أيضاً».

كانت مظاهرات التأييد هذه في نظر الملك حسين «نصراً مراً». وعندما أسدل الظلام ستاره على التلال المحيطة بعمان كان لديه إحساس بالفرقة التي كانت ستمزق العالم العربي.

وفي تلك الأثناء، كان مجلس الجامعة العربية بالقاهرة ينهي الهدنة التي طلبها

الملك لإفساح المجال له للتوسط. وتبنى وزراء الخارجية العرب قرارا يدين العراق ويدعو إلى انسحاب قواته إلى الحدود دون شرط. ورفض سبعة من الأعضاء البالغ عددهم واحداً وعشرين أن يصوتوا إلى جانب القرار. وهم بالإضافة إلى الممثل العراقي وزراء الأردن وليبيا واليمن والسودان وجيبوتي ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكان الوزير الليبي قد انسحب من القاعة قبيل التصويت.

وكان المندوبون العرب على علم بالضغط الأميركي الذي تعرض له حسني مبارك طوال اليوم بوسائل مثل الرسالة التلفونية التي بعثها جون كيلي. وكانت مصر بعد اسرائيل هي المستفيد الأكبر من المساعدة الأميركية المالية في المنطقة وتبلغ نحو بليوني دولار.

وبالرغم من أن القرار دعا إلى عقد قمة عربية « لبحث العدوان والبحث عن وسائل للتوصل إلى حل دائم »، فإن الأمل في التوصل إلى تسوية فورية كان قد تلاشى. وكان صدام حسين كما قال الملك حسين قد أعلن عن استعداده للانسحاب من الكويت إذا انعقدت القمة العربية المصغرة ولكن على شرط أن لا تقوم الجامعة العربية بإدانة الغزو. على أن القمة المصغرة التي كان من المتفق عليه انعقادها في الرابع من أغسطس قد ألغيت. وما قيل للعالم عندئذ هو أن القرار الذي اتخذته الجامعة العربية في ذلك المساء يدعو الدول العربية إلى عدم إنزال قواتها على الأراضي العربية. وصوتت إلى جانب القرار كل من السعودية ومصر وسوريا. إلا أن الولايات المتحدة غيرت موقفها خلال الأسبوع التالي.

الفصل السابع

«لن أغزو السعودية»

اشارت التقارير الواردة صبيحة الرابع من آب إلى أنَّ الوحدات العراقية دخلت «المنطقة المحايدة» بين الكويت والمملكة العربية السعودية وتمركزت على بعد نصف كيلو متر من الحدود السعودية. وفي «فورت ميد» حيث مقر وكالة الأمن الوطنية أظهرت الصور التي تلتقطها أقمار التجسس الصناعية التي باتت تصور كل كيلو متر من منطقة الأزمة، أنّ مئة ألف جندي من نخبة الوحدات العراقية قد حُشدت قرب الحدود وكانت هذه الوحدات تنتمي إلى الفيلق الثالث والحرس الجمهوري الذي يؤمّن الحماية الشخصية لصدام حسين. وكان هذا الفيلق يضم ٨ فرق تتألف كل منها من ٣٠ إلى ٣٣ لواء.

وتلقى المسؤولون الرئيسيون في الادارة الأميركية دراسة سرية فيها تقييم لما تمثّله هذه القوات من أخطار:

«يتطلب الغزو العراقي للسعودية عملية عسكرية تفوق بكثير اتساعاً وعمقاً تلك التي قامت بها القوات البرية العراقية. وتشمل الأهداف الرئيسية لهذا الغزو المرافىء والمطارات القريبة من الظهران الواقعة على بعد ثلاث مائة كيلو متر من الحدود الكويتية، على أن يكون الهدف التالي الرياض عاصمة المملكة السعودية. ففي هذه المنطقة جميع الأهداف الاقتصادية الحيوية التي يؤدي الاستيلاء عليها إلى إغلاق الخليج على السعوديين، وإلى إعاقة الإمدادات الأميركية».

ثم تعرض الدراسة لمختلف الهجمات التي قد يقوم بها الحرس الجمهوري على الأراضي السعودية وتختم ذلك بمقارنة تاريخية غير متوقعة:

«قد تشكل سمعة الحرس الجمهوري الممتازة نقطة ضعف خطيرة. فتدميرها أو إلحاق هزيمة خطيرة بها، قد يصيب باقي وحدات الجيش بصدمة معنوية هائلة تؤدي إلى تسريع تفككه وانهياره. فليس من المستبعد أن تكون ردة فعل القوات العراقية مشابهة لتلك التي صدرت عن حجافل الجيش الفرنسي الكبرى في واترلو عندما بلغها

نبأ انسحاب حرس نابليون القديم. فقد أحدثت صرخة «الحرس يتقهقر» ذعراً عمَّ الجيش الفرنسي بأكمله وأدى إلى انهياره الفوري».

وفي كامب ديفد المقر الصيفي للرؤساء القابع في جبال «كاتوكتين»، انعقد الاجتماع الثاني الذي دعا إليه جورج بوش في أقل من أربع وعشرين ساعة. وقد بدأ كالذي سبقه في الساعة الثامنة صباحا، وحضره إلى جانب برنت سكوكروفت وريتشارد هاس والجنرال كولن باول، الذين كانوا هناك في اليوم السابق، رئيس موظفي البيت الأبيض جون سنونو ووزير المالية نيقولاس برادي ومدير وكالة المخابرات الأميركية (CIA) وليام وبستر إضافة إلى وزير الخارجية جيمس بيكر الذي كان قد عاد من موسكو في مساء اليوم السابق. وجلس المجتمعون حول طاولة من خشب البلوط في الشاليه الخشبية بعد أن كان أكثرهم قد خلعوا ملابسهم الرسمية وارتدوا ملابس عادية كما لو كانوا قد جاؤوا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. والواقع أنهم كانوا وسط أزمة متفاقمة.

واستهل الاجتماع عدد من الخبراء العسكريين المدعوين إلى الاجتماع بتقديم تقرير حول «الوضع كما هو على الأرض وما يمكننا عمله».

واثير احتمال القيام بنشاطات سرية تهدف إلى زعزعة استقرار النظام العراقي أو التخلص من صدام حسين غير أنه لم تجر مناقشة خطط محددة. وبعد أن أكمل العسكريون عرضهم وخرجوا من القاعة طلب جورج بوش من المجتمعين التعليق. ودار النقاش كله حول الخيارات العسكرية. وكان واضحاً أن انتشاراً عسكرياً أميركياً في الخليج لا يمكن أن يتم عملياً دون دعم ومساندة الدول العربية وخاصة المملكة العربية السعودية. إلا أن الرياض لم تكن مستعدة لإعطاء الضوء الأخضر، وذلك لسببين: أولهما أن السعوديين كانوا لا يزالون متمسكين باحتمال تسوية عربية، وثانيهما أن فكرة وجود قوات اميركية أثارت لديهم قلقاً عميقاً.

هذا وقد حملت آخر الأنباء عن الوحدات العراقية التي تحتشد على الحدود مع السعودية ما يدعو إلى المزيد من القلق وشكلت فوق كل شيء الورقة الحاسمة في المفاوضات مع الملك فهد. وعبر بوش عن ذلك بوضوح. فمنذ بداية الأزمة لم يخف تبرمه بسبب بطء الاستجابة الدولية. كما عبر عن غضبه بسبب القمع الذي كان يمارسه العراقيون في الكويت.

وعندما بدأ كولن باول بالكلام استقر بوش في مقعده وعلى وجهه علامات الاهتمام ويداه متشابكتان وأصابعه تلامس أنفه. إذ كان يريد أن يستمع إلى الخيار العسكري.

***

منذ الثاني من اغسطس والجنرال نورمان شوارزكوف المعروف بالدب بسبب ضخامة جثته لا ينام سوى بضع ساعات كل ليلة، ويدخن أكثر من العادة، ويكاد لا يفارق مقره في قاعدة ماكدل الجوية بفلوريدا. وكان من قدامى لاعبي كرة القدم المعروف في وست بوينت بحبه للحياة الهنيئة، ورئيساً للقيادة المركزية (السنتكوم). وكان استراتيجيو وزارة الدفاع قد قسموا العالم إلى مناطق وعهدوا بالمسؤولية عن كل قسم إلى جهة معينة. واعتبر السنتكوم مسؤولا عن منطقة مساحتها ١٥ مليون ميل مربع وتمتد من كينيا إلى باكستان. وعليه فإن هذا الجنرال الضخم المرح كان مسؤولا عن منطقة تحتوي على سبعين بالمائة من احتياطي النفط في العالم.

ومنذ بداية الأزمة كان شوارزكوف يعمل بالتنسيق مع رؤساء الأركان وكولن باول. وعهد إليه بتحقيق الهدف التالي: تعديل الخطة السرية المشهورة رقم ٩٠ ـ ١٠٠٢ التي وضعتها إدارة كارتر للتدخل في الخليج بحيث تشكل دفاعاً هائلا عن السعودية.

وواجهت «الدب» وزملاءه مشكلات عديدة أكثر خطورة منها عدم وجود قواعد على الأرض السعودية والحرارة المرتفعة في الصحراء التي تجعل القتال صعبا للغاية. وكان بين أسباب القلق الأخرى احتمال استخدام العراق للأسلحة الكيماوية وسقوط طلائع القوات الأميركية التي كانت نسبيا في حاجة إلى حماية قبل وصول الدبابات والأسلحة الثقيلة.

من المرجح أن التدخل في منطقة الخليج كان أصعب تحد تواجهه السلطات الأميركية منذ حرب فيتنام. وفي الأسبوع الأخير من يوليو أُجري تدريب أطلق عليه «علم الحرب ٩٠» لاختبار قدرة قادة الجيش على الاتصال فيما بينهم من مسافات طويلة. وكانت العملية موجهة إلى الشرق الأوسط. ولكن بالرغم من التوتر المتزايد فإنه لم تجر الاشارة إلى العراق والكويت والسعودية. ولتفادي إثارة الحساسيات أظهر باول لباقة خارقةعندما طلب تقطيع الخرائط وتعديلها بحيث لا يظهر أي تشابه بينها وبين بلدان المنطقة.

وفي قاعدة ماكديل وفي البنتاغون (وزارة الحربية) كانت الكمبيوترات الضخمة تعمل طيلة أربع وعشرين ساعة في استيعاب المعلومات الجديدة. وكان يجري العمل ببرنامج ضخم له اسم كاللغز ويرمز إليه بالحروفTPFD (اي قوة الانتشار في المرحلة الزمنية (*) ويشتمل على معلومات مفصلة عن القوات والاعتدة التي يجب ارسالها، ووسائل نقلها، وانظمة الاتصالات لتنسيق العملية، وكل ما تحتاجه في صحارى السعودية من دفاعات جوية ومياه للشرب ومبان الخ.

وكان شوارزكوف وباول من قدامى المحاربين في فيتنام، الذين يتخذون جميع الاحتياطات عند استخدام القوة. وكانا مقتنعين بأن نجاح العملية العسكرية رهن بتنفيذها على نطاق واسع واستخدامها كافة الوسائل وبدعمها بتصميم لا يتزعزع لدى السياسيين.

وكان في مكتب رئيس هيئة الأركان لائحة معلقة في مكان بارز وتشتمل على قائمة بـ «قواعد كولن باول» الثلاث عشرة وإحداها: «اختر بعناية ما تريده فتحصل عليه».

***

وعندما بدأ باول في كامب ديفد ذلك الصباح بإلقاء بيانه أمام بوش وأعضاء الادارة، كان عليه أن يتناول جميع المعلومات التي زوده بها شوارزكوف. قال:

«سيدي الرئيس، قال باول، إذا قررت القيام بعملية عسكرية، لا بد من إدخال قواتنا بكثافة وبصورة ملائمة. فمن الواضح أنَّ صدام حسين لا يبحث عن مواجهة مع الولايات المتحدة. إنَّه شرس ولكنه ليس مجنونا. وهو يعلم أنه سيخسر أي حرب يخوضها على نطاق واسع مع الولايات المتحدة. وفي حال حصول تدخل عسكري لا بد من إرسال فوري لقوات مناسبة إلى العربية السعودية وذلك لاظهار تصميمنا الواضح على الدفاع عن المملكة. ولا بد أيضا من أن يكون الانتشار واسعا بحيث يفهم صدام حسين أن الهجوم على العربية السعودية هو هجوم على الأميركيين. كما أن الخطة ١٠٠٢

---

* Time Phase Force Deployment

ـ ٩٠ لا بد من أن تسمح بالسيطرة الجوية والبحرية وإرسال افواج المشاة بعدد يكفي لا للردع فقط بل للقتال. فما من أمة جنت ربحاً من نزاع يطول».

كان كلام باول من النوع الذي يريد بوش سماعه. فبعد أن استمع إلى تعليقات الآخرين قرر إعطاء الضوء الأخضر لتنفيذ الخطة ٩٠ ـ ١٠٠٢ ولإرسال أضخم اسطول منذ حرب فيتنام الطرف الآخر من العالم. «لقد تحول الرئيس» كما قال شاهد عيان «إلى صقر حقيقي» على أنه ترك التفاصيل لباول. وكانت طلائع القوات ـ بموجب ذلك ـ ستغادر في اوائل الأسبوع التالي. وحتى ذلك الحين كانت الخطة ستبقى سرية من الدرجة الأولى.

كان لا بد أيضاً من تذليل عقبة أخيرة وهي الحصول على موافقة المملكة السعودية. فطلب بوش من تشيني وزير الدفاع التأهب للسفر في اليوم التالي إلى جدة؛ واقترح برنت سكوكروفت أن يرافقه روبرت غيتس الرجل الثاني في مجلس الأمن القومي الذي شغل سابقا منصب مساعد مدير وكالة المخابرات المركزية. وتقرر أن يرافقهما الجنرال شوارزكوف.

وانتهى الاجتماع في العاشرة والنصف صباحا. وتقرر عقد اجتماع أخير في البيت الأبيض بعد ظهر اليوم التالي.

***

في هذه الأثناء كان ياسرعرفات مجتمعا مع مبارك. وكان مبارك متوترا، وظل يقول بغضب: «على العراق أن ينسحب»، وأشار إلى اتصاله بالملك حسين الذي كان قد عاد من بغداد. وبدا وكأنه يحاول تبرير موقفه بغض النظر عن النتائج فقال:

«سألته (الملك حسين) عما إذا كان قد بحث مع صدام مسألة انسحابه من الكويت فأجاب بالنفي. وأضاف بأن كل ما بحثاه هو عقد القمة المصغرة التي كنا سنحضرها أنا وهو والملك فهد وصدام الذي أعرب عن موافقته على حضورها. فقلت بأنني لن احضر ما دام صدام لم يعد بالانسحاب.

كانت كلمات مبارك هذه تناقض كلمات الملك حسين الذي صرح بأن الرئيس

العراقي أبلغه بأنه سوف ينسحب إذا تم التوصل إلى اتفاق في اجتماع القمة المصغرة .

وبدا مبارك خلال المحادثات مُحرجا لأنه لم يكن هناك في العالم العربي من يجهل أنه تعرض لضغط هائل من الولايات المتحدة . وفي أثناء المحادثات أسّر لعرفات بأن العراق سيكون هدفا لعملية عسكرية بين ١٢ و ١٨ أغسطس . وفوجىء ياسر عرفات بذلك ولكنه لم يسأل مبارك عن مصدر معلوماته . وفي ختام محادثاتهما قال ياسر عرفات : «عليك أن تذهب إلى السعودية والعراق . » فرد عليه مبارك بفظاظة : « اذهب انت اولا» . وأضاف بعد شيء من التفكير: «أجل ، اذهب واعرف ما إذا كان مستعدا للانسحاب . فإذا كان كذلك فسأذهب أنا أيضاً» .

***

في الثامنة مساء كان الملك فهد يتحدث مع مساعديه المقربين في حدائق مقره بجدة عندما توجه إليه أحد رجاله وقال : «يا صاحب الجلالة إن الرئيس على التلفون . » وكان بوش يتحدث من كامب ديفد حيث كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر . وكانت الكلمات الأولى التي قالها لفهد هي كلمات مارغريت تاتشر قبل ذلك بيومين . قال «يا صاحب الجلالة إنك تعلم أنه (أي صدام) لن يتوقف» .

ثم أطلع بوش الملك على المعلومات التي تلقاها عن الحشود العراقية على الحدود السعودية . فاستولى الاضطراب والقلق على الملك وأظهر استجابة أكبر لمقترحاته . ويقول أحد الموظفين في البيت الأبيض : «حتى ذلك الوقت كان الخوف يشل الحرب» ، وهذا الخوف هو الذي شكل الورقة الرابحة في استراتيجية بوش إزاء السعودية .

وطالت المحادثات بين بوش والملك . وكان من الواضح أنه لا يمكن للجيش السعودي الذي يتألف من ٦٥,٠٠٠ جندي أن يتصدى للقوة العراقية الضاربة . فالحشود العراقية على الحدود ـ كما قال بوش ـ كانت من الوحدات العراقية المختارة . (لكن تبين فيما بعد أن هذا لم يكن صحيحا) وأضاف بوش أن الدفاع عن المملكة أمر أساسي وأنه باستطاعة واشنطن تقديم دعم عسكري هائل . واقترح بوش على الملك إرسال وزير الدفاع الأميركي حاملا «رزمة من تقارير المخابرات التى تثبت أن الغزو العراقي ينطوي على خطر حقيقي والمرفقة بخطط محددة لانتشار القوات الأميركية في أراضيكم» .

ووافق فهد على استقبال تشيني لكنه طلب إمهاله أربعا وعشرين ساعة أخرى ليفكر خلالها في أمر القبول بالتواجد الأميركي العسكري.

***

خرج بوش من اتصاله مع فهد أكثر ثقة. وقضى أكثر ما تبقى من يومه في المكالمات الهاتفية مع كبار زملائه ورؤساء الدول الأجنبية ولا سيما بالرئيس التركي أوزال.

فقد كانت تركيا من أعضاء حلف شمال الأطلسي ويمر فيها يوميا ١,٦ مليون برميل من النفط، أي نصف جميع صادرات العراق النفطية، وذلك عبر خط من الأنابيب طوله ٧٥٠ ميلا ويصل بين آبار النفط بكركوك وميناء بومرطالق على شاطىء المتوسط. وكانت الأزمة قد وضعت الزعماء الأتراك في موقف حرج. إذ كان تصدير النفط يعود عليهم بمبلغ ٣٠٠ مليون دولار في السنة هذا فضلا عن أن العراق كان يزود تركيا بثلثي حاجاتها من الطاقة. وبالرغم من أن الصحافة التركية أجمعت على إدانة الغزو فقد كان المسؤولون فيما بينهم اكثر تحفظا. إذ كانت أية بادرة منهم ستكلفهم غاليا. وأوضح بوش لأوزال أن العمل الدولي ضد العراق يعتمد إلى حد كبير على قطع صادراته من النفط. وأضاف أنه طلب الشيء ذاته من السعوديين، وأنه حصل على موافقتهم.

على أن تأكيد بوش هذا كان سابقا لأوانه. إذ كان يفضل الانتظار حتى تسوّى جميع الأمور العسكرية قبل أن يبحث هذه القضية مع الرياض. فالسعودية كانت القطر الذي يمر به النصف الآخر من صادرات العراق النفطية.

كان أوزال الرجل البدين ذو الوجه المستدير والنظارات مناورا حاذقا. ورأى من الحكمة أن يتريث ليرى كيف سيتطور الوضع. صحيح أنه أكد لبوش دعمه له، ولكن لم يلزم نفسه بشيء محدد، ولم يذكر له أنه كان سيستقبل مبعوثا لصدام حسين في اليوم التالي ـ وفي اعقاب هذه المكالمة مع بوش اتصل اوزال بعدو العراق اللدود الرئيس الايراني رفسنجاني. وفي اليوم ذاته كشفت معلومات من مصادر رسمية بطهران أن صدام حسين اتصل قبل اسبوعين برفسنجاني من أجل التفاوض حول حياد إيران إذا قام بغزو الكويت.

***

وفي عمان صدرت عن الملك حسين كلمات قدر لها أن تزيد من عزلته عن غالبية الأقطار العربية وعن حلفائه الأميركيين. فبعد أن انتقد مواقف دول المنطقة وإدانتها للعراق أضاف قوله: «إن صدام حسين رجل وطني».

***

التقى ياسر عرفات بصدام حسين يوم الأحد الخامس من أغسطس. فادعى صدام بأنه «صدم» عندما علم بالغاء القمة المصغرة، وسأل عرفات: «من هو برأيك الذي أفسد الأمر؟».

عكست مواقف صدام وبياناته في ذلك اليوم مزيجا غريبا من المرارة والتصميم. وأسهب في تبريره لغزو الكويت وأعرب عن خيبة أمله في ردود الفعل العربية. ولاحظ عرفات أن معنوياته لم تتزعزع على الإطلاق. إذ كان هادئا ويتصف بالحيوية. ولم يخل كلامه من الدعابة. وقال لعرفات: «لا بد من حل سياسي». وعلق عرفات بقوله: «إنني متفق معك تماما». وبعد لحظات من الصمت أضاف صدام: «إذهب إلى السعوديين وقل لهم إنني مستعد للحوار».

***

في اليوم ذاته تلقى رجل أعمال فلسطيني بارز مكالمة تلفونية عاجلة من بغداد. وكان المتحدث نزار حمدون نائب وزير الخارجية الذي قال: «عليك أن تحضر إلى بغداد بأقصى سرعة ممكنة. إن الأمر خطير». ولم يكن الفلسطيني متحمسا للذهاب إلى العاصمة العراقية لكنه قال بأنه سيتصل به. وفي اليوم التالي اتصل حمدون ثانية. وعندما علم رجل الأعمال الفلسطيني من المحادثة بأن عرفات سيذهب إلى فيينا في السابع من أغسطس للمشاركة في تشييع جنازة المستشار النمساوي السابق برونو كرايسكي، قال لحمدون بأنه سيذهب إلى فيينا واقترح عليه أن يبعث بما يريده لعرفات ليبلغه به.

وفي السابع من الشهر التقى رجل الأعمال بعرفات الذي سلمه رسالة من صدام حسين لينقلها إلى الرئيس بوش. وكان لهذا الفلسطيني معارف في البيت الأبيض. وأكدت الرسالة على أن صدام حسين كان على استعداد للانسحاب من الكويت ولكن بعد أن يسوي أموره اولا مع الكويتيين.

فاتصل رجل الأعمال الفلسطيني بجون سنونو رئيس موظفي البيت الأبيض وأبلغه أنه سيبعث له الرسالة فقال سنونو:

«حسنا ولكن لا أريد أن يعرف أحد أن الرسالة أُبلغت؟»، ووصلت الرسالة إلى واشنطن ولكن لم يصدر رد عليها.

***

في يوم الأحد ذاك عقدت لجنة وزارة الدفاع الاسرائيلية اجتماعا سريا بالقدس. وكان شامير معكر المزاج. ذلك أن «العلاقة الخاصة» بين بلاده وواشنطن بلغت أدنى مستوى لها. وقال شامير لأحد زملائه: «لقد اتصل بوش بالتلفون بجميع حلفائه وبكل زعيم في المنطقة فيما عدا زعماء ليبيا والعراق وايران ومنظمة التحرير. . . وإسرائيل».

كان موقف إدارة بوش مصدر قلق للزعماء الإسرائيليين. إذ صار من الواضح لهم أن الأميركيين يريدون استبعاد إسرائيل وإجبارها على التزام الهدوء لكي لا تهدد الحلف العربي المناهض للعراق الذي كان يجري إنشاؤه. وضربت واشنطن عرض الحائط بجميع عروض القدس للتعاون مع الأميركيين وخصوصا في مجال المخابرات.

وخيم على الجلسة السرية جو كئيب. وقال موشي ارينز وزير الدفاع: «علينا أن نحتفظ بحقنا في التدخل إذا تغير الوضع الجغرافي الاستراتيجي في الشرق الأوسط تغيرا جذريا أو إذا تعرض الأردن للغزو».

كان بين الحاضرين الجنرال دان شومرون الذي قاد بنجاح الغارة على انتيبي ورؤساء دوائر المخابرات. ولم يكن بينهم من يعتقد بأن السعودية ستتعرض للغزو. وقال احدهم: «إن حجم ردود الفعل الدولية تجعل وقوعه أمراً غير محتمل». لكن من الناحية الأخرى اعتُبر قيام العراق بحشد قواته على حدود الأردن أمرا محتملا جدا. إذ كانت بعض الصواريخ العراقية في طريقها إلى حدود الأردن ويمكن لها أن تصل القدس أو تل أبيب في غضون أربع دقائق. وقال شامير: «علينا أن نزيد من نشاط مخابراتنا في جمع المعلومات. وينبغي أن نحصل على معلومات من أعلى المستويات لمعرفة ما يحدث عندما يحدث لا بعد ذلك بيوم».

وكان المقصود بالاستهزاء رؤساء دوائر المخابرات. فمنذ الثاني من أغسطس كثر الكلام على تقصير المخابرات الاسرائيلية وخصوصا في الصحافة. ولهذا أمعن الحاضرون في تحليل حركات صدام حسين ـ وتمخض تحليلهم عن تشابه عجيب بين ما يحدث وما حدث في عام ١٩٨٠.

ففي عام ١٩٨٠ وعشية الهجوم الايراني على جزيرة الفاو ـ وهو الهجوم الذي مثل بداية الحرب العراقية الإيرانية ـ ذهب صدام حسين لتفقد قواته التي كانت في جبهة بعيدة وذلك لإحداث انطباع بأن الهجوم سيقع على منطقة مختلفة. وبعد ذلك بعشر سنوات قام بدعوة الملحقين العسكريين الأجانب في بغداد إلى الحدود مع الكويت لمشاهدة فرقتيه المرابطتين هناك. وبهذا حول العراقيون الأنظار عن الهدف بطريقة رائعة. فمن كان يصدق بأن بلداً يدعو خبراء أجانب لمشاهدة قواته وهي تتأهب للغزو؟ وفور عودة الملحقين العسكريين إلى بغداد وبينما كانت السفارات الغربية والعربية تبرق إلى عواصمها مطمئنة وداعية إلى التفاؤل، أصدر صدام أوامره إلى قواته الرئيسية بالزحف على الكويت.

شيء واحد أصبح واضحا وهو انه يفتقر بشكل مؤلم إلى قمر صناعي عسكري قادر على رصد حركات القوات المعادية عن بعد. فكان لا بد من اللجوء إلى الأميركيين من أجل مساعدتهم فورا في تحقيق ذلك.

وبعد هذا الاجتماع عقد ديفد ليفي وزير الخارجية جلسة مغلقة مع شامير وموشي أرينز. وكان ليفي سيغادر البلاد إلى واشنطن في اليوم التالي وعليه فقد كان ذلك هو الوقت المناسب لوضع تفاصيل الموضوعات التي سيجري بحثها بصورتها النهائية. وجاءت الرحلة في أوانها تماما لأنها تتيح الفرصة لجس النبض بالنسبة للنوايا الأميركية تجاه أزمة الخليج. ولكن بعد بضع ساعات استولى الفزع على شامير عندما علم بأن جيمس بيكر ـ وزير الخارجية الأميركية ـ أجل زيارة ليفي شهراً.

***

في وقت متأخر من بعد الظهر هبطت الطوافة التي عاد بها بوش من كامب ديفد على العشب أمام البيت الأبيض. ونزل منها وهو يقرأ عبارة على قصاصة من الورق ناوله إياها ريتشارد هاس الذي كان إلى جانبه، وتقول: «إن اوزال على التلفون»، وأخذ

بعض الصحفيين الذين كانوا بالقرب من الطائرة يسألونه. فتقدم إليهم بشيء من العصبية وقال: «إن احتلال الكويت لن يدوم».

وبالرغم من أن الذي كان ينتظر التحدث معه حليف ذو شأن فإنه قضى عشرين دقيقة وهو يرد على أسئلة الصحفيين. وعندما قال بوش «لقد ظفرنا بدعم العالم العربي»، وجه إليه أحد الصحفيين سؤالا أخرجه عن طوره. وكان سؤاله: «كيف تقول ذلك وكل صحيفة تحمل صورة لصدام حسين مع ملك الأردن على صفحتها الأولى؟» فجاء رد بوش فظا. قال: «أستطيع القراءة. فما هو سؤالك؟».

وعاد بوش إلى المكتب البيضاوي حيث كانت بانتظاره رسائل تأييد من جميع أنحاء البلاد. وكان بعضها في غاية الايجاز مثل «عليك به» و «أطح به». وعلق أحد مساعديه عليها بقوله: «لقد أخذ ينفد صبر البلاد».

وقبل ذلك بقليل غادر تشيني وزير الدفاع البلاد إلى السعودية ومصر. واعتبر اجتماعه مع الملك فهد حاسما. وقال أحد موظفي البيت الأبيض في ذلك:

«إن القضية كما نطرحها أمام السعودي محددة تماما». نقول له: اسمع، أمامك شخص كذب عليك قبل إقدامه على ما فعله بخمسة أيام. وليس هناك الآن ما يدعوك إلى تصديقه. فأنت ادرى بالمثل القائل: «لا يلدغ الشخص من جُحر مرتين».

ولمسؤول أميركي كبير تصريح غير رسمي يلقي أضواء على الاهداف الأميركية يقول: «إن احتلال الكويت لا يشكل في حد ذاته تهديدا للمصالح الأميركية. فالتهديد الحقيقي يكمن في القوة التي يحصل عليها العراق عندما يضع يده على ٢٠٪ من احتياطي العالم من النفط ويسيطر على منظمة الأوبيك ويبسط هيمنته على الشرق الأوسط، ويهدد إسرائيل ويسعى إلى الحصول على القنبلة الذرية».

بحلول المساء كان بوش قد ضرب المثل في النشاط: ففي غضون أربعة أيام أجرى ثلاثا وعشرين مكالمة تلفونية مع أثني عشر من زعماء العالم، وأحيانا بمعدل مكالمة كل ساعتين. والآن وقبل أن يعود إلى جناحه الخاص تحدث بالتلفون مع كولن باول وعهد إليه بالبدء بتجميع كل القوات التي يمكن إرسالها إلى السعودية. وبعد ذلك بقليل عقد اجتماعا أخيرا مع جيمس بيكر وبرنت سكوكروفت لبحث العقبة الأخيرة المتبقية وهي رد فعل الاتحاد السوفييتي.

كان بوش قد اعتزم إصدار الإشارة النهائية لانطلاق القوات مساء الاثنين بعد اجتماع تشيني بالملك فهد، بحيث تغادر طلائعها صباح الثلاثاء، لكنه آثر الانتظار إلى يوم الاربعاء ليعلن ذلك.

اتفق الثلاثة على أن مواجهة الاتحاد السوفييتي بالأمر الواقع سيكون كارثة. فإذا انتقد غورباتشوف نشر القوات علانية فإن جميع الجهود التي تبذل لإقناع الأمم المتحدة بالموافقة على العقوبات ستتعرض للفشل. وكان التصويت سيجري في الأمم المتحدة بعد ظهر اليوم التالي. فاقترح سكوكروفت الاستفادة من «الوقت القصير ولكن الكافي» لطمأنة موسكو وإطلاعها على النوايا الأميركية. وقال سكوكروفت: «يمكننا استخدام دقة الوضع لتقوية العلاقات الأميركية السوفيتية بشكل أسرع». وتقرر أن يستغل بيكر الفرق في التوقيت فيتصل بشيفارنادزه من موسكو في وقت متأخر من ذلك المساء.

***

وبحكم كون باول وبيكر وسكوكروفت دائما في الواجهة خلال إدارة الأزمة فقد شكل ثلاثتهم في واقع الأمر وزارة حربية. على أنهم كانوا ذوي طباع مختلفة.

كان باول ـ كما يقول أحد أصدقائه يمثل «الحلم الحقيقي لرجال الأعمال»، والتجسيد الحي للحلم الأميركي. فهو ابن مهاجر من جامايكا ونشأ في هارلم وجنوب البرونكس (أي المنطقة بين هارلم ولونغ آيلند). ولم يكن طالبا نجيباً. ففي المدرسة الابتدائية وضع في قسم التلاميذ «البلداء» على ان هذا كله تغير في الجيش. فقد برز في حرب فيتنام ونال أحد عشرميدالية. ولفت بتشدده في أمر «التهديد السوفييتي» نظر رجال ريغن. فدخل البيت الأبيض ولم يجد صعوبة في الانتقال إلى عهد بوش. وعندما عين جنرالا يحمل أربع نجوم ورئيسا لهيئة الأركان المشتركة أكد بشيء من التحدي: «لقد شققت طريقي في سلم الجيش من دون أن ألعب البريدج والغولف والتنس».

وكان جيمس بيكر ـ الثالث الذي يحمل هذا الاسم كما يحلو له أن يقول ـ قد ورث كأعز أصدقائه بوش ثروة كبيرة. ودرس بيكر بجامعة برنستون بينما درس بوش بجامعة بيل وقد أتاحت لبيكر ثروة أسرته التي تكونت من ممارسة المحاماة في هيوستن أن يشق طريقه بنجاح في ميدان الأعمال الحرة والسياسة. وإذ تولى رئاسة هيئة الموظفين بالبيت الأبيض في عهد ريغن ثم وزارة المال فقد كان رفيقا دائما لبوش في حفلات العشاء،

وعطل نهاية الأسبوع، ورحلات صيد السمك. وبالرغم من أنه كان مثل بوش متحفظا في كلامه، فإنه كان في أكثر الأحيان أكثر جَزْما وينفعل على نحو غير متوقع.

أما سكوكروفت الذي بلغ الخامسة والستين من العمر فهو وسط بين بوش وبيكر. كان حاد الذكاء يغلب عليه الصمت. وسبق له أن كان جنرالا في سلاح الجو، وعُرف بـ «الجندي المفكر» وكان شديد الولاء لبوش. وشهد في عهود مختلف الرؤساء ما يحدث من تنافس بين رئيس مجلس الأمن القومي ـ وهو منصبه الحالي ـ وبين وزير الخارجية، ورأى كيف كان وزير الخارجية يخرج في الغالب منتصرا. وربما كان هذا ما يدفعه إلى عدم التعالي على بيكر المتعطش أكثر منه إلى إثارة اهتمام وسائل الإعلام به. ولكنه ـ أي سكوكروفت ـ صاحب نفوذ كبير ودهاء ربما ورثه عن مرشده ورئيسه السابق هنري كيسنجر. ومنذ بداية الأزمة لم يفارق الرئيس بوش. وكان يعد له بياناته وخطبه، ويحلل تقارير المخابرات بالتفصيل، ويوازن بين منافع القرار ومضاره.

***

في السادس من أغسطس كان شيفارنادزه يقضي عطلة تمتد بضعة أيام في بيته الصيفي في القرم. وكان وحده فيه يتمتع بالراحة عندما رن التلفون وعلى طرفه الآخر زميل له في موسكو أبلغه أن وزير الخارجية الأميركية يريد أن يتحدث معه.

قال بيكر بصوت ينم عن سروره: «شيف، كيف تجد عطلتك؟ هل الجو جميل؟» لكن لم يلبث أن غير لهجته وقال: «سوف نرسل قواتنا إلى الخليج» وأضاف على الفور: «وذلك بطلب من السعودية». ومضى بعد ذلك يتحدث عن آخر تقارير المخابرات حول الحشد المتواصل للقوات العراقية في الكويت وعلى الحدود السعودية حيث احتشد اكثر من مئة ألف جندي. وأضاف: «نؤكد لكم اننا لا نحاول الاستفادة من الوضع لنزيد من نفوذنا في المنطقة». فقال شيفارنادزه: «ماذا تقصد بهذا؟ هل تريد استشارتنا أم إبلاغنا؟»، وكان صوت شيفارنادزه يتصف بالبرود. فقال بيكر محرجا: «إننا نعلمكم لأنني لا أعتقد أنه شيء يمكن أن نقوم به معاً. لكن هل تريدون أن تفكروا في الأمر؟ لست مُخوّلا باقتراح مشاركتكم لنا. فهل تتعاونون بإرسال قوات بحرية أو برية؟».

كان بيكر قد طرح هذه الفكرة أمام السعوديين في اليوم السابق فلم يعترضوا على التواجد السوفييتي. فلم يقل شيفارنادزه شيئا ـ وعندئذ طرح بيكر سؤاله بطريقة أخرى:

«لماذا لا نعمل في إطار اللجنة العسكرية بالأمم المتحدة؟» وكان السوفييت يحاولون منذ سنوات ايقاظ تلك اللجنة من سباتها .

قام بيكر على الفور بإبلاغ مضمون الحديث لبوش وأظهر حماسة كبيرة لفكرة إشراك السوفييت في أزمة الخليج . فأعرب بوش عن اهتمامه واتصل على الفور بكولن باول الذي لم يكن لديه اعتراض على المبادرة .

فعاد بيكر إلى الاتصال بشيفارنادزه . قال : «لا يرى الرئيس بوش عقبة أمام تواجد بحري أو بري سوفييتي في تلك المنطقة . فقال شيفارنادزه بمزيد من التحفظ : «حسنا . إذا كان الرئيس بوش مهتما فعلا بالأمر فسوف ابحثه مع الرئيس غورباتشوف» .

كانت هذه الفكرة من الناحية الدبلوماسية ثورية . لكن وكما تبين فيما بعد فإنها لم تُرض أحدا . وعلق بيكر على ذلك لأحد رجاله بقوله :

«إن هذا تقدم كبير جدا . لأن هناك أولا البلاغ المشترك الذي سنصدره في موسكو والذي يتخلى فيه السوفييت عن أحد حلفائهم ويدينونه . ونحن الآن نقترح عليهم أن يشاركوا سياسيا وعسكريا في الخليج» .

لكن لم تكد تتسرب أخبار هذا الاقتراح إلى خارج الحلقة الضيقة التي تضم زملاء بيكر المقربين حتى واجهت وزارة الخارجية عاصفة أشبه بالثورة . فمنذ عشرات السنين كان هدف السياسة الأميركية إبعاد الاتحاد السوفييتي عن الشرق الأوسط . فجاءت مبادرة بيكر خروجا على هذه العقيدة . فانهالت على مكتبه المذكرات التي يشيع فيها القلق او الغضب من مختلف دوائر وزارة الخارجية . ووجد موظفوها حليفا غير متوقع وهو غورباتشوف . الذي لم يظهر امتنانه للاقتراح . فالمصاعب الداخلية التي كان عليه أن يواجهها والذكرى المرة لغزو افغانستان شجعت زعماء الكرملين على اتباع سياسة الحذر والترقب .

قال بيكر لشيفارنادزه بعد بضعة أيام : «هذا العرض رمز لحسن النية» . فقال هذا باقتضاب : «شكرا لكم . لقد أدركنا ذلك» .

***

قبيل ظهر اليوم ذاته عاد عرفات إلى القاهرة حيث انضم إليه أبو إياد الرجل الثاني

في منظمة التحرير، واستقبلهما مبارك. فأطلعه عرفات على ما دار بينه وبين صدام خلال مقابلتهما في اليوم السابق. قال: «إنه فعلا مستعد للتفاوض». وأضاف أنه يخشى أكثر من أي وقت مضى حدوث مواجهة عسكرية. ونبه أبو إياد إلى إمكان تدخل إسرائيل. وبدا أن مبارك كان يشعر بعداء متزايد للعراق وأنه يعارض القيام بأية تسوية. أما الذي أدى إلى اتخاذه هذا الموقف الجديد المتصلب فهو الحملة السياسية والإعلامية العنيفة في الولايات المتحدة. فاعتزم عرفات وأبو إياد أن يذهبا إلى السعودية وهي البلد الوحيد الذي كان لا يزال قادرا على التفاوض معه حول التسوية.

***

في جدة كان ريتشارد تشيني يضع اللمسات الأخيرة على الاتفاق الذي جرى التوصل إليه مع الملك فهد. والواقع أنه كان قد أصبح مفاوضا أكثر منه رسولا في الأزمة القائمة. وكان يمثل الخيارالثاني لدى بوش للحلول في منصب وزير الخارجية الذي يعتبر من المناصب الرئيسية. واقترح ترشيحه وأيده برنت سكوكروفت. وكان تشيني يعاني من مرض في القلب. وعندما اجتمع به سكوكروفت لبحث إمكان ترشيحه كان السؤال الذي طرحه عليه بلا مجاملة: «ديك كيف صحتك؟»

كان قد جرى التمهيد إلى حد كبير لمحادثات بوش التلفونية مع الملك بحضور الجنرال شوارزكوف وروبرت غيتس، وأخو الملك ووزير الدفاع الأمير سلطان الذي كان قد قطع رحلة استجمام في مراكش؛ وعبدالله بن عبد العزيز ولي العهد؛ ونائب رئيس الوزراء ورئيس الحرس من البدو. وكان عبد الله طوال الوقت أكثر شكا في الأميركيين من فهد. وعليه فقد كان هو الذي ينبغي إقناعه. لكنه درس بعناية تقارير المخابرات الأميركية السرية والصور الفوتوغرافية التي التقطتها الأقمار الصناعية والتي تشير بالتفصيل إلى الحشود العراقية في الكويت وعلى الحدود السعودية وتحدث مطولا مع شوارزكوف وتشيني عن المواقع التي يمكن تمركز القوات الأميركية عليها. وقال له تشيني: «هذا كل ما نستطيع تقديمه لكم». فقال فهد أخيراً:

«حسنا، سأقبل ذلك كله».

وكان السعوديون قد اشترطوا مسبقا وقبل أن يعربوا عن موافقتهم النهائية. أنه «مما لا يقبل الجدل أنه لن يجري إنشاء قواعد عسكرية دائمة على أرضنا». وكان الأميركيون

قد توقعوا هذا فاقترحوا بروتوكولا سريا: انسحاب القوات الأميركية من الأراضي السعودية حالما تسمح الأحداث بذلك ولكن إقامة قواعد دائمة ومساكن للقوات الأميركية والقوات المتعددة الجنسيات في إمارة البحرين وداخل الكويت.

لقد عوّل الأميركيون على عدم رضى الزعماء السعوديين. إذ كانت هناك اولا مشكلة الملك فهد الذي كان يتزايد عجزه عن الإقدام على أي عمل. ويقول أحد المقربين منه والمطلعون على الامور: «لا تكاد تظهر المشكلة حتى يهرب الملك منها». وأخذ يطيل اعتكافه في قصره ويتجنب مستشاره ورجال أسرته. ثم إن الزعماء السعوديين كانوا يدركون مواطن ضعفهم: اذ كانوا قد اشتروا خلال السنوات القليلة الماضية ما قيمته ١٥٠ بليون دولار من الأسلحة المتطورة ومع هذا فقد كانوا يعترفون بأنهم لا يستطيعون صد عدوان جيش قوي كجيش العراق عليهم. كما أن السعودية كانت تستخدم دخلها الهائل البالغ خمسين بليون دولار في السنة في محاولة عقد التحالفات الاقليمية وتحييد اولئك الذين قد يصبحوا أعداء لهم. على أن أزمة الخليج كشفت عن نواحي قصور هذه الاستراتيجية.

***

عندما افتتحت المحادثات في جدة بين الاميركيين والسعوديين كان صدام حسين يستقبل جوزف ولسون القائم بالأعمال الأميركي في جدة. وبدا عليه الارتياح وهو يحيي الدبلوماسي الأميركي وبادره بقوله: «ما هي الأخبار السياسية والدبلوماسية؟». فالتفت ولسون لوزير الإعلام العراقي الذي حضر المقابلة وقال: «لدى وزيرك من الأخبار التي يتلقاها من محطة سي أن أن (CNN) ما يفوق ما عندي». فقال صدام:

«طلبت منك أن تدرس التطورات التي تحدث بعد مقابلتي لسفيرتكم. فقد تلت ذلك مفاوضاتنا الفاشلة مع حكومة الكويت السابقة. لكن ما حدث قد حدث». فقال ولسن: «لقد أخبرني وزيركم من قبل».

***

واصل صدام كلامه للدبلوماسي الأميركي قائلاً:

«إني مطلع على تفاصيل الموقف الأميركي. نحن نعلم جيداً انه حين يحدث أي

شيء في العالم العربي، أوروبا، أو آسيا أو في أميركا اللاتينية يكون للولايات المتحدة موقفها دائماً. ولا يفاجئنا أن يدين الأميركيون عملاً من هذا النوع خاصة أنهم ليسوا طرفا فيه. ولكن على الولايات المتحدة أن تحرص على أن لا تتبع النصائح السيئة، إذ قد تجد نفسها في وضع محرج.

«إني متأكد من أنكم اطلعتم على الرسائل التي وجهناها إلى إيران خلال الحرب، رسائل تقيم الوضع في الحاضر والمستقبل. وبما أن هذه الرسائل كانت في غاية الصراحة، اعتقد الإيرانيون أنها لعبة تكتيكية من طرفنا. ولكننا كنا نقول لهم ما نعتقده لأننا كنا نريد السلام ولأن الحرب لا تفرحنا. ولكن تعرفون النتائج: فلو أخذ الإيرانيون بالاعتبار ما كنا نقوله لهم لما نشبت الحرب.

«أريد أن أتحدث عن العلاقات بين العراق والولايات المتحدة في ضوء التطورات وعما سيحدث إذا ارتكبت الولايات المتحدة أي خطأ. وفي البدء سأتناول ثلاث نقاط ذات صلة بالوضع الراهن:

«كانت الكويت دولة بلا حدود حقيقية. وقبل عام ١٩٦١ لم تكن دولة. فما الذي حصل في عام ١٩٦١؟.

«عندما عيّن عبد الكريم قاسم حاكمًا على الكويت، تابعاً لمحافظة البصرة، كان العراقيون يعلمون، وكذلك عبد الكريم قاسم نفسه، أن الكويت تشكل جزءا من العراق. كانت الكويت إذن حتى ذلك الحين دولة بدون حدود، ولا يمكننا بالتالي أن نحكم على دخول القوات العراقية في إطار العلاقات بين دول العالم العربي.

«وأنتم تعلمون أنه كانت لنا منذ ١٩٧٥ علاقات ممتازة مع السعودية، وأن هذه العلاقات كانت تتطور بصورة جيدة قبل الثاني من آب. فحتى تاريخ الثاني من آب كانت تسود فيها بيننا علاقات ثقة وتعاون فعلية. وأيا كانت السياسة الأميركية فاننا لم نر في علاقاتنا الجيدة بالسعودية ما يضر بالمصالح الأميركية. وإذا صح هذا فإن العلاقة الحسنة بين العراق والسعودية لم تضر الولايات المتحدة وليس هذا فحسب، بل إنها كانت عامل استقرار في المنطقة. إذن فأي تدخل في العلاقات بين العراق والسعودية لا يمكن إلا أن يزعزع الاستقرار في المنطقة وأن يلحق الضرر بالمصالح الأميركية.

«إننا لا نفهم ما تقصدونه عندما تصرحون بأنكم تتخوفون من نوايا العراق تجاه السعودية وأنه بعد الكويت سيجيء دور السعودية. هناك شيء آخرلا نفهمه أيضاً: فإذا كنتم تستبقون الامور وتدفعون بالسعودية إلى عمل ما ضد العراق، فانكم تجبروننا على الرد وبذلك يكون عملكم من قبيل الاستفزاز.

«وكما تعلمون فإننا أول من اقترح عقد معاهدة أمنية مع السعودية تقضي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل من البلدين وعدم اللجوء إلى القوة، ووقعنا الاتفاق. واقترحنا الاتفاق ذاته مع الكويت التي رفضته ربما بناء على نصيحة دولة أجنبية قد تكون بريطانيا.

«وتعلمون أيضا أن الاتفاق أزعج بعض الأوساط الغربية التي أخذت تسخر منه مقارنة إياه بالمعاهدات بين انجلترا وفرنسا (كمعاهدة سايكس ـ بيكو التي نصت على اقتسامهما للشرق الاوسط). ونحمد الله على أن الكويت لم توقعه.

«كنت سعيدا جدا عندما قررنا دعم الجماعة الثورية في الكويت لأنه ليس هناك اتفاق بيننا وبينها. فلو كان هناك مثل هذا الاتفاق لما استطعنا ذلك.

«لقد ساعدتنا السعودية ودعمتنا خلال الحرب مع إيران. وبادرت إلى تمكيننا من استخدام خط أنابيب (لتصدير النفط عبرها). بل إنهم قدموا لنا مساعدات مالية لا قروضا.

«فإذا كنتم قلقين فعلا على السعودية فإنه لا أساس لقلقكم. أما إذا كنتم تتظاهرون بذلك لإثارة قلق السعوديين فذلك شيء آخر. وسنقول الشيء ذاته لإخواننا السعوديين، ونحن على استعداد لتقديم الضمانات التي يريدونها لإزالة قلقهم. ونحن فوق ذلك نشعر بأن من واجبنا إذا كان هناك خطر خارجي أن نحمي السعودية. أما علاقتنا بالعالم العربي فقد نتفق اليوم ونختلف في اليوم التالي. وحتى الآن لم تواجهنا مشكلة في ذلك.

«والنقطة الثالثة التي أريد أن اتحدث عنها هي الشائعات التي تقول بأن صدام حسين تعهد لبعض الدول العربية بأن لا يستخدم القوة ضد الكويت مهما كانت الظروف. كما علمنا أيضا بطريقة أو بأخرى أن بعض المسؤولين العرب أبلغوا شيئا كهذا

للأميركيين. وأود أن اؤكد هنا أنه ينبغي على الأميركيين أن لا يأخذوا بهذا. ذلك أني لم اتعهد بذلك لأي عربي. وما حدث هو أن بعض الزعماء العرب تحدثوا معي عن حشد القوات على الحدود الكويتية وقالوا إن القلق والخوف استوليا على الكويتيين. فقلت لهم إنني وعدت أن لا أقوم بأي عمل عسكري قبل الاجتماع المتفق عليه بجدة. هذا هو ما حدث. إذ لم أقم بأي عمل عسكري قبل الاجتماع. وكنا ننتظر عودة نائب الرئيس (العراقي) لاتخاذ قرار.

«هناك من يتحدث عن السرعة التي تمت بها العملية، ويقصدون بذلك أن النية كانت مبيتة للغزو قبل الاجتماع. لقد خطر ببالنا قبل الاجتماع أن نقوم بذلك بسبب الحركة الوطنية في الكويت لكنه لم يكن الخيار الأول أمامنا. كنا نبذل المزيد من الجهد للتأكيد على حقوقنا من خلال المفاوضات. فنحن عرب، وكان من الطبيعي أن تكون لنا علاقات مع المعارضة الكويتية كعلاقات الكويتيين بالمعارضة العراقية.

«عندما باتت مصالحنا الأساسية مهددة وبعد أن استهلكت جميع السبل اضطررنا إلى اللجوء الى القوة. والسؤال الذي يطرح الآن على الرئيس والقادة الأميركيين هو التالي: ما الذي يتهدد المصالح الأميركية في الكويت أو في غير الكويت؟.

«إنكم تعلمون أنكم كنتم تشترون نفط العراق منذ توليت الحكم. وبالرغم من أن علاقاتنا كانت في تلك الاثناء مقطوعة، وأنكم صرتم تشترون المزيد منه بعد استئناف العلاقات عام ١٩٨٤. وكنتم حين قررتم مقاطعة النفط العراقي تشترون ثلث نفطنا. وقراركم هذا قرار سياسي لا فني. إذ نعلم أن ما يخدم مصالحكم هو التجارة واستمرار حصولكم على النفط. إذاً ما الذي يخيفكم؟ ما الذي يجعلكم تبحثون الخيارات العسكرية التي ستنتهي حتما بالفشل.

«أنتم دولة كبرى ونحن نعلم أن باستطاعتكم أن تلحقوا بنا الضرر كما قلت سابقاً لسفيرتكم. ولكن إذا ما حصل ذلك ستخسرون كل المنطقة ولن تتمكنوا من تركيعنا حتى وإن استخدمتم كل ما تملكون من أسلحة. يمكنكم أن تدمروا مراكز أبحاثنا التكنولوجية واقتصادنا ونفطنا. ولكن بقدر ما تدمرون تصبح الأشياء صعبة بالنسبة لكم. ثم أننا لن نتردد في ضرب مصالحكم في المنطقة كما هجمنا على الكويت عندما تآمر هذا الأخير ضدنا. لا تضعونا في مثل هذا الموقف. فعندما نرى حياتنا مهددة

نهدد الآخرين. إننا نعرف انكم قوة عظمى قادرة على إلحاق الأذى والدمار، ولكن لا أحد غير الله يستطيع تدمير الانسان.

«لماذا تريدون ان تكونوا أعداء لنا؟ لقد ارتكبتم ما يكفي من أخطاء بإضعاف حلفائكم في المنطقة الذين فقدوا أي اعتبار بنظر شعوبهم. وفي رأينا أنكم تُحسنون رعاية مصالحكم عبر نظام وطني واقعي لا عبر السعوديين. إنكم تتحدثون عن العراق المعتدي. فإذا كان هو المعتدي في حربه ضد ايران فلماذا حافظتم على علاقاتكم معه؟ إنكم تتحدثون عن تصريح الثاني من إبريل. إننا لم نصدر مثل ذلك التصريح قبل وخلال وبعد الحرب مع إيران.

«فما الذي جعلني إذن أصدر ذلك التصريح؟ أصدرته لأن بعض الأوساط الغربية والأميركية كانت تحث اسرائيل على مهاجمتنا وذلك لوضع حد للعدوان. إننا نؤمن بأنه خدم السلام. كانت اسرائيل ستهاجمنا لو لزمنا الصمت، وكنا بالطبع سنرد على الهجوم. وتذكرون أننا خلال الحرب مع إيران تعرضنا للقصف المتواصل، وأننا عندما حصلنا على الصواريخ لم نبدأ باستخدامها بل بالتهديد بذلك. فلو أن إيران أخذت بنصائحنا لما استخدمناها. ونحمد الله على أن إسرائيل استمعت إلينا. فهل خدم ذلك قضية السلام؟ يمكن للعراق أن يصمد ضد الصواريخ أكثر من إسرائيل.

«وأخيراً فإنه إذا كان الرئيس الأميركي يريد مواصلة اتباع سياسته في المنطقة والحفاظ على مصالحه فان الخيار العسكري والتوتر المتفاقم ـ كما سبق لنا أن ذكرنا ـ يلحقان الضرر بمصالحه، اللهم إلا إذا كان وراء تصعيد التوتر غرض آخر. وعلى أي حال فإننا نسعى إلى الاستقرار والسلام ولن نذعن لأحد. إننا نكره المجاعة والجوع. وقد سبق لشعبنا أن عانى من الجوع آلاف السنين. ولن نعود به إلى ذلك. إننا نتطلع بشرف إلى مستقبل إنساني يحفل ببناء وتطوير علاقات طيبة مع الولايات المتحدة، هذا إذا أرادت ذلك. تلك هي رسالتي الجديدة إلى الرئيس بوش».

***

واخيرا استطاع ولسون أن يجيب فقال:

«شكراً يا سيادة الرئيس. سأنقل ما قلتموه إلى حكومتي، وسأبلغ رسالتكم فورا بالتلفون كما أني سأرسلها مسجلة على الورق. وكما قلتم بحق فان الوضع يهدد لا

العلاقات الأميركية العراقية فحسب، بل الاستقرار في المنطقة والعالم» فسأله الرئيس العراقي: «ولماذ يهدد العالم بالخطر؟» فأجاب: «ما أعرفه هو أن القلق والاضطراب يسودان الأسواق العالمية». فسارع الرئيس إلى القول:

«كان ذلك خطأ منكم. قبلنا بخمسة وعشرين دولارا للبرميل، ولولا مقاطعتكم لوصل سعر البرميل إلى ٢١ دولارا. وعندما تقاطعون خمسة ملايين برميل مرة واحدة فإن ذلك يؤدي إلى عدم الاستقرار. ونعتقد بأن الذين سيستفيدون من ذلك هم تجار النفط لا الشعب الأميركي». قال ولسون:

«أشعر أنني ضربت على وتر حساس. فالحقيقة هي أنني أردت أن أقول بأنه يبدو لي في هذه الأيام الصعبة أنه من المهم أن نواصل الحوار بيننا لكي نتلافى الأخطاء. فبهذه الطريقة وحدها نستطيع إزالة التوتر وبرودة العواطف. ولهذا فإنني أرحب بهذه المناسبة لنقل الرسالة؛ لكن أود تسجيل ملاحظتين قبل أن اعود إلى ما تفضلتم به ـ وسوف أحمل إليكم وإلى وزرائكم جواب الرئيس بوش. أولا ذكرتم في القسم الأول من رسالتكم أن الكويت جزء من العراق».

فقال الرئيس:

«هذا هو تاريخنا. وعندما نقول ذلك فإننا نقوله لنؤكد للجميع بأن الكويت يجب أن تأخذه بعين الاعتبار لا أن تحتال عليه. هذا هو جوهر العلاقة بين العراق والكويت، ويختلف الأمر بالنسبة لمصر أو السعودية». فقال ولسون: «يهمني أن أفهم طبيعة العلاقة». وشرح صدام ذلك فقال:

«إن الذي يحدد هذه العلاقة شعبا البلدين لا أنا ولا الأميركيون أو السوفييت وغيرهم. وينبغي أن تقوم هذه العلاقات على الأخوة والاحترام المتبادل».

فسأله ولسون: «وهل كان هذا ينقص العلاقة بين العراق والكويت؟». فأجابه صدام بقوله: «أجل وخصوصا في الشهر الماضي. لقد ركضت وراء جابر في محاولة مني لتحديد الحدود فقال: دع الآخرين يفعلون ذلك؟ لدينا ما يثبت قولنا. ولهذا استغربنا قوله، ووجدنا بعد ذلك أنه كان يتآمر علينا».

قال ولسون: «اشكركم. وسأنتقل الآن إلى ملاحظتي الثانية. تحدثت عن

علاقاتكم الأخوية مع السعودية وذكرتم اتفاق عدم الاعتداء عليها . أود أن أبلغكم قلق حكومتي حول نواياكم الحالية. وأشعر أنكم فعلتم ذلك بوجه عام ولكن اسمحوا لي. . . » وهنا قاطعه الرئيس العراقي بقوله :

«وما الذي يبدد قلقكم؟» فقال ولسون : «لا ادري . وسوف أسأل رئيسنا . أعلم أنك شخص صريح ومستقيم ، ولكن أرجو أن نتفق على أنه نظرا للأحوال السائدة الآن حيث لم يحصل أي عمل عسكري من قبل الولايات المتحدة أو السعودية فإنك تتعهد بأنك لا تنوي اتخاذ أي عمل عسكري ضد السعودية» . فكان جواب صدام :

«يمكنكم أن تبلغوا تعهدي إلى السعوديين وإلى كل العالم. فنحن لا نعتدي على من لا يعتدي علينا، ولا نؤذي من لا يؤذينا. ومن يسعى إلى صداقتنا يجدنا أشد تحمسا لمصادقته. وبالنسبة للسعودية فإن الفكرة لم تخطر ببالي. فصداقتنا قوية. وإذا كنت تعرف شيئا لا نعرفه فأود أن تطلعني عليه. فمن الطبيعي ومما لا يزعجنا أن يستقبل الملك فهد حاكم الكويت السابق الشيخ جابر. ولن يساورنا القلق إلا إذا سمح له بالعمل ضد العراق من بلاده. وبالمناسبة أبلغ تحياتي للرئيس بوش وأطلب منه أن يسلّم بأن أسرة جابر ومن حوله قد انتهوا وأصبحوا جزءا من التاريخ .

«من الأمور المشروعة أن يهتم كل شخص بمصالحه الخاصة . ونود أن نعرف تماما ما هي مصالحكم المشروعة لكي نضمن لكم سلامتها . وأود أن تعلموا أن استقبالي لكم ليس حركة تكتيكية. وبرهنت على ذلك باستقبالي لكم بعد المقاطعة . ولست أسعى إلى إلغائها . ولا أسعى الآن حتى إلى موافقة الولايات المتحدة على ما فعلناه .

«فالذي أود معرفته هو المصالح المشروعة للولايات المتحدة. كما أود أن أنصحها بأن لا تقدم على خطوات جريئة لا تستطيع التراجع عنها» . فقال ولسون :

«سأعلم حكومتي بذلك. لقد أتيت إلى هنا وفي ذهني أفكار ثلاث تقلق حكومتي . أولاً، طبيعة الإجتياح . وتعرفون تماما موقف حكومتي من ذلك. ثانياً، نواياكم مستقبلاً تجاه السعودية وهذا ما أجبتم عليه . وأخيراً، أمن الرعايا الأميركيين وخصوصاً السياح للمواطنين الأميركيين بالرحيل . وكما تعلمون فإن الأميركيين حساسون جدا فيما يختص بفقد حرية التنقل . وهذا ينطبق أيضاً على الأميركيين في الكويت حتى

لو سلمنا بحدوث الانسحاب (وربما كان يشير بذلك إلى الانسحاب الجزئي الزائف الذي أُعلن عنه في أعقاب الغزو).

فسأله صدام:

«كيف يمكنكم الإدعاء بأنه لم يحصل انسحاب، ثم الحديث عن شيء مختلف؟» فقال ولسون:

«شاهدت ثلاث قوافل تغادر البصرة وأعلمت واشنطن بالأمر». قال صدام:

«لقد استغرق دخول قواتنا إلى الكويت ثلاثة أيام ولا يمكنها أن تنسحب في يوم واحد. ولا بد لهذا الانسحاب أن يستند إلى اتفاق دولي، ولن نسمح بوقوع الكويت في أيدي قوة اخرى. وإذا تزايدت التهديدات ضد الكويت فاننا سنرسل افواجاً أخرى. وطبيعة هذه التعزيزات مرتبطة بطبيعة التهديدات. وعندما يزول التهديد تنسحب قواتنا. نحن لا نريد أن تتحول الكويت الى لبنان آخر. ولا اعتقد أنه من مصلحة أحد أن ينسحب الجيش العراقي بسرعة تاركاً الكويت مسرحا للقوات المتناحرة. لقد أخذت الحكومة المؤقتة بنصيحتنا لها بتشكيل ميليشيات منفصلة. وكنا نصحناها أيضا بأن تصبح مكتفية ذاتياً وأن تعتمد على الجيش الشعبي. أما بالنسبة للأميركيين في الكويت والعراق فإن السفر محظور على العراقيين والأجانب في كلا البلدين. ومصادركم على علم بأن جيشنا عامل الأجانب بطريقة رتيبة. وقد سمحت حكومة الكويت في بلاغها بالسفر إلى العراق إذا توافرت السلامة». فسأله ولسون:

«هل لي أن أطلب منكم مباشرة أن تعلموني متى ستسمحون للرعايا الأميركيين المقيمين والزوار منهم بمغادرة البلاد؟». فسأله صدام:

«هل تسأل عما إذا كان سيسمح لجميع الأجانب بذلك؟» فقال ولسون: «لا أسمح لنفسي بالكلام نيابة عن الآخرين». فقال الرئيس: «أردت أن أوضح أن هذا التقييد لا ينطبق على الأميركيين وحدهم. وسوف نبلغكم عن ذلك في حينه». فسأله ولسون: «أرجو أن تسمحوا لي بأن أطلب منكم دراسة هذه المسألة بأسرع ما يمكن لأنها قضية عاطفية جدا وحسّاسة بالنسبة لحكومتنا وشعبنا». فقال الرئيس: «نفهم ذلك؛ ونفهم أيضاً جانبه الانساني».

وواصل ولسون كلامه فقال: «أخيرا أود أن أضيف شيئين. لقد أشرتم إلى حسن تصرف القوات العراقية وهذا ما أكده لي وزيركم ونائبه، وأعتقد أنه شيء منتظر. لكن أود لفت انتباهكم إلى أمر مهم وهو أن الجنود العراقيين اقتحموا في الليلة الفائتة بيت المستشار بالسفارة الأميركية في الكويت. وهذا يناقض السياسة التي شرحتموها. وأضيف إلى ذلك أن ما فعلوه هو انتهاك للحصانة الدبلوماسية. وما كنت لأذكر هذا لولا أنكم أثرتم هذه المسألة». فقال صدام:

«اجتمعت بالأمس مع بعض ضباطنا وحدثوني عن بعض الآسيويين والسعوديين وغيرهم ممن يخلّون بالأمن. وعلى أي حال فإذا كان الجيش العراقي قد فعل ذلك فإننا سنعترف به، وسنؤكد لكم أنه عمل خاطىء وأننا سنقوم بمعاقبتهم. فهذا التصرف يتعارض مع سياستنا». فقال ولسون:

«نقطة أخيرة. في هذه الأيام الصعبة وخصوصا بالنسبة لسلامة المواطنين الأميركيين. . .» وهنا قاطعه صدام قائلا: «هل تعتزمون مهاجمتنا؟ أمن أجل هذا تريدون ترحيل مواطنيكم؟» فأجاب ولسون: «كلا. ولكن من واجبي أن اوفر لهم حرية اتخاذ قرار بذلك. فأنا شخصياً سأبقى، وأحب الحياة هنا. وأود أن أضيف أنه خلال الأزمة كانت أبوابها تظل مفتوحة لي ولزملائي من الساعة الثامنة صباحا إلى الخامسة مساء. كما اني اعبر لكم عن تقديري لرغبتكم في مقابلتي وعن رغبتي في الاطمئنان على مصير مواطنينا في الكويت». فقال صدام: «كن مطمئنا».

وعندئذ قال ولسون: «أود أن أؤكد لكم إخلاصي لمهنتي. فالحوار عصب حياة الدبلوماسيين وحال السياسة». فقال صدام: «من الطبيعي أن تطمئنني إلى حسن نوايا زملائكم؛ لكن عليك أن تتعهد لي بنقل رسالتي إلى الرئيس بوش». فقال ولسون: «حدث أخيراً أن التقيت في افريقيا بأحد الرؤساء الإفريقيين فطلبت منه أن يعود إلى وقائع اجتماعنا. ولو عدت إلى محادثاتي معكم لوجدت أنني شكرتك كثيرا».

في العاشرة مساءً بجدة، اتصل ريتشارد تشيني بالبيت الأبيض عبر الخطوط الخاصة بفندقه. وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر في واشنطن. فأطلع الوزير رئيسه على الضوء الأخضر السعودي الذي اقترن بشرط وهو أن على الولايات المتحدة إرجاء الاعلان عن ذلك حتى وصول طلائع القوات. ثم اتصل تشيني بكولن باول. وفي

الرابعة بعد الظهر أصدر الرئيس الأمر النهائي بانتشار القوات الأميركية. وفي حديثه مع باول أسند الى هذه القوات أهدافا ثلاثة وهي:

ردع العراق عن أي اعتداء، والدفاع عن العربية السعودية ودعم قدرات شبه الجزيرة العربية. وتلقى كبار الضباط تعليمات بأن يظلوا مستعدين لمهام أخرى، ولكن لم يتطرق الى ذكر شيء حول هجوم محتمل يهدف إلى إرغام العراق على الانسحاب من الكويت.

وبعد ساعة أقلع سرب من المقاتلات من طراز ف ١٥ باتجاه السعودية. وبذلك بدأت عملية درع الصحراء. وفي ديسمبر ١٩٨٩ استغرق اتخاذ قرار من قبل بوش لغزو بنما تسع عشرة ساعة. واستغرق اتخاذ قرار بالرد على غزو الكويت ١١٥ ساعة.

***

توقفت مارغريت تاتشر في طريق عودتها من كولورادو بواشنطن. فاستقبلها بوش الذي كان قد اجتمع قبل ذلك بقليل مع الأمين العام لحلف شمال الأطلسي مانفرد وورنر. وفي تلك الأثناء وصلت نتائج التصويت في مجلس الأمن على القرار ٦٦١ الذي نال ثلاثة عشر صوتا وامتنع اثنان عن التصويت وهما كوبا واليمن. وقد حبذ القرار مقاطعة العراق تجاريا وماليا وعسكريا.

بعد ذلك بقليل أبحرت حاملة الطائرات سراتوغا والبارجة وسكونسن إلى الخليج. وأخذت الولايات المتحدة ترسل الإمدادات لدعم وجودها البحري في المنطقة تمهيدا لحصار عسكري يهدف إلى دعم قرار الأمم المتحدة. وسأل بوش تاتشر كثيرا عن سير الحرب بجزر فولكلند والصعوبات التي كان عليها مواجهتها.

وفي اليوم ذاته تلقى البيت الأبيض أول برقية مختصرة عن المحادثات بين صدام والقائم بالأعمال الأميركي ببغداد وذلك قبل أن يتلقى النص كاملا. وعندما تم فك رموزه لم يثر الكثير من الحماسة. صحيح أن صدام صرح بأنه لم تكن لديه أية نية لغزو السعودية، لكن الشك كان يكتنف تصريحه. وقال أحد مساعدي بوش: «من الصعب تصديق شيء مما يقوله. فما أكثر الضمانات التي قدمها قبل غزوه للكويت».

***

كان مجلس الأمن مجتمعا للموافقة على القرار (٦٦١) الذي يفرض عقوبات على العراق. لكن حدث ما ولد الانطباع بأنه في حين أن البيت الأبيض يرفض ما قاله ولسون عن صدام حسين فإنه مستعد لاتخاذ موقف أكثر اعتدالا منه. ذلك أنه عندما لاحظ السفير توماس بيكرنغ علامات الاكتئاب بادية على وجه السفير الاردني عبد الله صلاح ذهب إليه وقال: «تشجع، وقل لعمان أن تتصل ببغداد وتحصل منها على جواب. إذ لم ينقطع الأمل بعد»، ثم أملى عليه خمس نقاط (ليرسلها إلى بغداد).

١ـ يجب أن يكون هناك انسحاب مُعلن وبيان يشتمل على جدول زمني يقول مثلا: في يوم الأربعاء سنفعل كذا. لكن لا ضرورة للقيام بهذا (الانسحاب) في يوم وليلة.

٢ ـ لا ضرورة للقلق حول عودة الأمير وأسرته. إذ يمكن الاهتمام بذلك فيما بعد.

٣ ـ إننا نعتقد بأن موقفكم من القضايا المعلقة بينكم وبين الكويت جدير بالاهتمام. وفي حين أننا لا نناصر فريقا على آخر فإننا سنقوم بما هو ضروري للقيام بما يتطلبه الموقف من توسط وغيره.

٤ ـ إننا نعترف بحاجتكم إلى منفذ على الخليج، ونتعاطف مع قضية وصولكم إلى جزيرتي وربة وبوبيان.

٥ ـ نقترح الدعوة علنا إلى استفتاء يتيح للمواطنين الكويتيين أن يقرروا مصيرهم.

وفي تلك الليلة بعث السفير الأردني الرسالة. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي أيقظه زيد بن شاكر وزير البلاط وقال له: «لكن هل الرسالة من صنع بيكرنغ أم هي بالون اختبار من الإدارة؟».

فاتصل عبد الله صلاح ببيكرنغ لمعرفة ما إذا كانت تلك هي مقترحات الإدارة. فأجاب بيكرنغ: «لا اعرف تماما غير أني على يقين من انها أقرب ما تكون إلى التعبير عن موقف الادارة».

وعلى الأثر اتصل بيكرنغ ببيكر وزير الخارجية الذي قال بأنه سيعود إلى الاتصال به. واتصل بالفعل بعد خمس دقائق وقال: «يمكننا تحمُّل هذا» وعلى الاثر قام بيكرنغ

بتبليغ ذلك الى السفير الأردني. وكان من المنتظر أن يجري على الفور نقل الرسالة إلى بغداد. لكن ليس هناك ما يؤكد نقلها.

الفصل الثامن
«سطر كتب على الرمال»

عندما نزل ياسر عرفات وأبو إياد في مطار جدة في السابعة من صباح ٧ أغسطس كانوا مثل باقي الناس في العالم لا يعرفون شيئاً عن الاتفاق الذي تم بين الزعماء السعوديين وواشنطن وعن عملية درع الصحراء الوشيكة الوقوع.

كان الليل في آخره في القواعد الأميركية على ساحل الولايات المتحدة الشرقي، حيث كانت طلائع القوات [المتجهة الى الخليج]. لكن لم تظهر أية علامات على وجود نشاط غير عادي.

عندما وصل الزعيمان الفلسطينيان قصر الملك فهد وجدا الجو المخيم عليه محيراً. لقد اعتادا أن يجداه غارقاً في صمت يدعو الى الخمول. أما عندئذ فكان خلية تعج بالنشاط. كانت ارتال السيارات تشاهد في طريقها الى القصر حاملة أركان الحكم، بينما كان مسؤولون آخرون يروحون ويجيئون في دهاليز القصر وهم يحملون الملفات.

وظل عرفات وأبو إياد ينتظران الى ان وصل رسول من الملك وأبلغهما ان الملك لن يستطيع استقبالهما قبل اليوم التالي. فقال عرفات مشيراً إلى الحركة غير العادية: «ما الذي أثاركم على هذا النحو؟»

فتردد رسول الملك قليلاً ثم أجاب بقوله: «لقد وصل وزير الدفاع الاميركي أمس على رأس وفد. وهو الآن يواصل محادثاته مع الملك».

فأقلقت هذه الأخبار عرفات. ولم يكن أبو إياد المسؤول عن دوائر الأمن والمخابرات بالمنظمة قد علم مسبقاً بالزيارة. وعليه فإنهما أخذا يفكران في وضع جدول لزيارتهما.

وقبل ان يقررا زيارة السعودية للاجتماع بالملك فهد كانا يعتزمان الذهاب الى فيينا للاشتراك في تشييع جنازة المستشار السابق برونو كرايسكي الذي كان يدافع عن الفلسطينيين. لكن لم يعد بإمكانهما القيام بالرحلة لعدم وجود طائرة تقلهما إليها. وعبّرا عن خيبة أملهما لرسول الملك الذي أبلغهما نبأ تأجيل اجتماعهما مع الملك، فاستمع اليهما باهتمام وبعد أن غاب حوالى عشرين دقيقة عاد منفرج الاسارير وقال: «لقد تم

ترتيب سفركما. أمر الملك بتخصيص طائرة لكما. وهي الآن جاهزة لنقلكما إلى فيينا واعادتكما إلى جدة».

***

في القدس أدى تشييع جنازتي شابين اسرائيليين كانا قد قتلا، الى أعمال عنف ضد العرب.

وفي مقر المخابرات العسكرية كان هناك أمران يشغلان الخبراء. فالعراقيون بغزوهم الكويت استولوا من الكويتيين على أعتدة عسكرية متطورة أكثرها من صنع اميركي وشبيه بالأسلحة الموجودة لدى القوات الإسرائيلية. وبالاضافة إلى هذا كشفت «المصادر» أن المخابرات العراقية السرية تلقت وهي تُعدّ للغزو معلومات كثيرة من مخابرات منظمة التحرير. وهذه بدورها حصلت عليها من الفلسطينيين الذين يحتلون مناصب مهمة في الكويت. وفي تلك الاثناء كانت طائرات ف ١٥ وف ١٦ تقلع من الولايات المتحدة إلى السعودية بينما كان أربعة آلاف رجل من الفرقة المحمولة جواً يتأهبون لمغادرة البلاد.

وبدأت الآثار الأولى لضغوط واشنطن السياسية هي الأخرى بالظهور. فقد أغلق السعوديون خط الأنابيب الذي ينقل النفط العراقي الى البحر الأحمر، ومنعت تركيا نقل النفط عبر أراضيها الى شواطئها على البحر الابيض المتوسط.

وكما قال أحد السياسيين الأوروبيين فإنه كان هناك أسلوبان لمعالجة المشكلة وهما «المواجهة والخنق» واختار بوش اللعب بالورقتين في الحال. لكن كان كلاهما يتطلب درجة كبيرة من التنسيق والتعاون الدوليين ليكون فعّالاً.

وفي داخل الدائرة المغلقة لزملاء بوش من أصحاب الاطلاع دار نقاش مثير حول أفضل وقت لإعلان حشد القوات في الخليج. ورأى أكثرهم أن يعلن عن ذلك بالتلفزيون مساء الثلاثاء «قبل ان تنشر الصحافة أخبار العملية». أما بوش الذي لا يشعر بالارتياح عندما يظهر على شاشة التلفزيون فقد تمسك باعتقاده الذي يشوبه الغموض وهو أن الاعلان يجب أن «يجري في اللحظة المناسبة سياسياً وعسكرياً.»

***

في تلك الاثناء أكد صدام حسين عبر التلفزيون أن احتلال الكويت «أنهى التجزئة الاستعمارية» التي كانت تفصل الأكثرية الفقيرة عن الأقلية الغنية.

***

عاد عرفات وأبو إياد من فيينا ليلة الثامن من أغسطس واستقبلهما الملك فهد في الصباح، وحضر المقابلة الأمير عبدالله ولي العهد. وكانت طلائع القوات الأميركية قد بدأت في الوصول.

وكان عرفات قد أصبح على مر السنين خبيراً في فن البقاء. فبعد أن تولى دور الوسيط الذي تخلى عنه الملك حسين بسبب خيبة أمله، اعتقد انه يستطيع تعزيز مكانة المنظمة لا بين رؤساء الدول العربية فقط بل في الغرب. وكان قد رفض أن يدين غزو الكويت واعتبر ذلك ورقة مرور رابحة تمكنه من البقاء على اتصال بصدام حسين. لكن موقفه لم يكن مصدر قوة له. فالواقع أنه أضعف مركزه.

وكان حافظ الأسد يحتقره، و مبارك لا يثق فيه، ودول الخليج تشجب موقفه. والسعودية وحدها التي كانت مموله الرئيسي وقفت موقفاً معتدلاً من المنظمة.

وقبل وصول عرفات وأبو إياد إلى الرياض كانا قد فكرا في الانعكاسات المالية المحتملة للأزمة على المنظمة. وكان بعض مستشاري المنظمة الموثوق بهم قد نطقوا بكلمة «إفلاس» فإذا فقد الفلسطينيون البالغ عددهم ٤٠٠,٠٠٠ أعمالهم في الكويت وإذا تراجعت الدول عن تعهداتها المالية فإن المنظمة ستجد نفسها بلا موارد تذكر.

وكان عرفات قد طلب وضع خطة تأخذ بعين الاعتبار تخفيض ٣٥٪ من الميزانية السنوية التي تبلغ بليون دولار. وجاء الى جدة لا للمفاوضة فقط بل ولطلب المال.

وفاجأ الملك المتزن عادة ضيفيه ـ عرفات وأبو إياد ـ بهجومه العنيف على آل الصباح الذين لجأوا إلى بلاده. قال غاضباً: «لدي انتقادات كثيرة لهم. إنهم لم يُسدّدوا ديونهم. إنهم يتحملون القسط الأكبر من المسؤولية عن نشوء الأزمة».

ثم بحث الملك مع الزعيمين الفلسطينيين خطة انسحاب من الكويت يمكن تقديمها لصدام حسين، وتسمح للعراقيين بالانسحاب الى المنطقة المتنازع عليها حيث آبار النفط. وتمكنهم من البقاء في الجزيرتين اللتين توفران لهم منفذاً على الخليج. فسأله

أحد الفلسطينيين: «هل جلالتكم على استعداد للاجتماع بالزعيم العراقي؟» فنظر الملك إلى ولي العهد الأمير عبدالله وأجاب:

«نعم إذا التزم بهذه الشروط». ووافق الملك كذلك على تقديم مال للعراق. وكان طوال المقابلة يتحدث عن صدام حسين بطريقة سليمة جداً.

وتحولت وجهة الحديث على نحو لم يسرّ الفلسطينيين عندما أثيرت مسألة تمويل المنظمة. إذ استولى الغضب على الأمير عبدالله الذي كان أقل مجاملة من الملك وقال:

«يبدو أنكم ايها الفلسطينيون لا تعرفون شيئاً عما يفعله الكويتيون من أجلكم. إنكم لم تقدموا لهم شيئاً في مقابل ثقتهم بكم ومساعدتهم لكم.»

وأخذت حدة النقاش تتصاعد فأمر الملك الجميع بالهدوء.

***

في الرابعة صباحاً خرج بوش من جناحه بالبيت الأبيض وتوجه الى قاعة المؤتمرات حيث قام مع برنت سكوكروفت بالإشراف على مغادرة القوات الأميركية. وفي السادسة صباحاً عاد الى المكتب البيضاوي. ورأى في طريقه صحفياً ملحقاً بالبيت الأبيض فطلب منه أن يستمع باستمرار للراديو. وفي التاسعة التقى بالصحفيين في مكتبه وأعلن عن العملية. وعندما انتصف النهار عقد مؤتمراً صحفياً صرح فيه أنه «جرى رسم خط على الرمل».

وفي التاسعة قام بمهمة يكرهها وهي الظهور على شاشة التلفزيون لمخاطبة الأمة. وبدا عليه التجهم والتوتر وقال: «يأتي وقت في حياة الأمة ندعى فيه لأن نكتشف من نحن وبماذا نؤمن. واليوم وبوصفي رئيسكم أطلب منكم دعمكم للقرار الذي اتخذته والذي يسمح لنا بأن نقف بثبات إلى جانب الحق، وأن ندين الباطل». وأوضح في خطابه أن مهمة القوات الأميركية دفاعية تماماً. وقال إن لها أربعة أهداف: انسحاب العراق الفوري غير المشروط من الكويت؛ وإعادة الحكومة الشرعية إلى الإمارة؛ والحفاظ على أمن منطقة الخليج، وخصوصاً احتياطي النفط؛ وحماية الأميركيين.

***

لم يكد الرئيس بوش يلقي خطابه حتى أصدر مجلس قيادة الثورة في العراق بياناً يعلن «ضم الكويت» ووصف ذلك بأنه «وحدة أبدية».

وفي السعودية وغير بعيد عن الظهران حيث مقر الأرامكو بدأت طلائع القوات الأميركية بالانتشار. وذكرت مصادر البنتاغون أن ٥٠٠,٠٠٠ جندي سوف يأخذون مواقعهم قبل نهاية الشهر.

وكان العالم العربي يقوم بآخر محاولة يائسة لتسوية الأزمة وكان مبارك منذ اليوم السابق يتصل بزعماء المنطقة لعقد مؤتمر في القاهرة في العاشر من أغسطس.

***

في تلك الاثناء كانت الحكومة في بغداد تقوم بالخطوات اللازمة لقطع ما تبقى من علاقات بينها وبين العالم الخارجي. ففي التاسع من أغسطس وبعد إعلان ضم الكويت بأربع وعشرين ساعة قرر العراق إغلاق حدوده وإبقاء جميع الاجانب على أراضيها «لأسباب أمنية» الأمر الذي كان سيحول ثلاثة ملايين شخص إلى رهائن.

كما أعلن العراق بأنه على جميع السفارات الأجنبية في الكويت أن تغلق أبوابها في غضون أربع وعشرين ساعة. لكن الصحافة الأجنبية عوملت معاملة خاصة. فمنح الصحفيون حرية الدخول والخروج. وأحسنت بغداد بصورة خاصة معاملة شبكات التلفزيون الأميركية.

وعلق المسؤولون العراقيون على الحصار والاجراءات العسكرية ضدهم بقولهم: «نستطيع العيش بدون بيبسي (كولا) وبدون كومبيوترات ماكنتوش وبدون ويسكي». لكنهم لم يذكروا أن العراق كان يعاني من نقص في الحبوب وأنهم كانوا يستوردون ثلاثة أرباع ما يستهلكونه من القمح وكميات كبيرة من الأرز والسكر واللحم. والواقع أن العراق كان قد قام بتخزين حاجياته بسبب توقعهم حدوث الأزمة.

وفجأة اختفى صدام حسين بصورة غريبة من البلاد التي أعاد تشكيلها. كانت صورته في كل مكان: في الشوارع وعلى جوانب التماثيل والبنايات العامة. وكان قد أوجد حقائق جديدة، وأعاد صياغة غيرها على طريقته. وأقام في بغداد صرحاً شبيهاً بقوس النصر الباريسي أسماه «سواعد النصر» وطوله نحو ثلاثين قدماً وعلى شكل سيفين

متقاطعين يحملها ذراعان ضخمان من البرونز. وكان تصميمه يمثل الشعار الذي اتخذه صدام والذي يرمز الى انتصار العراق على ايران ـ وهو الانتصار الذي لم يحدث. لكن الشعب العراقي لم يحتج على ذلك بسبب يقظة البوليس السري. وكما قال أحد الدبلوماسيين فإنه لم تكن تصل إلى البلاد «سوى لقطات من حقائق العالم الخارجي». إذ كان صدام قد كون البلاد على صورته هو. فصارت مثله تجهل ما يجري في الخارج وتنعم بعزلتها.

ومرت أيام في الشطر الأول من أغسطس لم يشاهد أحد خلالها الرئيس العراقي. وكانت الدفاعات ضد الطيران قد عززت حول القصر الرئاسي. لكنه لم يكن يتواجد هناك إلا نادراً. ولما كان يخشى القصف ومحاولات الاغتيال فقد صار يميل إلى تغيير مكان إقامته كل ست ساعات ويقضي أكثر وقته في حصنه. وكان منذ زمن طويل قد اعتاد أن يتصرف بلا غاية سوى البقاء على قيد الحياة. أما الآن فقد كان كما يعرف تماماً يقوم بأخطر لعبة خلال حكمه.

كان قد أحرق كل الجسور. وفي هذه الفترة التي تعرض فيها للإدانة دولياً فإن الزوار الأجانب صاروا يتحاشون الذهاب إلى بغداد. ولم يشذ عن ذلك سوى ياسر عرفات وأبو إياد اللذين كانا يسعيان إلى التسوية.

***

خرج صدام من مخبئه لمقابلتهما. ولم يبد عليه شيء من القلق أو الدهشة بسبب الحملة الشعواء التي شُنّت عليه. وكانت الأمور قد ازدادت تعقيداً بعد الاجتماع الأخير بين صدام وعرفات. وكان قد جرى إعلان ضم الكويت وأخذت القوات الأميركية تصل إلى السعودية. وقدر لاجتماعهم هذا أن يدوم ثلاث ساعات.

حاول عرفات وأبو إياد إقناعه بحضور قمة القاهرة في اليوم التالي. فرفض ذلك اذ كان أمير الكويت يعتزم حضورها. وبالرغم من جميع محاولاتهما فإنه لم يغير موقفه. وقال لهما بغضب: «لقد زالت الامارة وممثلوها من الوجود». وكانت تلك اللحظة الوحيدة التي خرج فيها عن طوره.

فاقترح الزعيمان الفلسطينيان خطة أخرى تقضي بأن يسافر عرفات إلى القاهرة

ويقنع زعماء الأقطار الرئيسية الخمسة بزيارة بغداد لإجراء مفاوضات، على أن تتوقف القمة إلى أن يعودوا. لكنهما كانا يدركان أن اقتراحهما فيه مجازفة كبيرة ومعقد إلى حد يتعذر معه نجاحه إلاإذا استطاعا اقناع رؤساء تلك الأقطار الخمسة حال وصولهم إلى القاهرة. ووافق صدام على الاقتراح.

وعندما انتهى الجانب الدبلوماسي الصرف من الاجتماع استبقاهما صدام ليتحدث إليهما. وتكلم بهدوء وحزم عن الحريق الضخم الذي كان باستطاعته إشعاله في المنطقة. ولم يعمد إلى التبجح، بل كان واضحاً ودقيقاً وكأنه خبير في القنابل يعد قنبلة للتفجير ويختار وقت تفجيرها.

ثم تحدث صدام عن احتمال نشوب الحرب بينه وبين الولايات المتحدة فقال: «من الواضح أنه حالما أهاجم سوف أهاجم إسرائيل. فتدخّل إسرائيل في النزاع سوف يغير موقف كل شخص في العالم العربي، وسوف يعتبر العدوان على العراق مؤامرة أميركية صهيونية. وسوف يقوم عدد من الدول التي تدعم الولايات المتحدة الآن وخصوصاً مصر وسوريا بتغيير موقفها عندما ترى أن إسرائيل تشارك في الحرب.»

ثم أوضح صدام ذلك فيما بعد بقوله: «إنني أقوم بتعزيز البنية العسكرية التحتية في الكويت. سيكون هناك أربعة خطوط دفاعية إثنان منها للدفاع عن مدينة الكويت. وسوف تضطر القوات الأجنبية إلى اختراقها إذا أرادت استعادة المدينة. وحتى لو تحقق للولايات المتحدة التفوق في الجو فإن قواتي ستلحق خسائر جسيمة بالقوات المهاجمة».

وكان الجانب الثالث من خطته يتعلق بالسعودية «حيث تشكل فريق من العراقيين والسعوديين مستعد لشن هجمات إرهابية على القوات الأميركية المتمركزة على الأراضي السعودية».

وختم صدام حديثه بقوله: «إذا نشبت الحرب فسوف يقع القتال في السعودية. وفي السنوات الخمس الماضية تم تهريب عشرات الأسلحة التشيكية والبولندية عبر الحدود من اليمن. وهي الآن بأيدي القبائل المعادية للأسرة السعودية الحاكمة».

***

في أنقرة على بعد بضع مئات من الأميال وجد الرئيس التركي أوزال نفسه في وضع صعب. وكان إلى جانبه جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركية. فشكره بيكر على إغلاقه خط الأنابيب الذي كان ينقل النفط العراقي وأضاف: «على أن هذا ليس الغرض الرئيسي لاجتماعنا. . . » وأخذ أوزال يشعر بالقلق وهو يصغي إليه باهتمام. فقال بيكر: «المهم هو التفكير في كيفية استخدام قواعدكم العسكرية وبأية شروط».

وجاء جواب أوزال مشحوناً بالعبارات العامة الغامضة. قال: «لقد كانت لتركيا علاقات وثيقة بالغرب منذ أن أعلنت الجمهورية عام ١٩٢٣. ولكن كانت لنا أيضاً علاقة تاريخية تقليدية مع العالم العربي والإسلامي». فقال بيكر: هذا صحيح. إن الأزمة الحالية تبرز الأهمية الاستراتيجية لبلادكم ودورها في حلف شمالي الأطلسي. ولهذا نريد أن نعرف إذا كنا نستطيع استخدام قواعدكم. » فسأله أوزال: «بأي إطار يا حضرة الوزير؟» أجاب بيكر: «لعل أعنفها طبعاً هو القيام بهجوم على العراق. »

وعلت شفتي أوزال ابتسامة يشوبها الإحراج وقال: «تلك نقطة حساسة. إن باستطاعة قواتكم استخدام قواعدنا في إطار مناورات حلف شمال الأطلسي لكن الاحتمال الذي تتحدث عنه. . . » وهنا قاطعه بيكر وقال: «لا بد من عرض أي خطوة أولاً على حكومتكم لنيل موافقتها. » فقال أوزال: «أعتقد أنه باستطاعتنا الاتفاق على ما يلي وهو أننا سنلبي طلبكم إذا أصبح العمل العسكري. . . » فقاطعه بيكر وقال: «ضرورياً» وعندئذ هزّ أوزال رأسه وقال: «لا، انني أفضل كلمة «لا يمكن تجنبه. »

فوافق بيكر على ذلك. ثم تطرق الحديث إلى احتمال مشاركة تركيا في القوة المتعددة الجنسيات التي كانت قد أخذت مواقعها للدفاع عن السعودية. ولم يبد الحماس على وجه أوزال الذي كان قد انضم إليه وزير خارجيته. فقال: «إنه احتمال ينبغي دراسته. » فقال بيكر:

«على أي حال تلك مسألة ينبغي تسويتها بين تركيا والمملكة العربية السعودية، لا بين تركيا والولايات المتحدة. »

وبعد ذلك بوقت قصير طرح الزعيمان التركيان مسألة تضحياتهم المالية التي تنطوي عليها العقوبات ضد العراق. وعندما سألهما بيكر عن حجمها قالا بأنها ستبلغ ٦ بلايين دولار. فوعد الوزير الأميركي بتقديم مساعدات أميركية وقال: «إن الحكومة

الكويتية في المنفى تعرض المساعدة للتخفيف من الخسائر التي ستلحق بتركيا . »

***

وفي عمان كان الملك حسين يتأهب للسفر إلى القاهرة لحضور مؤتمر القمة الذي كان سينعقد في اليوم التالي. واختار للرحلة طائرة ملكية أردنية من طراز «إرباص» اسمها «بغداد» ورفض اقتراح مساعديه طمس الاسم. وكان يأمل أن يقترح على المؤتمر إنشاء لجنة تحكيم تضم رؤساء الدول العربية وأن يطلب من الدول الخليجية أن تدعم عريضة تطالب بالتخفيف من التواجد العسكري الأميركي في المنطقة .

***

كانت القمة في نظر الولايات المتحدة الأميركية حدثاً بالغ الأهمية. إذ كانت الإدارة الأميركية تأمل في أن تصوت غالبية الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة إلى جانب إرسال أفواج من القوة المتعددة الجنسيات .

وفي السابع من أغسطس توقف تشيني وهو في طريق عودته من السعودية في القاهرة حيث طلب من الرئيس حسني مبارك أن يرسل قوات مصرية إلى السعودية . ونفى مبارك فيما بعد حقيقة ما حدث، وهو أنه وافق «على شرط أن توافق الدول العربية الأخرى . » ولم تكد طائرة البوينغ التي تقل تشيني تقلع من مطار القاهرة وتحلق فوق المتوسط حتى وصلته رسالة من بوش تقول: «دِك، أود أن تذهب إلى المغرب لمقابلة الملك الحسن» .

وكان طلب بوش هذا غير متوقع إلى حد أنه تعين ارسال خريطة السفر إلى الرباط فوراً بالفاكس لملاحي الطائرة . ولم تتمخض مقابلة الملك الحسن عن شيء مجد. إذ رفض الملك إرسال قوات مغربية. وعندما علم مبارك بذلك تراجع هو بدوره عن موافقته .

وأظهرت الأنظمة العربية إذ ذاك أنها ضعيفة لا تصمد للهزات، وأنها أكثر ميلاً إلى التسوية منها إلى اتخاذ مواقف ثابتة. وتميزت القمم العربية في الماضي بالنفور من اتخاذ أية قرارات بشأن المسائل المطروحة للبحث. وفي هذه المرة وقفت وظهورها إلى الحائط عاجزة عن إخفاء مراوغتها .

***

واستمرت المواجهة في اليوم التالي. وبينما كان مبارك والأسد الحليفان خلال المؤتمر يتأهبان للسفر إلى الاسكندرية دعيا القذافي لمرافقتهما. وما ان ابتعدوا عن الآخرين حتى أشار مبارك بأصبعه نحو القذافي مهدداً وقال والأسد ينظر بلا مبالاة: «كيف توافق على احتلال الكويت؟ كن حذراً. إذا واصلت السير في ذلك الاتجاه فسوف أحتل بلادك غداً ولن يحرك أحد ساكناً.»

***

كان للقرار العربي بتشكيل قوات طوارىء دولية موازية للقوات الأميركية هدفان متناقضان وهما إرضاء الأميركيين كما أراد البعض ومنع التدخل الغربي في المنطقة. وكان مبارك قد أشار ضمْناً خلال القمة إلى عدم الثقة بالنفوذ الأجنبي عندما قال: «خيارنا واضح: عمل عربي للحفاظ على مصالحنا أو تدخل أجنبي لا سلطان ولا سيطرة لنا عليه.»

وكان الزعماء العرب الذين اقترعوا لصالح إرسال القوات يخشون رد فعل الرأي العام في بلادهم. إذ كانوا يدركون أنه من واجب الدول الاسلامية معاقبة من يسمح للكفار بالقتال على أرضه لأنه يعتبر مرتداً.

الواقع أن الجميع كانوا يعرفون الحقيقة وهي أن المواجهة الوشيكة هي في الأساس مبارزة بين العراق والولايات المتحدة، وأن الدول العربية تلعب دوراً ثانوياً.

وكان صدام حسين يعرف ذلك تماماً. فبينما كانت تجري الأحداث العاصفة في القاهرة أذاع صدام خطاباً بالتلفزيون قرأه شخص يشبهه ودعا فيه إلى «الجهاد ضد الولايات المتحدة والزعماء العرب الفاسدين» وقال بأن وصول القوات الأميركية يدنس مكة [المكرمة] مسقط رأس الرسول.

***

في واشنطن فسرت وكالة المخابرات المركزية (السي آي إي) ما أذاعه صدام بأنه دعوة للإطاحة بنظام الملك فهد. وتحدث مدير الوكالة وليم وبستر في هذا الشأن مع الرئيس بوش الذي كان قد وصل قبيل ذلك وبعد الظهر إلى مقره في كينبنكبورت بولاية ماين حيث كان يعتزم قضاء عطلة تمتد بضعة أيام. وكان القلق يساور وبستر بشأن أمر

آخر. ففي ذلك اليوم نفسه تظاهر الآلاف في شوارع عمان تأييداً لصدام وذلك بتحريض من الإخوان المسلمين. وكان قد تطوع أكثر من ٤٠,٠٠٠ أردني للقتال مع القوات العراقية. وعلى أي حال فمخاطر الانفجار كانت تتزايد باستمرار.

وكان محللو وكالة السي آي إي منكبين بعناية على تحليل نقاط ضعف عدد من الأمم المتحالفة. وكان أبرزها نقاط ضعف الأردن بالرغم من أن الملك حسين كان ـ كما قال أحد الخبراء ـ «قد غير جلده مليون مرة من أجل البقاء» فلم يسبق أن كان عرشه مهدداً إلى ذلك الحد. فالحصار الاقتصادي على العراق الذي تعهد باحترامه سوف يلحق خسائر كبيرة بدخل بلاده لا قبل له بها. وإذا قرر صدام حسين أن يهاجم إسرائيل فإن الأردن سيكون في الواجهة.

ولم تكن مصر في وضع أفضل. إذ كان مبارك قد صرح بما يلي: «عندما كذّب صدام حسين على شعر ٤٠ مليون مصري بأنهم أهينوا». فلم يكن باستطاعته أن ينكر أن ١,٥ مليون مصري يعملون في العراق وأن١٥٠,٠٠٠ غيرهم يعملون في الكويت. فإذا طرد هؤلاء جميعاً فإن الوضع الحرج للاقتصاد المصري سيزداد سوءاً.

ولم يظهر الخبراء حماسة كبيرة لمشاركة سوريا التي كان يصفها الأميركيون قبل ذلك بوقت قصير بأنها «دولة إرهابية». وصرح أحدهم «بأن الأسد سيحاول أن يأخذ منا ما يستطيع أخذه.» وستبرهن مسألة لبنان على صدق قوله.

***

جرى حديث بوش مع وبستر في صالون فاقع الألوان بسيط الأثاث في بيت بوش بكنبنكبورت. والبيت مبني من الخشب ويقع قرب البحر وملعب غولف. وكان منذ سنوات ركن الراحة والانزواء المفضل لدى بوش وأسرته، وبناه جد بوش الذي كان لاعب بولو معروف.

تناول وبستر في حديثه المملكة السعودية التي لم يسبق لها أن كانت في مثل ذلك الغنى والتعرض للخطر في الوقت ذاته. كان ارتفاع أسعار النفط سيمكنها من مضاعفة دخلها منه بحيث يصل إلى ٩٥ بليون دولار خلال السنة التالية. على أن الجانب المقلق هو النقد الذي يتعرض له الملك فهد داخل نطاق الأسرة المالكة بسبب الضوء الأخضر

الذي أعطاه للأميركيين. إذ كانت خطب بعض الأئمة في المساجد يوم الجمعة بمكة والمدينة قد سجلت على أشرطة وصارت توزع. وكانت تشتمل على «نقد شديد للأسرة الحاكمة.» ففي حرب الكلام كان العراقيون يركزون على تواجد الأميركيين الذي سيؤدي إلى «حفلات الجنس والخمرة».

وبعد هذا الحديث بينهما اتصل بوش بالبنتاغون وتحدث مع تشيني وباول، وقرروا زيادة عدد «القوات الخاصة» التي سترسل إلى الخليج. وكانت تتألف من عدة مئات من وحدات «سيل Seal» البحرية وقوة التدخل «الدلتا Delta» الملحقة بالقوات البرية، ومهمتها حماية آبار النفط من الهجمات الارهابية والاستعداد الدائم للقيام بعمليات لإنقاذ الرهائن، ولو أن كلمة رهائن لم تذكر. وتقرر كذلك أن يُعهد لعدد من الوحدات بحراسة كبار أفراد الأسرة السعودية المالكة.

***

على الأرض كان اللفتنانت ـ جنرال تشارلز هورنز يقوم بتنسيق وصول القوات المحمولة جواً. وكان من المنتظر أن تكون مئتا طائرة مقاتلة قد أخذت مواقعها في القواعد السعودية بالاضافة إلى مئة طائرة مساندة قبل نهاية الأسبوع. كما كانت هناك خمسون طائرة من طراز ب ـ ٥٢ تنتظر على جزيرة دييغو غارسيا لكي «تفرش بساطاً من القنابل» ـ كما قال أحد الضباط ـ على الأهداف العسكرية العراقية، ووضعت ١٤ طائرة ف ـ ١١١في القواعد بتركيا. وكان مجموع الطائرات التي كان البنتاغون يتوقع وصولها ٦٠٠ وذلك لمواجهة ٥٠٠ طائرة عراقية منها مئة من طائرات الميج ٢٣ والميراج ف ـ ١ س كانت تعتبر مصدر تهديد حقيقي.

وكان الجنرال نورمان شوارزكوف يشرف من مقره بالرياض على كل جوانب العملية. وكان لقائد القوات الأميركية هذا الذي لقب بـ «دب الصحراء» بالقياس إلى روميل على اتصال مباشر بكولن باول في واشنطن. وكانا يتحدثان مرة كل يومين. ويقول شوارزكوف: «إن لقواتنا على الأرض قدرات دفاعية وهجومية».

كان البنتاغون قد أقام ما يمكن اعتباره جسراً جوياً مع السعودية وأخذت تهبط طائرة عملاقة من طراز سي ـ ١٤١ في السعودية كل خمس دقائق. وقدرت المواد التي كان يجري ارسالها بأكثر من ٤٥٠,٠٠٠ طن تشمل إلى جانب الأعتدة العسكرية جبالاً

من الصناديق التي تحتوي على سلع مختلفة تشمل ١٦٨,٠٠٠ جهازاً واقياً من الأسلحة الكيماوية و١٥٠,٠٠٠ قارورة من السوائل الواقية من حرارة الشمس. ولم يكن في الجيش من يعلم أن هذا الجهد الهائل سينتهي بوجود ٢٥٠,٠٠٠ جندي في صحارى السعودية إلا باول وشوارزكوف وأقرب الزملاء إليهما. ولم يحدث منذ حرب فيتنام أن نشرت الولايات المتحدة مثل هذه القوات أو قدمت مثل هذا العرض للقدرات العسكرية.

***

وبينما كانت القوات الأميركية تغادر البلاد إلى السعودية كان بوش يقوم كل صباح يلعب جولة غولف في الملعب المجاور لمقره في بكنبنكنبورت. وكان يوقف اللعب من وقت لآخر ليتحدث بالتلفون مع زملائه في واشنطن أو مع زعيم في جهة من العالم. وكان أحد مساعديه يقف دائماً إلى جانبه يحمل التلفون المتحرك الذي يمكنه من الاتصال بأي بقعة في العالم.

ومنذ اندلاع الأزمة كان بوش قد أخذ ينفض عن نفسه صفة التردد التي وُصم بها. وبدا الآن كشريف حازم يأمر الإسرائيليين بالهدوء والتكتم، ويطلب من اليابانيين أن يلتزموا بالقيام بأكثر من الاسهام المالي، ويوضح للصينيين والسوفييت أن الفرصة سانحة لكي يصبحوا جزءاً من المجتمع الدولي، ويظفر بتأييد حلفائه الأوروبيين وغالبية الأقطار العربية.

كانت شخصية بوش أكثر تعقيداً مما بدت عليه في بداية الأمر. فبالاضافة إلى أنه من الأسر العريقة على الساحل الشرقي ومن محبي الموسيقى الكلاسيكية، ومن المهذبين في تصرفاتهم، كان عصامياً وجمع ثروته من العمل بنفط تكساس. لقد كان من «وحوش المال» لا يرحم في التعامل ومن المتيمين بالموسيقى الفولكلورية.

ويجد المرء في «دبلوماسيته التلفونية» ومحادثاته التي لا تنتهي مع زعماء العالم أمثلة أخرى على هذه الثنائية [في شخصيته]. إذ كان من ناحية ينتقد الملك حسين بشدة بسبب موقفه الغامض وتأييده الـمُقَنّع لبغداد. وقام الملك المعجب بصراحة بوش بتذكيره بأنه كان دائماً حليفاً مخلصاً للولايات المتحدة. وعرض عليه القدوم إلى الولايات المتحدة للاجتماع به في غضون أيام بعد أن يكون قد ذهب إلى بغداد للاجتماع بصدام.

وكان الملك يأمل أن يقدم صدام بعض التنازلات. فكان جواب بوش القاطع «إني أشك في ذلك».

ومن ناحية أخرى نجد أن بوش ظل ساهراً حتى الثانية والنصف بعد منتصف الليل ليتحدث إلى ميتران الذي كان بباريس. فقد خشي بوش أن يوقظه لأن الساعة بباريس كانت عندئذ تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً.

***

خلال لعبة الانتظار التي كانت تجري في الصحراء أُجريت دراسة مفصلة لجوانب القوة والضعف في الجيش العراقي. وكان في نظر الخبراء الأميركيين كجيش حلف وارسو تقريباً، لأن غالبية أعتدته كانت سوفييتية، ولأنه دُرّب على غرار الجيش الأحمر. وكان يشن هجماته بدبابات سوفييتية من طراز ت ـ ٧٢ و ت٦٢، ويمهّد لها بنيران المدافع من عيار ١٢٢ ملم و١٥٢ملم. أما دفاعه الجوي فكانت تقوم به بطاريات محمولة لصواريخ سام وأجهزة رادار مضادة للطيران من طراز Z SU 23. ولم يكن هناك وجود يذكر للأسطول. وكان عدد من الدبابات العراقية من طراز قديم. ولم تكن قوته الجوية مجهزة في الغالب بالتقنية التي تمكنها من القتال بفعالية.

غير أن الحرب البرية التي تستهدف في الأساس استرجاع الكويت كانت تنطوي على المجازفة بأرواح الكثيرين. وقام البنتاغون ورؤساء الأركان بناء على طلب بوش بوضع تقدير للخسائر المحتملة. وذهبت هذه التقديرات التي لم تكن قد قُدمت بعد إليه إلى أن عدد القتلى سيتراوح بين عشرين وثلاثين ألف قتيل، وإلى أن عشرة آلاف منهم سوف يسقطون في الأيام الأولى للقتال ـ وهو ثمن بشري وسياسي ضخم.

وكانت الإدارة الأميركية تأمل أن يحمل حجم القوات وفعالية الحصار صدام حسين على تغيير لهجته. ذلك أن العراق لم يعد قادراً على تصدير نفطه الذي يشكل المصدر الوحيد لدخله وعلى استيراد شيء بما في ذلك الخبز.

ولتقدير أثر العقوبات قامت وكالة المخابرات المركزية ووكالات المخابرات الأخرى بتنسيق عمليات جمع المعلومات. وكان العنصر الأول هو الصور الفوتوغرافية التي تلتقطها الأقمار الصناعية والتي تظهر بدقة جميع الحركات المدنية والعسكرية وتطورات الوضع في الميدان. وكانت مسؤولية هذا تقع على عاتق وكالة الأمن القومية. وكانت

لهذه الوكالة أيضاً محطات تنصت سرية جداً في تركيا تستطيع أن تلتقط غالبية المكالمات التلفونية التي تجري في العراق وأن تنقل تفاصيلها على الفور إلى الولايات المتحدة حيث يقوم المترجمون واللغويون بتقييمها استناداً إلى الكلمات المستخدمة، ونبرة الصوت، ومعنويات السكان، والتذمر المحتمل، وأولى علائم الضائقة الاقتصادية. وتم وضع برنامج كمبيوتر في مقر وكالة المخابرات المركزية بلانجلي لتغذيته بجميع المعطيات المتوافرة حتى أشياء مثل زيادة أجور التاكسي التي قد تكشف عن ارتفاع في تكاليف العيش وأسعار الوقود وربما صعوبة الحصول على قطع غيار.

***

وفي الوقت ذاته بدأ تنفيذ عمليات «حرب العصابات النفسانية» التي جرى تنسيقها في إطار لجنة من وكلاء الدوائر تضم وكلاء الدوائر الرئيسية مثل روبرت غيتس نائب مدير مجلس الأمن القومي، الذي سبق له ان كان الرجل الثاني في وكالة المخابرات المركزية. وكان أحد الأهداف التصدي للدعاية العراقية. وقال أحد المشاركين في هذا النشاط: «كلنا نذكر فيتنام حيث خسرنا الحرب سياسياً.»

وفي تلك الأثناء كان صوت أميركا يذيع للعراق أربعا وعشرين ساعة في اليوم بالرغم من اعتراض عقبة واحدة وهي عدم وجود مذيعين باللهجة العراقية. وكان اختصاصيون من الفريق الرابع للعمليات النفسانية المتمركز في «فورت براغ» بكارولينا الشمالية يتأهبون لمغادرة البلاد إلى السعودية للقيام بتخريب إعلامي يحطم معنويات القوات العراقية المحتشدة على الجانب الآخر من الحدود مثل حملها على الاعتقاد بأن آبار الماء في الصحراء مسمومة.

وجرت ممارسة ضغط نفساني قوي على العراق للتأكيد على تصميم الأميركيين. وكانت تعرض صور الجنود وهم يتدربون على تفتيش البيوت بيتاً بيتاً وذلك تمهيداً لاستعادتهم مدينة الكويت.

وكان فريق روبرت غيتس قد أعد قائمة سرية جداً فيها «كل ما يجب وما لا يجب عمله» وموجهة لجميع المسؤولين المدنيين والعسكريين المشاركين مباشرة بالأزمة. وكانت تشتمل على منهج للسلوك، فتصف مثلاً البيانات العامة التي ينبغي إصدارها وتلك التي ينبغي تجنبها.

واقترف الجنرال دوغان رئيس القوة الجوية خطأ فاحشاً. ففي إحدى المقابلات صرح للصحفيين بأن هناك خطة لقصف بغداد، وأن إسرائيل سوف تساعد القوة الجوية على اختيار أهدافها. فطرده بوش على الفور، وذلك لأن تصريحه سبب الكثير من الإحراج. إذ كان قد تجاهل أحد بنود «ما يجب وما لا يجب عمله» الذي يقضي بعدم ذكر أي شكل من أشكال التعاون مع إسرائيل.

***

في القدس ساور القلق الإسرائيليين. إذ كانوا قد تلقوا معلومات من دوائر الاستخبارات مفادها أنه سيقع هجوم جوي على المفاعل النووي في ديمونا بصحراء النقب. وأُخذ التهديد على محمل الجد، ونقلت صواريخ هوك من الحدود الأردنية إلى المفاعل النووي لتقوية الدفاع القائم. وجرى بحث احتمال الجلاء عن البلدة القريبة.

وفي ١٢ أغسطس اقترح صدام في خطاب بثه الراديو والتلفزيون تسوية شاملة للشرق الأوسط، جاء فيها أنه لا يمكن بحث الانسحاب من الكويت بدون مناقشة الوجود السوري في لبنان، والوجود الإسرائيلي في الأراضي المحتلة. ودعا في الواقع إلى «الانسحاب الفوري غير المشروط للقوات الإسرائيلية.» ورد بوش على ذلك فوراً بالدعوة إلى «الانسحاب الفوري غير المشروط للقوات التي تحتل الكويت.»

على أن الرد الأميركي لم يُطمئن شامير رئيس وزراء إسرائيل كثيراً. فقد كان يرى أن صدام «يحاول إضعاف التحالف ضده». وفي الضفة الغربية وغزة رحب الفلسطينيون بحماسة بتصريح الزعيم العراقي. وخصصت الوزارة الإسرائيلية أكثر اجتماعها الأسبوعي يوم الأحد لبحث أزمة الخليج. وتحدث فيه مطولاً كل من موشي أرينز وزير الدفاع، ودان شاميرون رئيس الأركان، وأمون شاهاك رئيس المخابرات العسكرية.

***

وصل الملك حسين إلى بغداد يوم الاثنين الموافق في الثالث عشر من أغسطس. وكان من المقرر أن يغادرها بعد يومين إلى واشنطن على أمل أن يجتمع ببوش ومعه رسالة من صدام أو مشروع خطة للسلام. والظاهر أنه كان لا يزال يعتقد بالحل ولو أن ذلك كان مخالفاً لكل منطق. فالولايات المتحدة وغالبية الدول الأعضاء في الجامعة العربية ـ وذلك منذ قمة القاهرة ـ كانت تقف ضد الفكرة. وكانت بلاده قد أخذت تغرق في

المصاعب الاقتصادية، وفقدت الرياض وواشنطن ثقتهما به. وأقدمت عدة أقطار عربية على طرد الأردنيين المقيمين فيها. وعلم الملك أن السعودية ـ الشريك التجاري الأكبر والثالث للأردن ـ على وشك أن توقف شراء البضائع الاردنية.

واعترف الملك حسين بأن كل يوم يمر يقرب بلاده من الحرب، وأن الذين يدّعون ان الحل العربي سقط نهائياً ينسون انه ظل ممكناً خلال الأسبوع الأول من الأزمة وإلى أن وقف الأميركيون في وجهه.

وكان الملك يدرك أيضاً أن عليه مواجهة عداء الشيوخ والنواب في الكونجرس الأميركي؛ فأعد رسالة يشرح فيها موقفه، وبعث بنسخة منها لكل منهم.

وعندما خرج من اجتماعه بصدام حسين كان متجهماً ولم يفُه بكلمة واحدة. وكشف الأمير حسن أخوه عن أن الاجتماع كان فاشلاً.

***

وفي الرابع عشر من أغسطس قطع جورج بوش عطلته لوقت قصير عاد فيه إلى واشنطن. وكان قد تم انتشار ستين ألف جندي وبحار وطيار في السعودية بالإضافة إلى خمسين ألف آخرين كان من المتوقع وصولهم إليها في الأيام القليلة القادمة. وقدر البنتاغون تكاليف عملية درع الصحراء بعشرة ملايين دولار في اليوم.

وفي صباح الخامس عشر من أغسطس التقى بوش بزعماء الكونجرس. وكان القانون يخوله سلطة دعوة ١٢٠,٠٠٠ من جنود الاحتياط لمدة ١٨٠ يوماً. دون حاجة إلى موافقة الكونجرس. لقد كان يحاول الحفاظ على إجماع في الداخل شبيه بالاجماع الذي حققه على الصعيد الدولي. لكن كما قال بعض مستشاريه «كان الحصول على موافقة الأمم المتحدة أسهل من الحصول على موافقة الكونجرس». وقال أحدهم: «لقد وعدناهم فعلاً باستشارتهم في حال اللجوء إلى الحرب. وبمعنى آخر أننا كنا سنتصل بهم بالتلفون بعد إسقاط الدفعة الأولى من القنابل».

***

في ذلك اليوم جرى الاعلان عن مبادرة صدام حسين. ففي كتاب منه إلى الرئيس رفسنجاني عرض السلام على البلاد التي كانت حتى ذلك الوقت عدوه اللدود. وصرح

أنه سيتخلى عن مطالبه في منطقة الحدود وأعلن انه ابتداء من ١٧ أغسطس سيجري سحب القوات العراقية المرابطة هناك وارسالها إلى الكويت وحدود السعودية. وأخيراً وافق صدام على إطلاق سراح ١٩٠٠٠ أسير إيراني.

وهكذا فإن الزعيم العراقي محا بسطور قليلة ذكرى مئات الآلاف من القتلى العراقيين وذكرى أشد صراع دموي منذ الحرب العالمية الثانية. فبرهن بذلك على مهارته كرجل مناور.

وكان من السهل تفسير الانسحاب العراقي من شط العرب. فبفضل ضم الكويت صار للعراق منفذ واسع على الخليج.

والواقع أن كلمة «ضم» ليست الأنسب. فما حدث هو دمج للكويت في العراق الكبير. وقد تساءلت أجهزة الاستخبارات الغربية كثيراً عن الهوية الصحيحة للكولونيل علي الذي قيل بأنه زعيم جماعة من «الثوار الشبان» الذين استولوا مؤقتاً على السلطة في مدينة الكويت. فتبين أنه لا وجود للكولونيل علي في الجيش الكويتي. وكشف المزيد من التحري أنه ابن عم صدام حسين واسمه علي حسن الماجد.

وبالإضافة إلى الأربعمائة وثلاثين ألف جندي الذين انتشروا في المنطقة ومعهم ٧٥٠٠ عربة مصفحة تم ارسال سبعة آلاف بوليس سري إلى مدينة الكويت. وكان هدفهم سحق حركات المقاومة الناشئة. وقسمت العاصمة إلى مناطق تخللتها نقاط تفتيش كثيرة. وجرى تفتيش البيوت وكان نصيب كل من وجدت معه منشورات أو صحف صادرة عن المقاومة الإعدام الفوري. وجرى التدقيق في سجلات البنوك لمعرفة المسؤولين والموظفين الذين كانوا يتلقون شيكات من دوائر حكومية. وحولت المدارس ومراكز البوليس إلى مراكز للاستجواب والتحقيق.

وأعيد رسم الخرائط العراقية التي أصبحت الكويت تشكل فيها المحافظة التاسعة عشرة. وأطلق على مدينة الكويت اسم كاظمة. ووضعت على السيارات لوحات عراقية. وعلقت صور صدام ونُصبت تماثيله في الشوارع والميادين. وعليه وكما قال زميل للزعيم العراقي: «ضاعت الكويت في خضم التاريخ واختفت من الجغرافيا».

وكان العراقيون قد استولوا على ثروات الكويت. وبينما ظفرت قوات الاحتلال

بشيء منها فإن الزعماء نهبوا على نطاق واسع. فخسر تاجر سيارات واحد ١٤,٠٠٠ سيارة شيفروليه وأولدزموبيل جديدة في غضون بضع ساعات، وأرسلت جميعاً إلى بغداد. وصار زملاء عدد من الوزراء يترددون على الإمارة السابقة لا لغرض سوى تكديس السلع الكمالية.

غير أن الزعيم العراقي لم يستطع وضع يده على ودائع الكويتيين الهائلة لأنها جُمدت في الساعات الأولى التي أعقبت الغزو. لكن استطاعت قوافل عراقية خاصة نقل ما يوازي ثلاثة بلايين دولار من العملات الأجنبية وبليون دولار من الذهب الذي سرق من البنك المركزي والعديد من المؤسسات المالية في البلاد.

وفي ١٦ أغسطس هدد صدام حسين باحتجاز الأميركيين والبريطانيين المقيمين في الكويت، وأمرهم بالتجمع في أحد الفنادق. وهدد أيضاً بإعادة الأميركيين «في النعوش».

***

في ذلك الصباح وصل الملك حسين إلى كينبنكبورت للاجتماع ببوش. وبدا أن صداقته مع الرئيس الأميركي آخذة في التدهور وذلك لأن صورته كحليف لصدام حسين كانت آخذة في الانتشار. وأشارت الصحافة إلى أنه يحمل معه رسالة من الرئيس العراقي. لكن هذا لم يكن صحيحاً. فأحد الأشياء التي كان يريد أن يقوم بها هو إطلاع بوش على المحاولات الضخمة التي قام بها خلال الأيام القليلة الأولى لحل الأزمة. وأوضح للرئيس أن الزعيم العراقي كان على استعداد للانسحاب من الكويت ولكنه أصبح بعد ذلك أكثر تصلباً بسبب انتشار القوات الأميركية وغيرها على الأراضي السعودية. فقال بوش: «نحن هناك لحماية السعودية من العدوان لا أكثر. وسننسحب عندما يطلبون ذلك». وبالرغم من أنهما لم يتوصلا إلى اتفاق فإن الملك ترك الاجتماع متفائلاً بعض الشيء لأن بوش كان في موقف دفاعي فقط ولأن الحل الدبلوماسي كان لا يزال ممكناً.

***

وفي اليوم التالي أعلنت الحكومة العراقية أن الغربيين الذين تسيطر عليهم سوف

ينقلون إلى مواقع استراتيجية مدنية وعسكرية وأنهم سيبقون هناك ما دام التهديد قائماً. فطلب مجلس الأمن من السكرتير العام بيريز دي كويار أن يعمل على إطلاق سراح جميع الأجانب. وفي تلك الأثناء كانت ثلاثون فرقة عراقية تغادر الحدود الايرانية لتنضم إلى القوات العراقية في الكويت البالغ عددها ١٥٠,٠٠٠ جندي.

وفي ١٧ أغسطس غادر جيمس بيكر واشنطن لقضاء عطلة لمدة بضعة أيام في مزرعته بويومينغ. وكان لا يزال على اتصال بادوارد شيفارنادزه بموسكو. وبناء على اقتراح من بوش طلب بيكر من شيفارنادزه تأييد قرار يصدر عن هيئة الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة لفرض الحصار. وبذلك بدأت لعبة الخداع. فبينما كان السوفييت يجرجرون أقدامهم لأنهم لا يزالون يعتقدون بإمكان التوصل إلى حل بالتفاوض، كان الأميركيون في سباق مع الوقت.

وفي ٢٠ أغسطس وصل سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء إلى موسكو واستقبله المسؤولون السوفييت الذين طالبوه بانسحاب غير مشروط من الكويت وإخلاء سبيل جميع الأجانب. فعاد حمادي في اليوم التالي إلى بغداد. واتصل شيفارنادزه على الفور ببيكر وقال: «انتظروا ٤٨ ساعة قبل أن تطرحوا قراراً في الأمم المتحدة للتصويت عليه. فقد ينجح نائب رئيس الوزراء بإقناع صدام حسين.» فسأله بيكر:

«وهل إذا فشل ستقفون إلى جانبنا في غضون يومين؟» فأجابه نظيره السوفييتي:

«سأعلمك بذلك بأقرب وقت ممكن».

وبعد ظهر اليوم التالي اتصل شيفارنادزه ببيكر وقال بأنه يحتاج إلى المزيد من الوقت. فلما سأله بيكر كم من الوقت يحتاج قال: «خمسةأيام ـ إلى ٢٧ أغسطس. فصمت بيكر برهة وقال: «يبدو هذا طويلا جدا. عليّ أن ابحث الأمر مع الرئيس».

واتصل بيكر ببوش. وكان هذا قد عاد من بيته في ماين وسافر إلى بلطيمور لإلقاء خطاب أمام جمعية المحاربين القدامى. وفي الخطاب وصف للمرة الأولى الأجانب المحتجزين في الكويت بأنهم «رهائن». وكانت هذه الكلمة قد اكتسبت منذ أزمة الرهائن في طهران عام ١٩٨٠ دلالات عاطفية وسياسية كبيرة في الولايات المتحدة. وبدا بوش متضايقا بسبب مماطلة السوفييت وطلب من بيكر الحصول على مهلة أقصر.

وعاود بيكر الاتصال بموسكو وقال لشيفارنادزه: «من الصعب علينا قبول طلبكم. فنحن نتعرض لضغط كبير وخصوصا من البنتاغون الذي يطلب السماح باستخدام القوة لفرض الحصار بدون انتظار دعم الأمم المتحدة.

فتنهد شيفارنادزه وقال: «أعرف [ذلك]. فلدينا المشكلة ذاتها مع قواتنا المسلحة التي يعتقد افرادها اننا نقترف خطأ بدعمكم. ويقولون إن لكم هدفا واحداً وهو التواجد العسكري الدائم في الشرق الاوسط. لكن لنعد إلى مسألة الأمم المتحدة، فماذا تقترحون؟» أجاب بيكر: «أن يُتخذ القرار في ٢٤ أغسطس». فقال شيفارنادزه: «حسناً». وهنا قال بيكر: «ولكننا سنظفر بتأييدكم. أليس كذلك؟»

فجاء جواب شيفارنادزه غامضاً. ومع هذا ففي اليوم التالي ـ ٢٣ أغسطس ـ حضر القائم بالأعمال السوفييتي سيرجي شنفيركوف إلى وزارة الخارجية بواشنطن. وكانت حكومته قد كلفته أن يقوم كدلالة على حسن النية بتسليم الأميركيين النص الكامل لرسالة بعث بها غورباتشوف إلى صدام حسين وطلبَ منه فيها الانسحاب من الكويت وإخلاء سبيل جميع الأجانب وأضاف فيها قوله: «لقد أجلنا التصويت في مجلس الأمن قدر ما استطعنا. إننا نطلب منك الرد قبل مساء الجمعة الموافق في ٢٤ أغسطس على أبعد تقدير».

وحال وصول جواب العراقيين اتصل شيفارنادزه بنظيره الأميركي. فسأله بيكر: «ماذا يقولون؟» وبدا أن شيفارنادزه أصيب بالفزع لدى قراءته الجواب العراقي وقال: «إنه لا يستحق حتى الرد. وعلى أي حال فإنه لا يرضينا على الإطلاق. يمكنكم الذهاب إلى الأمم المتحدة وسوف نؤيدكم».

وبعد بضع دقائق صدرت الأوامر لتوماس بيكرنغ رئيس الوفد الأميركي في الأمم المتحدة لإبقاء الجلسة منعقدة حتى يجري اتخاذ القرار. وفي الساعة الرابعة من صباح السبت الموافق في ٢٥ أغسطس صدر القرار ٦٦٥ الذي يسمح باستخدام القوة في تنفيذ الحصار بثلاثة عشر صوتاً مقابل لا شيء. وامتنعت كوبا واليمن عن التصويت.

***

وفي ٢٧ أغسطس غادر جيسي جاكسون مطار كندي بنيويورك على متن طائرة

تابعة للخطوط الأردنية. وكان هذا المرشح السابق للرئاسة قد ابتدع أسلوبا سيظل حديث الناس طيلة أشهر: إذ قام برحلة إلى بغداد، واجتمع مع صدام، واستمع إلى مظالمه، ثم عاد بعدد من الرهائن. وكان أول من فعل ذلك المستشار النمساوي كورت فالدهايم الذي انتهز الفرصة السارة لرفع الحجر الدولي المفروض عليه بسبب ماضيه الذي يثير الجدل.

واكتسبت رحلة جاكسون المزيد من الأهمية لأنه كان شخصية مرموقة في الولايات المتحدة ولأنه صار ينظر إلى الأزمة على أنها مبارزة بين بوش وصدام حسين. ثم إن جاكسون طار إلى بغداد وبرفقته فريق تلفزيوني؛ وكان هدفه إجراء مقابلة مع صدام حسين. على أن المنحى الذي اتخذته رحلته كشف عن الطريقة التي كانت بغداد ستستغل فيها مثل هذه الزيارة.

كان في العراق والكويت ثلاثة ملايين من الأجانب أكثرهم من المصريين (٥, ١ مليون في العراق و ١٥٠,٠٠٠ في الكويت) ويليهم الفلسطينيون (٣٠٠,٠٠٠ في العراق و ١٧٠,٠٠٠ في الكويت) ويلي هؤلاء الهنود والفليبينيون ـ لكن عمال العالم الثالث هؤلاء كانوا في سوق المساومات أقل أهمية بكثير من الأميركيين (٢٥٠٠ في الكويت و ٥٠٠ في العراق) ومن البريطانيين (٤٠٠٠ في العراق و ٥٠٠ في الكويت) ومن الجنسيات الأوروبية الأخرى.

وبعد وصول جاكسون ووفده بوقت قصير اجتمع طارق عزيز معهم لمدة ثلاث ساعات ونصف شرح لهم خلالها بعناية موقف بلاده والخلفية التاريخية للأزمة. وذهب حتى إلى حد القول: «لقد أظهر الرئيس صدام حسين عدة مرات خلال المفاوضات أنه كان أكثر صبرا واعتدالا مني... فبعد قمة جدة [في ٣١ يوليو عشية الغزو] دفعنا عناد الكويت إلى حافة اليأس. إذ لم نكن نستطيع أن ندفع ثمن ما نستورده من الغذاء. كانت هناك حملة حقيقية تستهدف تجويعنا. وحتى الملك فهد لم يقلقه أن يسمع بجوعنا. فاستنتجنا أن هناك مؤامرة تستهدف تدمير العراق. ولم يكن بإمكان الكويت أن تحيك المؤامرة بدون دعم من دولة عظمى. وتبين لنا أن هدف المؤامرة هو التسبب في انهيار اقتصادي يتبعه انهيار سياسي وتغيير النظام».

وعندما انهى طارق عزيز شرحه سأله صحفي من مرافقي جاكسون: «كيف تأمل

العراق في التعاطف معها بينما لا يزال الأميركيون يذكرون كيف رأوا المدنيين الأكراد يختنقون بالغاز عام ١٩٨٨ وكيف شنق صحفي بريطاني خلال هذا العام؟».

وفوجىء طارق عزيز بذلك. فصمت لحظة ثم قال بصوت منخفض: «أعترف أنها مشكلة».

في ذلك المساء ظفر جاكسون بمقابلة خاصة مع صدام حسين. وخلال الحديث تناولا استشهاد المسيح. فاعتبر صدام نفسه كالمسيح ضحية للتحامل والاتهامات الباطلة ـ واعترف بأنه هو الذي امر باحتجاز الأجانب لكنه اعتبر ذلك «ضمانة للسلام» وقال بأن « الحصارالحالي لمنع الطعام والدواء أسوأ من أخذ رهائن». وكان من الواضح أن الزعيم العراقي كان يشعر بمرارة نحو الولايات المتحدة. شعر بالإهانة بسبب عدم استجابتها لعروضه.

قال صدام لجاكسون بشيء من التواضع: «بعد اجتماعي مع سفيرتكم في ٢٥ يوليو لم تقم السلطات الأميركية حتى بطلب نسخة رسمية عن وقائع الاجتماع. ان بلادكم تعاملني بعجرفة كما تعامل الدول الاستعمارية مستعمراتها».

وفي اليوم التالي تمكن جاكسون بعد زيارة قصيرة للكويت من مقابلة صدام مرة أخرى. ولأسباب أمنية طلب المحيطون بصدام أن يقوم بالتصوير مصورو التلفزيون العراقي وبأجهزته. وفي نهاية المقابلة سأله جاكسون إن كان مستعداً للقيام ببادرة حسن نية «تخدم أغراض السلام» فيطلق على الفور سراح الرهائن. فرد عليه صدام بغضب قائلا:

«لقد شرحت موقفي بالنسبة لذلك الموضوع بوضوح في مقابلات كثيرة مع الصحفيين. وليس عندي ما أضيفه». ثم هب واقفا ولكن بلحظة واحدة تغير موقفه وتغيرت ملامحه، فتلاشى الغضب وحلت محله ابتسامة عريضة ومصافحة حارة مع جاكسون وذلك من أجل التصوير. واعلن برصانة ليسمع الحاضرون: «كانت هذه امسية جميلة وتبادل إنساني عميق للآراء. وتكريما لمشاهدينا الأميركيين يمكنكم ان تصطحبوا معكم النساء والأطفال الذين سأسمح لهم بمغادرة البلاد وكذلك المرضى الأربعة. ويمكنك السفر إلى الولايات المتحدة على طائرة عراقية».

***

وبينما كان جاكسون يستعد لمغادرة بغداد عاد ديفد إفري المدير العام لوزارة الدفاع الإسرائيلي إلى تل ابيب. وكان قد أرسل على عجل إلى واشنطن لإجراء محادثات سرية مع كبار المسؤولين في البنتاغون. اذ كان القلق يساور الحكومة الإسرائيلية حول الخطط الأميركية لبيع أسلحة للسعودية وخصوصا ٢٤ طائرة ف ـ ١٥ سي إس (F15 CS) و ١٥٠ دبابة و ٢٠٠ صاروخ ستينغر مضاد للدبابات. وقدر الإسرائيليون هذه الصفقة ب ٢,٥ بليون دولار. وحمل إفري معه طلبا للسماح لإسرائيل بالحصول فورا على كمية اكبر من الاعتدة العسكرية وخصوصا طائرات ف ـ ١٦ س وصواريخ أب شي وتاو، وبالحصول كذلك على مجمل المساعدات المقررة لإسرائيل بقيمة ١,٨ بليون دولار في بداية السنة المالية وبدفعة واحدة [لا بالتقسيط]. وعاد إفري ومعه وعد بأن تقوم الولايات المتحدة ببيع ما قيمته بليون دولار من الأسلحة المتطورة لإسرائيل.

وفي اليوم نفسه تلقت الحكومة الإسرائيلية رسالة من غورباتشوف نقلها رولان دوما وزير الخارجية الفرنسية الذي كان قد اجتمع معه. وعبرت موسكو في الرسالة عن تخوفها من أن تقوم بغداد بهجوم على إسرائيل.

***

لم تكن أزمة الخليج في نظر غورباتشوف فرصة رائعة لاظهار اعتداله وشعوره بالمسؤولية للعالم وذلك بالعمل جنباً الى جنب مع واشنطن فحسب، وانما كانت أيضاً صداعاً في الرأس وربما شركاً منصوباً. كان عليه أن يصمد لهجمات عدد من مراكز القوى صاحبة النفوذ وخصوصاً داخل الجيش، وبعض أقسام المخابرات (كي جي بي) وفي وزارة الخارجية التي كان لا يزال لها علاقات وثيقة ببغداد. كانوا جميعاً «يشعرون بالقلق بسبب تواطئه مع الاستراتيجية الأميركية». وفي الثالث من أغسطس كرر التأكيد على اعتقاده بأن ما أقدمت عليه الولايات المتحدة «يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة». ورد المعترضون عليه بالإشارة إلى أن واشنطن كانت تقوم بانشاء نظام أمني جماعي في الخليج من شأنه أن يؤدي إلى تواجد عسكري أميركي دائم في المنطقة. وكان من المحتمل أن يضعه هذا الاعتراض في موقف صعب.

ومما أغضب غورباتشوف أيضاً أن الكرملين لم يكن يعلم شيئاً عن خطط العراق. ويوم الغزو استدعى إلى مكتبه وزير الدفاع المارشال ديمتري بازوف الذي كان من

المحافظين المتشددين. ولكن حديثهما لم يكن ودياً.

وأظهرت التحريات أن المخابرات العسكرية السوفيتية أُبلغت باستعداد العراق للغزو قبل وقوعه بأسبوعين. وكان لهذه المخابرات، من تتصل بهم داخل العراق مثل الخبراء العسكريين والمسؤولين ذوي الصلة الوثيقة بالزعيم العراقي. وبرر زعماء المخابرات صمتهم بأنهم ظنوا أن المعلومات التي حصلوا عليها مبالغ فيها. هذابالإضافة إلى أنه كان بيد العراقيين ما يساومون عليه: كان لديهم عدد محاط بالسرية من العسكريين السوفييت الذين كانوا لا يزالون ببغداد. فأوضحت هذه لموسكو أنه قد تتعثر عودتهم إذا أفشت «الأسرار العسكرية» للولايات المتحدة.

واشتبه أشد المتشككين من المحللين الغربيين في أن غورباتشوف كان يمارس لعبة مزدوجة. فبدا أنه من ناحية يلعب بالورقة الدبلوماسية فيشارك المجتمع الدولي غضبه؛ ومن ناحية أخرى يواصل سراً تقديم المساعدات العسكرية للنظام العراقي حليفه منذ عشرين عاماً. ومهما تكن الحقيقة فإنه بات واضحاً أن هذه الشكوك تضعف مصداقيته.

وفي صباح الخامس من أيلول ظهر في برنامج «فرميا» على شاشة التلفزيون وقدم وصفاً كاملاً عن وقائع ذلك اليوم والزائرين الذين استقبلهم. ولم يذكر اجتماعه مع طارق عزيز الذي كان قد قام برحلة قصيرة إلى موسكو قابل خلالها غورباتشوف بناء على طلبه. وعندما خرج عزيز من المقابلة التي وصفت بأنها «صريحة» ـ أي «صعبة» حسب اللغة السوفيتية الرسمية الدارجة ـ صرح وهو يبتسم: «أقول بلا تردد إن الاتحاد السوفييتي لا يزال صديقاً». وربما قصد بالصراحة الظاهرة لعبارته هذه إحراج خروتشوف قبل اجتماع القمة مع بوش في هلسنكي بثلاثة أيام. وكان ادوارد شيفارنادزه قد صرح في اليوم السابق أن المجتمع الدولي لا يمكن ان يقبل الدول المعتدية والانظمة التي تمارس القرصنة.

***

لم يكن الاتحاد السوفييتي البلد الوحيد الذي يُشتبه في أنه يقوم بلعبة مزدوجة. ففي الأسابيع التالية سوف تتساءل عدة مراجع رسمية عن الموقف الفرنسي الحقيقي. إذ كان هناك من يصفه بأنه «موضع شك» أو «غامض». فهل فاوضت فرنسا العراق لإطلاق

سراح الرهائن؟ فقد كان لفرنسا مبعوثون في تونس وعمان لهم علاقات مُمَيّزة مع الزعماء العرب ودوائر الاستخبارات. ويحتمل أن كان هؤلاء على اتصال مباشر بالمسؤولين العراقيين. وكان الاسمان اللذان يتردد ذكرهما كلود تشيسون وفيليب روندو المختص بالشؤون العربية في المخابرات الفرنسية. وسبق لوالد روندو أن ساعد قبل سنوات كثيرة على إنشاء مخابرات مماثلة في سوريا. ترى ما هو الثمن الذي دفعته فرنسا؟ من المؤكد أنه تجاوز مجرد الانسحاب الرمزي لخمسة آلاف جندي فرنسي في السعودية مسافة ثلاثين ميلاً أو التخلي عن السفارة الفرنسية في الكويت بحجة نقص المياه.

لكن بقي لغز آخر أكثر أهمية وهو ما إذا كان لا يزال هناك مواطنون فرنسيون في العراق. إذ قيل ان التقنيين المدنيين وربما أيضاً العسكريين الذين كانوا يقومون ببغداد قبل الغزو بصيانة الأعتدة العسكرية الفرنسية كانوا لا يزالون يعملون بعد تحرير الرهائن، الأمر الذي كان انتهاكاً لقرارات الأمم المتحدة.

وفي الثامن من سبتمبر، وقبل وصول الرئيس الأميركي ونظيره السوفييتي إلى العاصمة الفنلندية ببضع ساعات، وجه صدام حسين بالتلفزيون تحذيراً من التدخل الأجنبي في العالم العربي وقال إنه ينبغي على الاتحاد السوفييتي أن يحافظ على مكانته كدولة عُظمى في العالم العربي. وكان قوله هذا ينطوي على عداء ودهاء ويشير ضمناً إلى أن موسكو بتأييدها الموقف الأميركي تخسر نفوذها بالتدريج وتحول دورها إلى دور ثانوي.

وفي التاسع من سبتمبر توصل بوش وغورباتشوف إلى اتفاق. وبعد أن نجح غورباتشوف في إقناع الرئيس الأميركي بأنه لن يقدم دعماً عسكرياً للعراق حصل على الضوء الأخضر للإبقاء على صلاته مع العراق. وعهد إلى واحد من أقرب زملائه وهو يفجيني بريماكوف بمتابعة المسألة. وفي مقابل ذلك خول غورباتشوف بوش مواصلة الاستعدادات العسكرية. وأصدرا بياناً مشتركاً أكدا فيه على الرغبة في التوصل إلى حل سلمي للأزمة. وجاء فيه أيضاً أنه «إذا فشلت جميع الخطوات الحالية، فاننا مستعدون للنظر في اتخاذ إجراءات أخرى طبقاً لميثاق الأمم المتحدة».

***

كان العامل الخفي لا يزال صدى تصميم صدام حسين ـ لكن هناك ما يشير

بعض الشيء إلى حقيقته في المحادثات السرية بينه وبين زعيمي منظمة التحرير ـ عرفات وأبو إياد ـ في آخر أغسطس.

وجده الزعيمان الفلسطينيان « في منتهى الاسترخاء». قال لهما بهدوء: «الآن وقد اتخذت أزمة الخليج مثل تلك الأبعاد فهل يمكنني أن أقصرها على المطالبة بجزيرتين وبضعة آبار من النفط خصوصاً بعد أن أنسحبت من شط العرب؟ ذلك لا يكفي. إذا قلت للشعب العراقي بأنني انسحب لانني توصلت إلى تسوية قضية في اهمية القضية الفلسطينية فسوف يفهمون ذلك. لكن إذا فعلت ذلك من أجل بضع جزر وآبار بترول فإنهم لن يقبلوا بذلك. والواقع أنه أسوأ من خسارة الحرب. لم يسبق لي أن ذكرت أنني مستعد للانسحاب. لماذا؟ لأنني أعتقد أن الجنود العراقيين سيفقدون معنوياتهم إذا شعروا بأنني مقتنع [بضرورة] الانسحاب».

ثم أضاف صدام: « إذا تقدمت باقتراح للسلام فإنه ينبغي أن أكون الطرف الذي يقدم التنازلات. لكن إذا قدمه الآخرون فإنني سأحصل على تنازلات».

وناقش ثلاثتهم احتمال وقوع الحرب. وتناوله صدام باتزان وشجاعة. قال: «إنني على يقين من أ ن الأميركيين متفوقون من الناحية التكنولوجية وخصوصاً في الجو، ولكن أعتقد بأنهم لا يستطيعون تحييد سوى جزء من القوات العراقية، وأن المعركة الحاسمة ستجري على الأرض».

ووصف صدام بالتفصيل طبيعة ونطاق مختلف انواع الهجمات التي قد تُشنّ عليه. وبدا أنه يحسب حساب كل شيء: الخسائر المحتملة، وسبل الانتقام. وأشار عرفات إلى ذلك فيما بعد بقوله: «لقد أذهلني بهدوئه وأنا استمع إليه».

وأخبره عرفات بأنه هناك معلومات موثوق بها تشير إلى وجود مؤامرة تستهدف القضاء عليه. فانفجر صدام ضاحكاً وقال: «هل تحاول أن تخوفني لكي استسلم؟ ما هذه النكتة؟».

***

اجتمع مبعوث غورباتشوف الخاص بصدام عدة مرات. وفي إحداها ـ وكان ذلك في أكتوبر ـ بلغت دهشة بريماكوف وضيقه بتصلب الرئيس حداً تخلى معه عن اللغة

الدبلوماسية التي كان حتى تلك اللحظة يستخدمها وقال:

«سيدي الرئيس إذا أصررت [على موقفك] فإن الأميركيين سيشنون الحرب عليك ولن نتدخل لمنعهم». فقال صدام بلا مبالاة: «أعرف ذلك». فما كان من بريماكوف إلا أن قال: «لكنك ستخسر». فنظر إليه صدام طويلاً ثم قال بهدوء: «ربما».

الفصل التاسع
العد العكسي للحرب

عندما انتصف اكتوبر كان من الواضح أن الأزمة ستطول بعض الوقت، وأن حلها يزداد تعقيدا يوما بعد يوم، واصبح الشرق الأوسط مسرحا لأحداث مأساوية.

وركزت الصحف في صفحاتها الأولى كما ركزت الاذاعات والتلفزيونات على المشكلات الجديدة: مقتل واحد وعشرين فلسطينيا في القدس في ٨ أكتوبر، وقيام القوات السورية في ١٣ من الشهر ذاته بالاطاحة بالزعيم العسكري المسيحي ميشيل عون في لبنان.

وفي الثاني عشر من أغسطس ـ أي بعد غزو الكويت بعشرة ايام صرح صدام حسين بأنه لا يمكن حل الأزمة إلا في إطار النزاعات الأخرى في الشرق الأوسط: الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة وهضبة الجولان وجنوب لبنان. وردت حكومتا الولايات المتحدة وإسرائيل على ذلك بأنه «دعاية رخيصة.»

وبينما كانت الأزمة آخذة في الاشتداد أصدرت بعض الدول الغربية تصريحات تربط في الظاهر بين هذه القضايا الشرق أوسطية. فالرئيس الفرنسي ميتران أعلن في خطاب له في الأمم المتحدة في ٢٤ سبتمبر أن صدام حسين صرح بأنه سوف ينسحب من الكويت، وأن أبواب التفاوض مفتوحة. وقال دوغلاس هيرد وزير خارجية بريطانيا إن الأولوية ستكون للقضية الفلسطينية عندما يتم حل أزمة الخليج.

كانت الأحداث الدامية التي وقعت في القدس في الثامن من اكتوبر بمثابة هدية لصدام حسين. إذ ركزت أنظار العالم في القضية الفلسطينية، ووضعت إسرائيل في موقف بالغ الحساسية. فبادرت إسرائيل إلى القول بأن منظمة التحرير الفلسطينية أحكمت تدبير ذلك لإحراج إسرائيل، بل ذهب بعض الناطقين الاسرائيليين إلى حد القول بأنه ربما كان العراق وراء جهود المنظمة في هذا السبيل. على أنه كانت للفلسطينيين وجهة نظر أخرى. فاتهموا الإسرائيليين بالقيام بالمجزرة في محاولة لمنع المتطرفين الإسرائيليين من «جماعة المؤمنين في الهيكل» من الزحف على المسجد. فكانوا قد نادوا بضرورة هدمه وتحويله إلى كنيست. ومن الواضح أن البوليس الإسرائيلي منع

المتطرفين من الاقتراب من المسجد وأن الفلسطينيين أخذوا يقذفون الحجارة على آلاف المصلين اليهود أمام حائط المبكى. لكن كان من الواضح أيضاً أن الجنود الإسرائيليين أطلقوا النار على الفلسطينيين بعد فرار اليهود من الحجارة وابتعادهم عن الخطر.

وهاجمت بعض الجماعات الاسرائيلية حكومتها بسبب الطريقة التي عالجت بها المظاهرة. واتهمت جماعة «بتسيلم» المستقلة التي ترصد الأعمال الاسرائيلية في الأراضي المحتلة القوات الاسرائيلية بإطلاق النار دون تمييز على المتظاهرين والمتفرجين ورجال الاسعاف. وورد في تقرير للجماعة يشجب ما حدث ويقع في أربع وثلاثين صفحة قولها: «واستمر إطلاق النار حتى بعد أن أخذ المتظاهرون يتفرقون في كل اتجاه وبعد أن هرب كثرة منهم وحتى بعد أن وصلت سيارات الإسعاف والفرق الطبية».

خلق هذا الحدث مشكلة كبيرة للحكومة الأميركية التي كانت لها منذ سنوات طويلة علاقات وثيقة مع إسرائيل. فخلال مناقشات امتدت خمسة ايام في مجلس الأمن حاولت التوصل إلى صيغة قرار يحمل أقل ما يمكن من الادانة لإسرائيل. لكن بعد أن حصلت على دعم غالبية الحكومات العربية في أزمة الخليج، لم تعد في وضع يمكنها من استخدام حق الفيتو ضد القرار. وفي الأيام التي تلت أحداث القدس كان في مقدور المرء أن يلاحظ أن الهجوم في البلاد العربية على منظمة التحرير بسبب تأييدها لصدام حسين قد تحول مؤقتا إلى هجوم على اسرائيل. وبرز هذا بوضوح في مصر حيث كان مبارك قد أصبح مناصرا قويا لموقف الولايات المتحدة من صدام.

وعندما تبنت الأمم المتحدة أخيرا قرارها، لم يشتمل هذا القرار فقط على انتقاد إسرائيل بسبب الطريقة التي عالجت فيها (مظاهرات) الفلسطينيين، بل وعلى الطلب من الأمم المتحدة إرسال وفد إلى إسرائيل للتحقيق في الأحداث. فردت حكومة شامير على ذلك بغضب وهاجمت الولايات المتحدة بسبب موقفها، ورفضت رفضا قاطعا فكرة الوفد قائلة بأنه باستطاعة أفراده أن يزوروا إسرائيل كسائحين. وقارن جيمس بيكر بين رد الفعل الإسرائيلي تجاه قرار الأمم المتحدة برد فعل صدام حسين تجاه تلك الهيئة الدولية، مما زاد التوتر بين الولايات المتحدة وإسرائيل. وكانت الولايات المتحدة تحرص كل الحرص على أن تتحاشى حدوث ذلك. فمنذ بداية الأزمة نصحت الولايات المتحدة إسرائيل أن تعمد إلى الهدوء، لأنها لم تكن تعتبر أزمة الخليج مؤامرة أميركية

صهيونية. وكان هذا هو ما فهمه صدام حسين وما يفسر لماذا أعلن صدام في عدد من المناسبات أنه إذا قامت الولايات المتحدة والقوات العسكرية الأخرى في السعودية بمهاجمة العراق فإنه سيقوم على الفور بمهاجمة إسرائيل بالصواريخ. وكان يأمل من وراء هذا توريط إسرائيل في الحرب ودق اسفين في تأييد الدول العربية للهجوم على بلاده.

قامت إسرائيل بتشكيل لجنة تحقيق حول حمام الدم بالقدس برئاسة مدير الموساد السابق زفي زامير. وجرى الاستماع لأول شهادة في الجلسة المغلقة يوم الاحد في الرابع عشر من اكتوبر. وبعد مضي اثني عشر يوما أعلن تقرير زامير أن القوات الإسرائيلية بريئة من قتل الفلسطينيين البالغ عددهم واحداً وعشرين.

ويحتمل أن يكون الغضب على الولايات المتحدة هو الذي حفز الاسرائيليين إلى اتخاذ قرار آخر كفيل بإلحاق المزيد من الضرر بالعلاقات مع الولايات المتحدة. اذ اعلن وزير الإسكان عن وجود خطط لبناء مساكن في القدس الشرقية لليهود المهاجرين من الاتحاد السوفييتي. وكان الأميركيون قد قدموا قرضا مضمونا بأربعمئة مليون دولار لاسرائيل لايواء المهاجرين السوفييت لكن بشرط أن لا يخصص أي جزء منه لبناء مساكن في الأراضي المحتلة. وقال شارون إن القدس الشرقية ليست منطقة محتلة بل هي جزء من القدس عاصمة إسرائيل، وهو شيء رفضت قبوله كل دولة في العالم.

***

جرى أيضاً الربط بين القرار السوري باستخدام القوة للإطاحة بالجنرال عون بلبنان وبين أزمة الخليج. فبعد أن ظلت الولايات المتحدة سنوات تدين سوريا بوصفها دولة ارهابية، فإنها اصبحت حليفة لها في أزمة الخليج. وكان من دواعي سرور الرئيس الأسد الذي كان على الدوام يكن الكراهية لصدام أن ينضم إلى قوة عالمية تعتزم طرد صدام من الكويت، وربما من السلطة أيضاً. وكان جيمس بيكر قد عقد اجتماعا مع الرئيس الأسد تعرض لبعض النقد في الولايات المتحدة، وأثار بوجه خاص سخط أسر ضحايا الرحلة ١٠٣ لطائرة بان أميركان التي انفجرت فوق لوكيربي باسكتلندا. فلم يكن بوسعهم أن يصدقوا أنه من الممكن لمسؤول أميركي كبير أن يزور بلادا لعبت دورا في الهجوم الإرهابي.

لكن الرئيس الأسد كان قد أصبح عندئذ في وضع لا غبار عليه في نظر الولايات

المتحدة. اذ كان قد أرسل قوات سورية إلى السعودية والإمارات وأيد بقوة موقف الولايات المتحدة وهيئة الأمم من العراق. وكشف مصدر سوري عالي المستوى أنه أحاط بقواته القسم المسيحي الذي يسيطر عليه الجنرال عون في بيروت، تلقى الضوء الأخضر من البيت الأبيض للمضي قدما والإطاحة بعون.

وعندما وجد عون نفسه محاصرا بالقوات السورية ناشد الإسرائيليين أن يقوموا بمساعدته. وهذا ما اكده أوري لوبراني منسق العمليات الإسرائيلية في لبنان الذي أكد أن التحالف السوري الأميركي في الخليج سهل على السوريين استخدام القوة للإطاحة بعون. قال: «لا ريب عندي في أن صار لدى السوريين الحرية في استخدام القوة داخل لبنان طالما أنهم حلفاء للأميركيين».

وبعد معركة قصيرة ولكن دامية هرب الجنرال عون من القصر الرئاسي إلى السفارة الفرنسية. ولا يزال فيها. ومنذ ذلك الوقت رفضت الحكومة اللبنانية الجديدة برئاسة الهراوي طلبا تقدمت به الحكومة الفرنسية للسماح له بمغادرة لبنان إلى فرنسا. وتصر على محاكمته بتهمة الفساد.

لم يُثر التدخل السوري في بيروت الشرقية أي انتقاد رسمي في الولايات المتحدة أو في غيرها من الدول الكبرى. وبدلا من ذلك، جرى تصويره باعتباره محاولة كريمة لإعادة توحيد لبنان. وليس من شك في أن اعادة توحيد دولة انتهكت حرمتها أمر في غاية الأهمية، لكن من الصعب تفسير الاحتلال السوري للبنان خلال السنوات الكثيرة القادمة على انه مختلف.

لكن إذا كان نجاح سوريا في الحصول على الضوء الأخضر قد جاء نتيجة لانضمامها للتحالف فإنه كان لذلك بعض النتائج الايجابية. فالواقع أن الذي دفع سوريا إلى الانضمام للتحالف لم يكن مجرد علاقاتها السيئة مع العراق منذ وقت طويل. إذ كانت تشعر بالعزلة عن عدد من الدول العربية المهمة وخصوصا مع مصر والسعودية. إذ لم يكن لسوريا أية مشاركة في مجلس التعاون العربي الذي تشكل عام ١٩٨٩ ولا في مجلس التعاون الخليجي. ولكن بانضمامها الى التحالف ضد العراق كسرت الحواجز وأصبحت مشاركة لدول عربية مهمة. ثم ان السوريين أدركوا ما يجري في الكتلة الشرقية والاتحاد السوفييتي اللذان كانا يدعمان نظام الأسد. اذ كانا غارقين في

المشكلات الاقتصادية إلى حد أيقن معه السوريون بأن المساعدات الاقتصادية والعسكرية سوف تتوقف. وعليه كان من المهم ايجاد حليف قوي آخر، فكان الولايات المتحدة.

لكن بالرغم من هذه الايجابيات فقد كان في سوريا شعور متزايد بالإحباط بالنسبة لقضايا أخرى، وأولها أن الولايات المتحدة خصصت ٧٠٠ مليون دولار لإسرائيل لمساعدتها على تحسين نظامها الدفاعي ضد الصواريخ.

فأدان السوريون هذا القرار بشدة لأنه كما قالوا محاولة من الولايات المتحدة لربط أزمة الخليج بالنزاع العربي الإسرائيلي. كما أن السوريين أصيبوا بخيبة أمل عندما رأوا المساعدات المالية التي كانت تحصل عليها أقطار مثل مصر من الغرب. وكانت الولايات المتحدة قد ألغت دينا لها على مصر بمبلغ ٧ بلايين دولار وكذلك فعلت دول الخليج بدينها البالغ ٥ بلايين دولار نقدا. كما أن سوريا كانت لا تزال تعاني من العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة وبريطانيا وغير قادرة في الوقت ذاته على الحصول على المساعدات المالية التي تمكنها من حل المشكلات الأساسية للاقتصاد السوري.

ومما أغضب السوريين أيضا العلاقات الدبلوماسية. فبريطانيا التي أعادت علاقاتها الدبلوماسية مع ايران، رفضت إعادتها مع سوريا. وكانت علاقاتها ببرطانيا قد قطعت على أثر حادث الهنداوي عام ١٩٨٦ عندما وجدت قنبلة على إحدى طائرات العال بمطار هيثرو، وحملت بريطانيا سوريا المسؤولية عن تلك العملية الإرهابية.

وأصرت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر على هذا الموقف بالرغم من السياسة السورية الجديدة التي تجلت في الدفاع عن التحالف ضد العراق. وبقيت هذه المشكلة دون حل إلى أن خرجت تاتشر عن الوزارة في نوفمبر. فبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة أعادت بريطانيا علاقاتها مع سوريا.

وكان السوريون يواجهون مشكلة أخرى. فبالرغم من أنهم كانوا يكرهون العراق فإنه كان سيتحالف معهم في حال نشوب الحرب مع إسرائيل. وهكذا فإنهم أعلنوا بوضوح أن قواتهم موجودة في السعودية للدفاع عنها لا لمهاجمة العراق وأنهم لا يسعون إلى حرب مع العراق بل إلى حل سلمي. أجل كانوا يريدون حلا سلميا لا يضعف قوة

العراق. لكن هذا الموقف تغير كليا فيما بعد عندما اندلعت الحرب، فقبلت بهدوء تدمير العراق وأيدت فكرة الإطاحة بصدام حسين.

***

طرأت أحداث أخرى مهمة أثرت في أزمة الخليج. ففي ١٨ نوفمبر ـ أي بعد الغزو بثلاثة أشهر ـ اجتمع بباريس لأول مرة منذ الحرب الباردة رؤساء ورؤساء وزارات ٣٤ دولة تضم دولا من أوروبا الشرقية والغربية بالإضافة إلى كندا والولايات المتحدة (ضمن إطار منظمةCSCE). وفي تلك الأثناء وصلت رسالة مستعجلة من بغداد تعلن أن صدام حسين سيبدأ في عيد الميلاد بإطلاق سراح جميع الرهائن. على أن الرسالة لم تفاجىء أحدا. فمنذ بداية الأزمة وصدام حسين يحاول استغلال قضية الرهائن في محاولة منه لإضعاف تأييد الرأي العام الدولي لأي هجوم عسكري على بلاده. ومهما يكن من أمر فإن إعلان صدام استقبل باستخفاف من قبل الولايات المتحدة بوصفها مجرد دعاية عراقية أخرى. وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن تناول بوش الفطور مع مارغريت تاتشر، شجب القرار العراقي بالإفراج عن الرهائن على دفعات، وقال بأنه إذا أراد صدام حلا سلمياً فعليه أن يفعل بالكويت ما فعله بإيران. وهذا يعني «أن عليه أن يتراجع تراجعا كاملا. فلن تطلق رصاصة واحدة غضباً إذا فعل ما يفترض فيه عمله وهو التقيد تقيدا كاملا بقرارت الامم المتحدة».

عند بدء اجتماع الدول الأربع والثلاثين. كان من الواضح أن أزمة الخليج تتزايد تعقيدا. فطوال شهور كنا نسمع عن مختلف الخيارات لحل الأزمة ـ المفاوضات السلمية، وانسحاب طوعي للقوات العراقية من الكويت، والحل العربي، والحرب. وبعد أن قام الرئيس الأميركي بنشر ٢٠٠,٠٠٠ من الجنود كخطوة أولية، أعلن في أوائل نوفمبر أنه سيرسل تعزيزات للوجود العسكري في السعودية تتألف على الأقل من ٢٠٠,٠٠٠ جندي. وفي هذه صار من الواضح لدى متتبعي الأزمة أنه طرأ تغير أساسي على الموقف الأميركي. اذ تحولت الولايات المتحدة إلى دولة مهاجمة، وبالتالي أخذ احتمال وقوع الحرب يتحول إلى حقيقة. وذهب عدد من الخبراء إلى أن نشر القوات يعني أن الحرب ستقع بين منتصف وآخر يناير أو أوائل فبراير. واعتقد آخرون أن نشرها قد يكون خدعة لتغطية هجوم مبكر على الكويت.

***

لم يحضر جورج بوش وسكرتير الدولة جيمس بيكر الى باريس فقط بهدف المشاركة في المؤتمر، بل أيضاً وأساسا من أجل إقناع فرنسا والاتحاد السوفييتي بالحاجة إلى قرار جديد تصدره الامم المتحدة يجيز استخدام القوة العسكرية ضد العراق. وبعد أن اجتمع بيكر ووزير الخارجية الفرنسية رولان دوما أشاع مساعدو بيكر بأن فرنسا وافقت على دعم هذا القرار. وأشيع الشيء ذاته على أثر عشاء ضم بوش وميتران. فسارع الأليزيه الى القول بأن أي اتفاق بهذا الشأن لم يتم، وبأن فرنسا إذا كانت تقبل «من حيث المبدأ» فإنها لا تدعم أي قرار لم يناقش في مجلس الأمن. وحدد ميتران موقفه النهائي في مؤتمر صحفي عقده بعد انتهاء اجتماع باريس، معلناً فيه ان قراراً جديداً سوف يتم تبنيه خلال ثلاثة أسابيع ويجيز استخدام القوة.

وجرى الشي ذاته مع السوفييت. فقد عقد بيكر ثلاثة اجتماعات مع ادوارد شيفارنادزه؛ واجتمع بوش كذلك بغورباتشوف. وعرف أولا أن السوفييت غير متحمسين لصدور قرار عن الأمم المتحدة يؤيد استخدام القوة. وأعلن الناطق الرسمي السوفييتي في عدة مناسبات، بان موقف بلاده هو «الصبر».

ولكن قبل مغادرة غورباتشوف لباريس، ظهر على شاشة التلفزيون الفرنسي وحمل على العراق وعلى صدام حسين قال: «الوضع شديد الخطورة. يجب علينا ان نتحرك، ونظهر حزمنا وتصميمنا. ونشعر بالحاجة إلى قيام مجلس الأمن دون تأخير بالاجتماع ومناقشة الوضع واتخاذ قرار».

وخاب أمل الذين قالوا باحتمال التوصل إلى حل عربي. وفي أوائل نوفمبر دعا الملك الحسن الثاني إلى عقد قمة عربية لحل أزمة الخليج. ولكن في حين أن العراق سارع إلى تأييد اقتراحه فإن الدول العربية الرئيسية مثل مصر وسوريا والسعودية بادرت على الفور إلى رفضه.

وخاب كذلك الأمل في حل دبلوماسي. فالوسيط السوفييتي يفجيني بريماكوف الذي قام بجولة مكوكية على الأقطار العربية بما فيها العراق بهدف التوصل إلى حل سلمي، تحدث عن القيام بتنازلات للعراق. لكن الولايات المتحدة لم تكن على استعداد لقبول شيء من هذا. والواقع أن بوش كان قد وضع نفسه في موقف كان من الصعب تغييره ومن المستحيل التفاوض حوله. إذ قال إنه لا يمكن إجراء محادثات مع العراق إلا

بعد انسحاب العراق من الكويت وعودة الأسرة الحاكمة والافراج عن جميع الرهائن من الأجانب. وكان صدام قد أشار في كثرة من المقابلات بأنه لن يقبل ذلك. وعندما كنت ببغداد في أوائل سبتمبر أبلغتني وزارة الخارجية العراقية أن صدام حسين يرغب في مناظرة تلفزيونية مع بوش. ونقلت رغبته إلى البيت الأبيض فكان الجواب قاطعا بالنفي. وفي مقابلة لبيتر جنكز المراسل الرئيسي لشبكة «إي بي سي» مع صدام ببغداد شدّد هذا على استعداده للتفاوض مع الولايات المتحدة والسعودية ولكن بدون «شروط مسبقة» وكان معنى ذلك أنه لن ينسحب من الكويت قبل التوصل إلى حل تفاوضي. لكن بالرغم من كل الحديث عن الحاجة إلى حل دبلوماسي فإنه بات في حكم المستحيل.

أما وقت تعذر انسحاب صدام بدون شروط، وتعثر الحل العربي والحل التفاوضي فلم يبق هناك إلا خيار واحد وهو الحرب.

وفي ٢٩ نوفمبر تبنى مجلس الأمن القرار ٦٧٨ الذي أيد بوضوح ذلك الخيار. واتُّخذ القرار باثني عشر صوتا مقابل اثنين عارضاه وهما اليمن وكوبا وامتنعت الصين عن التصويت. وخولت الفقرة الرئيسية من القرار «الدول الأعضاء بالتعاون مع حكومة الكويت» لاستخدام «جميع الوسائل الضرورية» لتنفيذ القرار رقم ٦٦٠ الذي دعا إلى انسحاب العراق انسحابا تاما من الكويت. وحدد تاريخ الانسحاب بموجب القرار ٦٧٨ «في أو قبل» الخامس عشر من يناير ١٩٩١. كما دعا القرار إلى إعادة «السلم والأمن الدوليين إلى المنطقة». وهذه هي الكلمات الرئيسية التي استندت إليها الدول الغربية فيما بعد لتبرير تجاوز تحرير الكويت الى غزو العراق. وهكذا بدأ العد العكسي نحو الحرب.

الفصل العاشر
وتمر الأيام

عندما صدر قرار الأمم المتحدة رقم ٦٧٨ في ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ صار من الواضح أن الحرب قد أصبحت خيارا جديا في أزمة الخليج. ولو ان الولايات المتحدة ودول التحالف الأخرى كانت تشعر بأن الحل التفاوضي لا يزال ممكنا، ولو أن بعض الخبراء لم يكونوا يريدون حلا تفاوضيا لما اتخذ القرار. واعتقد كثرة من الزعماء السياسيين في العالم أن تحديد تاريخ لانسحاب صدام حسين من الكويت كان إشارة إلى أن الولايات المتحدة تخلت عن خطتها الأصلية التي ترمي إلى الانتظار حتى تبدأ العقوبات التي أقرتها هيئة الأمم في التأثير على الشعب العراقي. وأصبح من الواضح أن العقوبات تتطلب وقتا أطول من الوقت الذي تنبأ به المسؤولون في باديء الأمر.

لكن الولايات المتحدة واجهت عددا من المشكلات الصعبة. فبانتظار تأثير العقوبات كان لا بد لها من أن تترك قواتها على الأراضي السعودية لمدة طويلة، الأمر الذي سيؤثر على الاقتصاد، نظرا لما كان يتطلبه نشر القوات من تكاليف باهظة بالرغم من حصولها على دعم مالي هام من اقطار كالسعودية والكويت واليابان.

وكانت هنالك أيضا مشكلة دينية. فكان رمضان سيبدأ في منتصف آذار الأمر الذي يؤثر كثيرا على الأطراف العربية المشاركة في التحالف وخصوصا على السعودية ومصر وسوريا. وكان سيلي ذلك فيما بعد موسم الحج الذي يفد فيه كل سنة ملايين من المسلمين على الأراضي المقدسة. ولم يكن من المستبعد إذا بقيت القوات الأجنبية حتى ذلك الحين في السعودية أن يقوم الحجاج بثورة عليها.

وأخيرا كانت هنالك مشكلة الطقس. فبعد انقضاء شهر مارس تشتد الحرارة في منطقة الكويت والسعودية الى حد لا يطاق. وكان يخشى أن يكون لذلك تأثير ضار على الاعتدة العسكرية الأميركية وعلى القوات التي لم تعتد حياة الصحراء. وهكذا فإن الخبراء في الحكومة الأميركية قرروا أنه لا مفر من إيجاد حل قبل منتصف آذار.

***

في ٣٠ نوفمبر ـ أي بعد صدور قرار الأمم المتحدة رقم ٦٧٨ بيوم واحد ـ أعلن

بوش بذكاء عن خطة سلام لإقناع العالم بأن الحرب لم تكن حتمية ـ فاقترح أن يجتمع بوزير خارجية العراق طارق عزيز وأن يوفد وزير خارجيته بيكر للاجتماع بصدام حسين. ورحب العالم بالاقتراح بوصفه دليلاواضحا على أن الرئيس بوش كان لا يزال يسعى إلى حل دبلوماسي للأزمة.

وصلت إلى تونس في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم. وفي صباح اليوم التالي اجتمعت مع أبو إياد الرجل الثاني في منظمة التحرير. وقد عرفته منذ سنوات طويلة. وكان قد قضى شطرا من حياته في الكويت حيث كانت لا تزال تعيش أسرته بما فيها زوجته. وكان في أوائل السبعينات، الرأس المدبر للعمليات «الارهابية». وهو الذي نظم الهجوم على الرياضيين الإسرائيليين في الألعاب الأولمبية بميونيخ عام ١٩٧٢. على أنه اقتنع منذ أوائل الثمانينات بأن الإرهاب ليس أسلوبا لحل القضية الفلسطينية واتخذ موقفا اكثر اعتدالا. ولعب دورا أساسيا في حمل المنظمة على التخلي عن الإرهاب، والاعتراف بوجود اسرائيل، وفتح حوار مع الولايات المتحدة. لقد كان يد عرفات اليمنى ومن الذين دفعوه الى الاعتدال.

بدأ أبو إياد يخبرني عما حدث في مقر منظمة التحرير عندما علم المسؤولون فيها باقتراح بوش. بادر عرفات إلى عقد اجتماع بكبار قادتها الموجودين بتونس. وبعد نقاش استمر عدة ساعات كتبوا مذكرة سرية لصدام حسين نقلتها إليه السفارة العراقية بتونس. واشتملت المذكرة على ثلاث نقاط رئيسية: الأولى قبول اقتراح بوش الذي يحتمل أن يكون آخر فرصة للتوصل إلى حل سلمي للأزمة. والثانية التخلص من جميع الرهائن الأجانب قبل الاجتماع بين طارق عزيز وبوش، لأن ذلك يسهل إمكان التوصل إلى حل دبلوماسي. والثالثة الاستعداد للانسحاب من الكويت مع عدم نسيان الصفقة السرية مع الملك فهد التي تقضي باحتفاظه بمناطق الحدود المتنازع عليها منذ وقت طويل بين العراق والكويت.

وأخبرني أبو إياد أن عرفات كان في طريقه إلى عمان للاجتماع مع الملك حسين قبل الذهاب إلى بغداد لمقابلة صدام حسين. وأضاف أنه سيسافر في اليوم التالي إلى اليمن لمحاولة الحصول على تأييد زعمائها للخطة التي تقترحها المنظمة على صدام.

وسألته إذا كان سيجتمع مع الزعيم العراقي في العاصمة العراقية كما كان يفعل

دائما، ففاجأني بجوابه: «لن أذهب إلى بغداد مرة أخرى. ولن أجتمع بصدام حسين مرة أخرى». فلما سألته عن سبب اتخاذه هذا القرار كشف النقاب عن خبر مثير.

في ١٦ نوفمبر اجتمع هو وعرفات مع صدام حسين. وفي ذلك الاجتماع حدث مشادة عنيفة بينه وبين الزعيم العراقي. قال له: «إنك لا تساعد القضية الفلسطينية كما تدعي. إنك تدمرها. إنك تقضي على آلاف الفلسطينيين في الكويت. إنك تدمر أسرتي. لقد فقد جميعهم وظائفهم ويتضورون جوعاً». وقال أبو إياد أيضاً إنه انتقد بشدة دعم صدام لنشاط أبو نضال الإرهابي. وكان أبو نضال ـ وهو واحد من أخطر الارهابيين في العالم ـ قد انفصل عن المنظمة في أوائل السبعينات؛ ثم ما لبث أن أنشأ منظمة خاصة به وهي فتح المجلس الثوري وحكم بالموت على أبو إياد. وكان أبو إياد يعلم أنه منذ أن أنشأ أبو نضال منظمته تورط في أكثر من محاولة لاغتياله هو وغيره من زعماء منظمة التحرير. فأثارت كلمات أبو إياد غضب صدام حسين الذي طرده من مكتبه. كما أثارت غضب عرفات الذي تمكن مع هذا من إخراجه من العراق سالما.

كانت تلك آخر مرة قابلت فيها أبو إياد. ففي ليل الخامس عشر من يناير ـ أي قبل نشوب حرب الخليج بيومين ـ اغتيل في تونس هو وهايل عبد الحميد المعروف بأبي الهول. وكانت المنظمة قد اقترفت خطأ أمنيا مأساويا عندما سمحت للقاتل حمزة أبو زيد الذي تظاهر بالانشقاق عن أبو نضال بأن يكون حارس أبو الهول. ومع أن التحقيق في الاغتيال لا يزال جاريا، فإن هناك ما يشير إلى أن منظمة أبو نضال هي التي دبرت العملية. لكن ليس من الواضح ما اذا كان الاغتيال قراراً مستقلا اتخذته المنظمة أم أنه قرار جهة أخرى.

***

في الرابع من ديسمبر اجتمع عرفات والملك حسين ونائب الرئيس اليمني لمدة أربع ساعات مع صدام حسين في بغداد للعمل على تنفيذ توصياتهم. وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة ـ أي في ٦ ديسمبر ـ أعلن صدام الإفراج الفوري عن جميع الرهائن الأجانب. لكن لما كان قد أعلن سابقا أنه سوف يسمح لهم جميعا بمغادرة البلاد في عيد الميلاد فقد شك البعض في البداية بصدقه. لكن وضح في الأيام التالية أن جميع الرهائن قد أطلق سراحهم، وبذلك حلت عقدة من عقد أزمة الخليج.

***

أما على الجبهة الدبلوماسية فلم يبد أثر للتقدم بالرغم من كثرة النشاط. فأولا وقبل كل شيء لم يظهر ما إذا كانت الولايات المتحدة والعراق قد اتفقتا على موعد ذهاب طارق عزيز إلى واشنطن وبيكر إلى بغداد. وتحمل الولايات المتحدة العراق مسؤولية ذلك. فقال الأميركيون انهم اقترحوا خمسة عشر تاريخا وان صدام لم يقبل أيا منها. وكان صدام قد عرض الاجتماع ببيكر في الثاني عشر من يناير ولكن الولايات المتحدة اعتبرت التاريخ قريبا جدا من ١٥ يناير الذي حدد للانسحاب من الكويت. أما العراقيون فقد رأوا في ذلك إشارة إلى أن الولايات المتحدة لا تريد إجراء أية محادثات حقيقية معهم. وقالوا إنه لا تفرض التواريخ على أي قطر عربي، بل ينبغي التفاوض عليها. وأضافوا أن الولايات المتحدة لا ترغب في المفاوضة حتى على تاريخ الاجتماع.

وعلمت من مصدر عراقي أن كل ما كان الأمر يستدعيه لإجراء محادثات بين طارق عزيز وبوش، وبين بيكر وصدام هو أن يرفع بوش سماعة التلفون ويطلب صدام لمناقشة القضية معه. هكذا كان يفكر صدام. فمنذ بداية الأزمة شعر الزعيم العراقي أن الطريق الوحيد للتوصل إلى حل تفاوضي للأزمة هو إجراء محادثات مباشرة مع شخصين وهما الملك فهد والرئيس بوش.

وعلى أي حال فإنه لم يجر التوصل إلى حل بشأن اقتراح الرئيس بوش وأخيرا لم يتم الاتفاق إلا على اتصال أميركي عراقي واحد بين بيكر وعزيز في التاسع من يناير. لكن كان لا بد من التمهيد للاجتماع بنشاط دبلوماسي واسع.

***

في ١٢ ديسمبر أطلق الشاذلي بن جديد الرئيس الجزائري مبادرة سلام في اجتماع له مع صدام في بغداد. وكان تدخل الجزائر في العملية في نظر الذين يفهمون المفاوضات الشرق أوسطية، أمرا على جانب كبير من الأهمية. فمنذ سنوات طويلة كانت الجزائر تلعب دورا ايجابيا في معالجة أزمات المنطقة. ولعل أبرز نشاطاتها في هذا الميدان ما قامت به في أواخر ١٩٨٠ وأوائل ١٩٨١ عندما نجحت في وضع حد لمأساة الرهائن في إيران. وبفضل الجزائر أطلق سراح الرهائن في اليوم الذي جرى فيه تنصيب رونالد ريغن رئيسا للولايات المتحدة وهو ٢٠ يناير ١٩٨١.

على أن جهود بن جديد لإجراء مفاوضات لم تلبث أن بلغت حائطا مسدودا.

فالسعودية رفضت استقباله بحجة أن المفاوضات غير ممكنة قبل انسحاب صدام من الكويت. وأبلغت الولايات المتحدة الجزائر أنه ينبغي أن لا يقوم بن جديد بزيارة واشنطن. اذ يكفي أن يتصل تلفونيا بالرئيس بوش.

***

في ١٨ ديسمبر ازدادت الأمور تعقيدا. فالولايات المتحدة والعراق لم تكونا قد توصلتا إلى اتفاق على تاريخ الاجتماع بين طارق عزيز وبوش. وكان طارق عزيز قد بعث برسالة إلى الجماعة الأوروبية يقول فيها إنه على استعداد للاجتماع بوزراء الخارجية الأوروبيين. لكن ما حدث في ذلك اليوم أن وزراء خارجية السوق الأوروبية رفضوا الاجتماع به لأنهم لا يريدون أن يولدوا انطباعا بأن هناك انشقاقا في الحلف المناهض للعراق.

وقدر لقرار وزراء الخارجية هذا أن تكون له نتائج هامة. ففي الأيام التي سبقت ١٥ يناير المحدد للانسحاب شهد العالم فورة من النشاط الدبلوماسي. فقد غير وزراء خارجية الجماعة الأوروبية رأيهم وقرروا أنه من المهم لهم أن يجتمعوا بعزيز. لكن عزيز رفض عدة مرات لأنه كان لا يزال غاضبا بسبب قرار ١٨ ديسمبر في بروكسل.

وبعد ذلك بيومين أي في ٢٠ ديسمبر شهد الاتحاد السوفييتي حدثا دراميا أظهر أن الأزمة التي كانت تواجه العالم ليست في الشرق الأوسط وحده بل وفي الاتحاد السوفييتي إذ استقال شيفارنادزه بعد أن اتهم ميخائيل غورباتشوف بالسير نحو الدكتاتورية. وجاءت استقالته خسارة لبيكر بوجه خاص، لأنه أنشأ مع شيفارنادزه أفضل علاقة نشأت بين وزير خارجية أميركي ونظيره في الاتحاد السوفييتي. كما أن استقالته كانت مؤشرا على أن بعض الزعماء المتصلبين في الاتحاد السوفييتي بدأوا يشككون في قرار غورباتشوف بالانضمام الى الولايات المتحدة في الحلف المناهض للعراق، لأن العراق كان حليفا للاتحاد السوفييتي منذ زمن طويل وأكبر مستورد للأسلحة السوفييتية.

***

ومرت الأيام واحدا بعد الآخر إلى أن بدأ عام ١٩٩١.

كان أول يناير يوم عطلة. لكن الثاني منه شهد موجة من المحاولات الدبلوماسية.

فوزير خارجية لوكسمبرغ جاك بوه الذي كان قد أصبح في اليوم السابق رئيسا للجماعة الأوروبية دعا إلى اجتماع لوزراء خارجيتها يوم الجمعة في الرابع من يناير. وقال إنه يتوقع أن يوفده وزراء الخارجية الى بغداد لإجراء محادثات مع طارق عزيز.

وكان الملك حسين في طريقه إلى أوروبا لإجراء محادثات في لندن وروما وباريس وبون ولوكسمبرغ. ولم يكن قد توقف عن السعي إلى إيجاد حل دبلوماسي منذ قام بجهد خارق خلال السنوات الثماني والأربعين التي أعقبت الأزمة. وقال إن الجزائر ويوغوسلافيا اللتين تمثلان دول عدم الانحياز لا تزالان تشاركان في عملية السلام.

وبينما كانت تبذل هذه الجهود كان الرئيس بوش يخبر الشعب الأميركي في مقابلة له مع الصحفي البريطاني ديفد فروست أن استعادة الكويت هي اكبر تحد أخلاقي منذ الحرب العالمية الثانية. وعندما سئل عما سيحدث إذا نشب القتال في الخليج قال إنه يأمل أن ينتهي في غضون بضعة أيام.

وفي اليوم التالي ـ ٣ يناير ـ وبعد أن خاب أمل بوش في الاتفاق على تاريخي الاجتماعين في واشنطن وبغداد عرض على العراق فرصة أخيرة لإجراء محادثات بين بيكر وعزيز في السابع والثامن والتاسع من يناير. لكنه قال بأن الاجتماع لن يشتمل على مفاوضات أو تسوية أو إنقاذ لماء الوجه أو مكافآت على العدوان. ومن المؤكد أن مثل هذا البيان لم يكن من النوع الذي يوحي بأن أجتماعهما سيحل الأزمة.

وبعد يومين قبل العراقيون الاقتراح وقالوا بأن عزيز سيجتمع مع بيكر في جنيف في التاسع من يناير. وحيث أنه لم يكن قد بقي سوى ستة أيام على التاريخ المحدد للانسحاب وهو ١٥ يناير فإنه كان من المنتظر أن يكون حدث جنيف حاسما.

الفصل الحادي عشر
«اترك سيارتك في الكاراج هذه الليلة»

وصل جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركية وطارق عزيز وزير الخارجية العراقية إلى جنيف في المساء. وكان اجتماعهما سيبدأ في صباح اليوم التالي في فندق الانتركونتيننتال. وكانت وسائل الإعلام العالمية قد بعثت ممثليها إلى المدينة لإدراكها أن الاجتماع كان يمثل الاتصال المباشر الأول وربما الأخير على مستوى عال بين الولايات المتحدة والعراق منذ غزو الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠. وتنبأ غالبية الخبراء أن الاجتماع لن يكون للتفاوض بل لكي يطلع كل من الطرفين الطرف الآخر على موقفه الذي يتمسك به.

وعندما بدأ الاجتماع في صباح اليوم التالي بين الوزيرين اللذين كان كل منهما محاطا بالوفد المرافق له، سُمح لرجال الصحافة بدخول القاعة لمشاهدة وتصوير ما يجري بجلسة الافتتاح. وبالرغم من أن الوزيرين انحنيا على الطاولة وتصافحا فإنهما لم يبتسما. وخرجت الصحافة من التصوير مقتنعة بصحة ما توقعته وهو أن الاجتماع سينتهي بالفشل.

لكن سرعان ما فوجىء الجميع بأن الاجتماع طال اكثر مما كان منتظراً. وساعة بعد ساعة أخذ يبدو كما لو أن بيكر وعزيز كانا بالفعل يحاولان التوصل إلى حل. وتوقفت المحادثات عدة مرات ولمدة ساعة للغداء، لكنها استمرت. وأعلن خبير في شؤون الشرق الأوسط على شاشة التلفزيون البريطاني أنه علم من مصادر داخلية بأنه جرى إبرام صفقة ستؤدي إلى نهاية سلمية للأزمة.

وأخذ يتزايد تفاؤل الصحفيين الذين كانوا ينقلون وقائع الاجتماع. وكان الصحفيون مقتنعين بأن بيكر كان يتصل ببوش خلال فترات الراحة التي تخللت الاجتماع، وأنه بالرغم من أن عزيز لم يكن يتصل بصدام فإن هذا كان قد زوده بطائفة من المقترحات. وانتهى الاجتماع بعد ست ساعات من المناقشات. وانتظر الصحفيون أن يخرج بيكر ويطلعهم على ما جرى في مؤتمره الصحفي.

على أن العبارات التي استهل بها بيكر بيانه بردت كل أمل في احتمال التوصل إلى حل سلمي. قال بيكر:

«سيداتي سادتي. قبل قليل بعثت للرئيس بوش تقريرا عن اجتماعنا اليوم. أخبرته أن الوزير عزيز وأنا أكملنا محادثات جدية مطولة في محاولة لايجاد حل سياسي لأزمة الخليج. لقد اجتمعت مع الوزير عزيز اليوم ولكن كما سبق لنا أن بينا لا للتفاوض على ما جرى قبل قرار مجلس الأمن بل للاتصال المباشر معه مستمعا ومتحدثا. وهذا ما فعله كل منا. أما الرسالة التي نقلتها إليه من الرئيس بوش والشركاء فمفادها أنه ينبغي على العراق أن يستجيب لإرادة المجتمع الدولي وأن ينسحب سلميا من الكويت وإلا طرد منها بالقوة.

«ويؤسفني سيداتي سادتي أنني لم أسمع اليوم خلال الساعات الست ما يوحي بأي مرونة في مسألة التقيد بقرار مجلس الأمن الدولي».

***

كانت الرسالة واضحة: لقد فشل الاجتماع.

وصرح بيكر بأن عزيز رفض قبول رسالة قدمها إليه لينقلها إلى صدام. ذلك أن عزيز أعادها إليه بعد قراءتها. وقال عزيز في مؤتمر صحفي عقده بعد ذلك إن «لهجة الرسالة ليست تلك التي ينبغي استخدامها في المراسلة بين رؤساء الدول».

والآن وقد تعذر الاتصال بين رؤساء الدولتين اتضح لي سبب فشل الاجتماع ـ فطارق عزيز لم يحمل معه إلى جنيف أية مقترحات ـ لقد جاء لتحقيق هدف واحد وهو إقناع الولايات المتحدة بسحب توقيت الانسحاب في ١٥ يناير الذي وافقت عليه هيئة الأمم ـ فلم يكن صدام من النوع الذي يقبل بالمواعيد النهائية المحددة. لقد كان يعتبرها نوعا من التهديد. كما أنه لم يبعث بعزيز إلى جنيف ليظهر استعداد العراق لإجراء محادثات حول الحل السلمي بل للحديث عن التاريخ النهائي للانسحاب. وهذا ما لم يكن بيكر على استعداد لقبوله.

وكان في جناح عزيز خلال اجتماع هذا مع بيكر وزير خارجية الجزائر السيد أحمد الغزالي، ومدير الدائرة السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية فاروق القدومي. وخلال فترة الغداء التي أعقبت ثلاث ساعات من المحادثات دخل عزيز إلى جناحه وقال للغزالي والقدومي: «لن نحرز أي تقدم في هذه المحادثات. فهم يرفضون مناقشة

موضوع التاريخ المحدد للانسحاب [١٥ يناير]. كما أنهم ليسوا على استعداد لحذفه. ولن نفاوضهم حتى يفعلوا ذلك».

***

كان صدام قد علم بأن الكونجرس الأميركي صوت في اليوم السابق مؤيدا خطة الرئيس لاستخدام عمل عسكري لتحرير الكويت. لكن الذي حيّره هي الأخبار التي وردته من الولايات عن معارضة عدد كبير من الشيوخ والنواب الأميركيين، الأمر الذي أوحى له بانقسام الرأي الأميركي حول الأزمة. وبذلك أظهر عجزه عن فهم العقلية الأميركية: فحالما تنشب الحرب يقف الشعب الأميركي وراء الرئيس بلا معارضة أو بشيء قليل منها.

***

عندما وصل بيريز دي كويار إلى بغداد في وقت متأخر من مساء ١١ يناير إلى بغداد علم بأن عليه أن ينتظر ٤٨ ساعة قبل أن يتسنى له الاجتماع بصدام حسين. لكنه اجتمع مع طارق عزيز. وفي مساء ١٣ يناير استقبله صدام.

في أوائل فبراير ١٩٩١ نشرت الحكومة العراقية ما وصفته بأنه تسجيل لوقائع الاجتماع. ولم يشك أحد في صحة ما جاء فيه. كان دقيقا مثل تسجيل وقائع اجتماعات صدام مع غلاسبي، سفيرة الولايات المتحدة وجو ولسون القائم بالأعمال. وقد حصلت على هذه التسجيلات خلال زيارتي لبغداد في سبتمبر ١٩٩٠. ومن المهم أن نفهم ماذا حدث في تلك الليلة ـ قبل الموعد المحدد للانسحاب وهو ١٥ يناير.

استهل دي كويار الاجتماع بقوله لصدام:

«سيدي الرئيس. أود أن أقول بأنني قدمت إلى العراق بدون أن أكلف بأي مهمة. فلم يعهد إليّ أحد بأي شيء من ذلك القبيل. ولم يكلفني مجلس الأمن أو الأمم المتحدة بالقيام بأي شيء. لكن ما شجعني على القيام بهذه الرحلة ليسوا رؤساء الدول والحكومات وحدهم بل والبابا ومواطنون عاديون طلبوا مني أن استخدم مركزي وخصوصا نفوذه الأدبي للعمل على إقرار السلام في المنطقة.

«وقد تفاجأ يا سيادة الرئيس إذ علمت أن بين الذين تمنوا لي النجاح في مهمتي

رئيس الولايات المتحدة الذي اجتمعت وتحدثت معه أربع مرات يوم السبت الفائت. لكن أود أن أؤكد لك بأنني لا أحمل أية رسالة وأنني لست رسولا من قبل أحد. فأنا أمثل نفسي فحسب.

«قبل مجيئي إلى العراق بأسبوع اجتمعت مع الرئيس بوش لأبلغه أنني قررت الاجتماع معك. ذلك أنني أردت قبل مجيئي أن استمع إليه وأن أتأكد من رغبته في التوصل إلى حل سلمي للأزمة. ولا أستطيع أن أقدم أي ضمانة بشأن ما يضمره. لكنه قال لي عندما علم باعتزامي الاجتماع معك إنه يشعر برغبة ملحة في التوصل إلى حل سلمي للأزمة.

«لقد قمتَ بعدد من المبادرات بينها مبادرة مهمة وبناءة وهي قرارك بالافراج عن الأجانب، فبذلك أزلت عقبة في طريق التخفيف من التوتر في المنطقة. على أن مبادرة ١٢ أغسطس [وذلك عندما صرح صدام حسين بأنه على استعداد للانسحاب من الكويت كجزء من حل عربي أوسع بما في ذلك النزاع الفلسطيني الإسرائيلي] لم تُفهم تماما. لكنها تظهر بشكل أو بآخر في إطار قرارات مجلس الأمن التي أشارت بالتحديد إلى جامعة الدول العربية ومشاركتها في أي حل. فعلى ذلك الأساس يمكن عمل شيء. وكما سبق لي أن أخبرت وزير خارجيتكم فإنكم قد قمتم بعمل شيء. وأرى أنكم عملتم الكثير في سبيل القضية الفلسطينية وها أنتم قد وضعتم مصير الشعب الفلسطيني على جدول الأعمال. ونظرا لأني من أصل إسباني فإنني أشعر بأنني قريب من العالم العربي والشعب الفلسطيني».

وقال دي كويار إنه خلال اجتماعه في جنيف مع وزراء خارجية دول السوق الأوروبية وهو في طريقه إلى بغداد قال له الوزراء بأنهم يريدون معالجة القضية الفلسطينية. ثم واصل كلامه لصدام فقال:

وحتى عندما رأيت بوش يوم السبت اعترف بالحاجة الملحة لمعالجة أزمة فلسطين وقال إنه لم ينس البيان الذي ألقاه في الجمعية العامة في الأول من أكتوبر وإنه قد تسنح الفرص لجميع الدول لايجاد حل للمشكلة التي تفرق بين العرب والإسرائيليين.

على أن دي كويار ذكر بعد ذلك نقطة تنطوي على نقد فقال إنه لا يمكن حل أية قضية بما في ذلك قضية فلسطين إذا لم ينسحب صدام من الكويت. ثم قال:

«أعرف شجاعتكم وكرمكم. فقد تابعت أخبار الحرب العراقية الايرانية والمبادرات التي قمتم بتقديمها لإنهاء الحرب. وآمل أن تتقدموا بالروح ذاتها بشيء يضع حداً للنزاع الحالي. ولعمل ذلك علينا بالطبع أن نجد طريقة للتقيد بقرارات الأمم المتحدة وخصوصا رقم ٦٦٠ ورقم ٦٧٥ . . . هناك شيء قاله بوش وسجلته على قصاصة ورق وهو: «إن الولايات المتحدة ستهاجم العراق أو قواته المسلحة إذا لم يتم الانسحاب من الكويت ولم تعد الأمور فيها إلى ما كانت عليه في الثاني من أغسطس. إن الولايات المتحدة لا ترغب في أن تبقي قواتها البرية في المنطقة؛ وسوف تدعم المفاوضات بين الأطراف المعنية وسوف أقبل أي قرار تتخذه».

وعندما أنهى دي كويار كلامه سأله صدام حسين: «هل تشرب قهوة سوداء [مرة]؟ إن هذا النوع من القهوة لا يساعد على النوم خلال الليل». فأجابه دي كويار:

«إني أسافر كثيراً. وأنا رجل متقدم في السن، ولكنني قوي بالنسبة لسني. إن الرأس هو الذي يتحكم بكل شيء».

***

ثم أخذ الزعيم العراقي يبسط آراءه فقال:

«أحببت أن تأتي لأنك تعرفنا ولأنك تعاملت معنا في الماضي وتعرف طريقة تفكيرنا. وقد كنت أخشى أن تأتي من زاوية مختلفة لأنك آت في ظروف يدعو فيها الأقوياء إلى استخدام السلاح ضدنا بأسرع وقت ممكن. «ولهذا فإنك إذا لم تقدم لهم ما يريدونه فقد يتخذون من زيارتك حجة لشن الحرب. وبينما كنت اصغي إليك تبين لي أنك أثرت عدة نقاط إيجابية. وأنا متفق معك على أنه بالنسبة لموضوع معقد على هذا النحو فإنه لا ينتظر التوصل إلى الحلول في اجتماع واحد. إنه ينبغي مناقشة هذه الأمور بطريقة شاملة وبعمق».

***

وقضى الزعيم العراقي ربع الساعة التالي في مناقشة الوضع الذي نشأ خلال الحرب العراقية الايرانية. ثم انتقل إلى مسألة الكويت فقال:

***

«ما الذي أوصل الأمور منذ الثاني من أغسطس إلى الحد الذي وصلت إليه؟ إنه التهديد الذي شعرنا به؟ كانت الكويت قد أصبحت قاعدة في يد الولايات المتحدة للتآمر علينا. . . إننا لم نضم الكويت أو نوحد بينها وبين العراق في الحال بالرغم من أن حكام الكويت ـ كما تعلم ـ فروا في اليوم الأول ذاته. . . وافقنا على عقد مؤتمر قمة في السعودية تحضره الدول الخمس: العراق، اليمن، الأردن، السعودية ومصر. أردنا أن نناقش كل هذه التعقيدات مع العالم العربي لنحلها.

«وماذا حدث؟ بدلاً من أن يعقد مؤتمر القمة قامت السعودية ومصر بإلغائه، واتفقتا مع الولايات المتحدة على نشر قواتها على أرض السعودية. وهكذا أضعنا فرصة التوصل إلى حل عربي، وواصل الأميركيون نشر القوات بدون قرار من مجلس الأمن.

«وبالرغم من أن قرار نشر القوات الأميركية في السعودية كان قد اتُّخذ فإننا تصرفنا على نحو بنّاء حيال قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠. صحيح أننا لم نعترف بالقرار إلا أننا تحركنا في إطاره. وهكذا فإننا أعلنا بوضوح أننا سنسحب قواتنا في الرابع من أغسطس. وبالفعل قمنا بسحب بعض قواتنا. وأعتقد أننا سحبنا لواء بكامله، بالرغم من أن قواتنا المتواجدة هناك عندئذ لم تكن بحجمها الحالي. لكن عندما استمر التصعيد الأميركي، واستمرت القوات الأميركية في الوصول بأعداد متزايدة، أوقفنا سحب قواتنا. وكما قلت، فإننا أعلنّا الوحدة، وأبلغنا الشعب، والجيش في العراق أن الكويت اصبحت جزءا من بلادهم وأن عليهم أن يقاتلوا من أجلها حتى الموت. [وكان صدام يشير إلى إعلانه في الثامن من أغسطس أن العراق قامت بضم الكويت.]».

***

ثم تناول صدام القضية الفلسطينية فانتقد الولايات المتحدة لمعارضتها عقد مؤتمر دولي لبحث المشكلة، «وذلك لكي لا يكون عقده بمثابة انتصار سياسي لصدام حسين. . . ما الذي يقولونه الآن؟ فلينسحب العراق من الكويت ثم نعقد مؤتمراً دولياً لمناقشة القضايا. وهذا وعد غير صادق إنه مجرد احتمال».

وتبين من مجرى الحديث أن الزعيم العراقي لم يكن مستعداً للانسحاب من الكويت إلا في إطار حل أشمل. قال: «إن العراقيين لن يفروا من الموت. وسوف يحشر بوش يوماً بعد يوم في الزاوية؛ وسوف يضطر إلى اللجوء إلى السلاح لأن الذي يشغل

نفسه في توفير متطلبات استخدام الأسلحة لا يمكن أن يركز على التفكير في إيجاد بدائل لذلك».

وكان الجزء الأخير من محادثات الزعيمين في غاية الأهمية، إذ قال الأمين العام دي كويار بكل وضوح: «إذا كنتُ قد فهمتك تماماً فإن موقفك من الكويت لا يمكن الرجوع عنه. وفي هذه الحالة لا يمكننا العمل بمبدأ الصفقة». فقال صدام:

«لم أقل ذلك ـ لقد قلت ما قلته ـ إذا وجدت أن الأميركيين يسعون إلى إيجاد مخرج من الأزمة، وأنهم يبحثون عن طريقة لا تعود عليهم بالخسارة ولكنها في الوقت ذاته لا تحقق لهم بالضرورة كل ما يريدون، فإنه من الممكن وضع مخطط لهذا الغرض؛ ويمكن للعرب أن يبحثوا عن حل على أساسه».

فشكر دي كويار الزعيم العراقي على ضيافته والوقت الذي خصصه له. وقال صدام «أتمنى لك النجاح» وقال دي كويار: «ينبغي علينا أن نفكر في إخواننا الفلسطينيين». فأجاب صدام: «إنهم يذبحون يومياً الأطفال والنساء».

***

عاد دي كويار الى نيويورك قبيل ظهر ١٤ يناير بعد أن توقف في باريس لرؤية الرئيس ميتران. وخرج من اجتماعه مع ميتران مكتئباً. قال:

«من المؤسف أنني في نهاية رحلتي لا أجد سبباً يدعو إلى التفاؤل. ولا يوجد كذلك سبب يجعلني أكثر أملاً. أنا دبلوماسي ولكنني أيضاً نزيه ومستقيم، ولا أستطيع أن أخفي أنني لم أحرز تقدماً ببغداد».

لم يكن بقي على الموعد النهائي ١٥ يناير سوى ست وثلاثين ساعة؛ ويوافق ذلك منتصف الليل في واشنطن. وكان الفرنسيون يتحدثون عن آخر جهود للسلام. وأشار رولان دوما إلى أنه على استعداد للذهاب الى بغداد.

ثم حل ١٥ يناير. وفي الساعات الأولى من صباحه اغتيل أبو أياد في تونس. وكان دوما لا يزال يفكر في السفر ولكنه قال بأنه لن يسافر حتى يتلقى رسالة من العراق تقول بأنه على استعداد للانسحاب من الكويت. وكان عرفات يبذل جهوداً يائسة للاتصال بالزعماء العرب في محاولة منه لإحراز أي تقدم نحو السلام.

وحل الموعد في منتصف الليل والعراق لا يزال متشبثاً بالكويت. ومن الواضح أن الزعيم العراقي كان ينتظر نشوب الحرب.

***

في صباح ١٦ يناير توجهت مبكراً إلى مكتبي. وكان يخامرني شعور بأن شيئاً ما سيحدث. وفي الرابعة بعد الظهر دق جرس التلفون وكان المتحدث مصدري العسكري الأول الذي أثق به كل الثقة. قال: «يُفضّل أن تضع سيارتك في الكاراج هذه الليلة». قال هذا وأقفل الخط. على أن رسالته كانت واضحة. كان سيقع الهجوم على العراق في تلك الليلة.

في الحادية عشرة والنصف ليلاً بتوقيت لندن بدأت القنابل في السقوط على بغداد. وبذلك بدأت حرب الخليج.

الخاتمة

في الثانية عشرة والنصف من صباح ٢٨ فبراير رن جرس التلفون الذي كان بجوار سريري وقيل لي أن أذهب في الحال إلى مكتبي لأن الرئيس بوش كان سيخاطب الشعب الأميركي في الثانية صباحا. وكانت تلك هي الليلة الرابعة على التوالي منذ أن بدأت الحرب البرية التي أهب فيها من الفراش وأحلق ذقني وارتدي ملابسي على عجل وأتوجه إلى مكتبي. وعندما دخلت المكتب وجدت بعض الأخبار التي تشير إلى أن الرئيس الأميركي سيعلن نهاية الحرب. وفي الثانية صباحا أعلن وقف إطلاق النار المؤقت وأن الغارات الجوية على العراق توقفت وأن الحرب البرية ستتوقف عند منتصف الليل بتوقيت واشنطن والثامنة صباحا بتوقيت بغداد. وبهذا تكون الحرب قد استمرت ستة أسابيع وأربع ساعات بينما استمرت الأزمة ستة أشهر وستة وعشرين يوما.

سأترك للمحللين العسكريين أمر تقييم الحرب. وقد يمضي بعض الوقت قبل أن يتمكنوا من فك رموز الرسائل التي ارسلت إلى الصحافة في واشنطن والسعودية وإسرائيل والعراق، ومعرفة تفاصيل ما حدث بالفعل. لكن هناك اشياء واضحة. لقد سحقت قدرات العراق العسكرية، ودمرت بنياتها التحتية. وعليه فسوف يمر جيل من الزمن على الأقل لإعادة البناء. وكذلك فإن القوات العراقية أنزلت خرابا خطيراً في الكويت. إذ دمرت أقسام من المدينة واشعلت النار في آبار النفط وعذب بعض المواطنين وقتل غيرهم. لكن ربما كان الأهم من هذا بكثير هو الطريقة التي هزت بها الحرب العالم العربي وقسمته على نفسه.

إن الأمة العربية سريعة العطب. وقد أحدثت كل أزمة شهدتها المنطقة تغيرات درامية فيها. فخلق إسرائيل في عام ١٩٤٨ اعتبر هزيمة عربية كبرى. وفي السنوات الخمس التالية سقط زعماء ثلاث دول، وهي مصر وسوريا والعراق. وخلال حرب السويس سمحت العراق التي كانت لا تزال تخضع للحكم الملكي لبريطانيا باستخدام مطاراتها لمهاجمة مصر بالطائرات المقاتلة. وبعد سنتين أطيح بالأسرة الحاكمة وأدى الانتصار المذهل لإسرائيل في حرب الأيام الستة إلى قيام منظمة التحرير بنشاط «إرهابي»

واسع . وأدى الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ إلى قيام حزب الله الذي تدعمه إيران . وبعد ذلك بخمس سنوات ابتدأت الانتفاضة في الأراضي المحتلة .

وشهدت السنوات الخمس والأربعون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ٨١ انقلابا في أربع عشرة دولة عربية نجح منها أربعة وعشرون. وكان القطران اللذان شهدا اكثرها هما العراق وسوريا. إذ شهد ٣٢ محاولة نجح منها ١٤. والأقطار العربية تخضع للحكم الملكي أو الجمهوري، لكن لا يتمتع أي منها بحكم ديمقراطي. صحيح أن في بعضها «برلمانات» أو «جمعيات وطنية» أو «مجالس شعبية»، لكن هذه ليست سوى مؤسسات هزيلة أنشئت لإضفاء هالة من الشرعية على النخب الحاكمة. وإن عجز الحكومات الغربية التي تحالفت في حرب الخليج عن الضغط على هذه الاقطار لتبني نظم ديمقراطية سوف يؤدي إلى تفاقم الأخطار التي نجمت عن الحرب. كما أن عجز الدول الغربية عن حل القضايا العربية الأساسية مثل النزاع العربي الإسرائيلي سوف يزيد من تلك الأخطار.

قام الخبراء بإعداد قائمة بأسماء الرابحين وأخرى بأسماء الخاسرين في العالم العربي . وتضم الأولى إيران، وتركيا، ومصر وسوريا والسعودية. وتضم الثانية الاردن واليمن ومنظمة التحرير الفلسطينية ويضيف الخبراء أن الأشخاص الرابحين هم الرئيس التركي أوزال، والرئيس المصري حسني مبارك، والرئيس السوري حافظ الأسد. والخاسران في نظرهم هم الملك حسين وياسر عرفات. والحقيقة هي أن الذين وصفوا بالرابحين يواجهون معارضة علنية أو سرية في بلادهم، في حين أن الملك حسين يتمتع بشعبية كبيرة، وأن ياسر عرفات لا يزال المسيطر على المنظمة. وعليه فعلى المرء أن لا يفاجأ خلال السنوات القليلة القادمة إذا خسر أحد الرابحين وظل الخاسرون في أوج قوتهم وشعبيتهم.

لقد تحدث الرئيس بوش عن خلق نظام عالمي جديد. لكن هذا ليس بالأمر السهل. فقد فقدت أميركا الكثير من شعبيتها في بعض الأقطار العربية. وكذلك فإن العلاقات الأميركية السوفيتية قد أصبحت سريعة العطب بعد وقت غير طويل من انتهاء الحرب الباردة.

وأصابت حرب الخليج اندفاع الجماعة الأوروبية نحو مزيد من الوحدة السياسة

والنقدية بأضرار بالغة. وعلينا أن لا ننسى أن الحرب أدت إلى انتفاضات في كثرة من الاقطار الآسيوية .

من الصعب أن يجادل المرء فيما تصفه الولايات المتحدة بالنصر الدرامي. لكن السلام في غاية التعقيد، وخصوصا في الشرق الأوسط. لقد تمت هزيمة العراق بسرعة. لكن ليس من السهل التوصل إلى سلام طويل الأمد.

الوثائق

الملحق الأول

رسالة
نائب رئيس الوزراء، وزير الخارجية العراقي
إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية
بتاريخ ١٥ يوليو (تموز) ١٩٩٠

سيادة الأخ الشاذلي القليبي

الأمين العام لجامعة الدول العربية

تحية أخوية . . .

في بداية هذه الرسالة لابد من التذكير بالمبادىء التي يؤمن بها العراق والتي طبقها بكل أمانة وحرص في علاقاته العربية.

إن العراق يؤمن بأن العرب في كل أقطارهم أمة واحدة. . ويفترض أن يعم خيرهم الجميع وأن يستفيدوا منه، وإذا ما أصاب أحدهم ضرر أو أسى فأن هذا الضرر والأسى يلحق بهم جميعاً وأن العراق ينظر إلى ثروات الأمة على أساس هذه المبادىء. . وقد تصرف في ثروته منطلقاً من هذه المبادىء.

كما يؤمن العراق. . بأنه برغم ما أصاب الأمة العربية في العهد العثماني وبعده تحت ظل الاستعمار الغربي من شتى الوان التقسيم والهوان والاضطهاد ومحاولة فسخ الشخصية القومية، فان مقومات وحدة الأمة العربية ما تزال حية وقوية. . وأن الوطن العربي برغم انقسامه إلى دول هو وطن واحد وأن أي شبر من هذا الوطن هنا أو هناك في أرض هذا القطر أو ذاك ينبغي أن ينظر إليه من منظور الاعتبارات القومية وخاصة اعتبارات الأمن القومي العربي المشترك، كما ينبغي تجنب الوقوع في مهاوي النظرة الضيقة والأنانية في التعامل مع المصالح والحقوق لهذا القطر أو ذاك. إن مصالح الأمة العربية العليا. . والحسابات الاستراتيجية العليا للأمن القومي العربي يجب أن تكون حاضرة دائماً كما يجب أن تكون المعيار الأول في التعامل في كل هذه المسائل بين الأقطار العربية.

على أساس هذه المبادىء القومية والأخوية المخلصة والصادقة تعامل العراق مع الكويت رغم ما هو معروف من حقائق الماضي والحاضر بالنسبة للكويت والعراق. والذي دعانا إلى كتابة هذه الرسالة. . اننا مع عميق الأسف بتنا نواجه الآن من جانب

حكومة الكويت حالة تخرج عن إطار المفاهيم القومية التي ذكرنا . . بل تتناقض معها وتهددها في الصميم . . وتتناقض مع أبسط مقومات العلاقات بين الأقطار العربية . . إن المسؤولين في حكومة الكويت وبرغم مواقفنا الأخوية الصادقة في التعامل معهم في جميع القضايا، وبرغم حرصنا على مواصلة الحوار الأخوي معهم في كل الأوقات قد سعوا وبأسلوب مخطط ومدبر ومتواصل إلى التجاوز على العراق والإضرار به وتعمدوا إضعافه بعد خروجه من الحرب الطاحنة التي استمرت ثمان سنوات والتي أكد كل العرب المخلصين قادة ومفكرين ومواطنين، ومنهم رؤساء دول الخليج بأن العراق كان يدافع خلالها عن سيادة الأمة العربية كلها وخاصة دول الخليج ومنها بل وبصورة خاصة الكويت. كما سلكت حكومة الكويت هذه السياسة التي تتعمد إضعاف العراق في الوقت الذي يواجه فيه العراق حملة امبريالية صهيونية شرسة بسبب مواقفه القومية في الدفاع عن الحق العربي، تدفعها إلى ذلك مع الأسف دوافع أنانية ونظرة ضيقة وأهداف لم يعد ممكناً النظر إليها إلا على أنها مريبة وخطيرة. وفي هذا الشأن هنالك صفحتان رئيسيتان :

الأولى : من المعروف أنه منذ عهد الاستعمار والتقسيمات التي فرضها على الأمة العربية هنالك موضوع معلق بين العراق والكويت بشأن تحديد الحدود . . ولم تفلح الاتصالات التي جرت خلال الستينات والسبعينات في الوصول الذي حل بين الطرفين لهذا الموضوع حتى قيام الحرب بين العراق وإيران . . وفي أثناء سنوات الحرب الطويلة بصورة خاصة وفي الوقت الذي كان فيه أبناء العراق النشامى يسفحون دمهم الغالي في الجبهات دفاعاً عن الأرض العربية ومنها أرض الكويت وعن السيادة والكرامة العربية ومنها كرامة الكويت، استغلت حكومة الكويت انشغال العراق كما استغلت مبادئه القومية الأصيلة ونهجه النبيل في التعامل مع الأشقاء وفي القضايا القومية لكي تنفذ مخططاً في تجميد وتيرة الزحف التدريجي والمبرمج باتجاه أرض العراق فصارت تقيم المنشآت العسكرية والمخافر والمنشآت النفطية والمزارع على أرض العراق وقد سكتنا على كل ذلك واكتفينا بالتلميح والإشارات علها تكفي في إطار مفاهيم الأخوة التي كنا نعتقد أن الجميع يؤمنون بها. ولكن تلك الإجراءات استمرت وبأساليب ماكرة وإصرار يؤكد التعمّد والتخطيط.

وبعد تحرير الفاو، بادرنا ـ في أثناء مؤتمر قمة الجزائر عام ١٩٨٨ ـ إلى إبلاغ

الجانب الكويتي برغبتنا الصادقة في حل هذا الموضوع في إطار علاقات الأخوة والمصلحة القومية العليا ولكننا وجدنا أنفسنا أمام حالة تثير الاستغراب الشديد. . فبرغم أن المنطق يفترض أن يفرح المسؤولون الكويتيون لهذه المبادرة الأخوية الكريمة من جانبنا وأن يعملوا لانجاز هذا الموضوع بسرعة، لاحظنا التردد والتباطوء المتعمدين من جانبهم في مواصلة المباحثات والاتصالات وإثارة تعقيدات مصطنعة مع الاستمرار في التجاوز وإقامة المنشآت البترولية والعسكرية والمخافر والمزارع على الأراضي العراقية وقد صبرنا على هذه التصرفات بدواعي الحكمة والحلم.

وكان استعدادنا لمزيد من العمل كبيراً لولا انتقال الأمور إلى مستوى خطير لم يعد ممكناً السكوت عليه وهو ما سنتناوله في الصفحة الثانية والأكثر خطورة من الموضوع.

إن العراق يحتفظ بسجل كامل لهذا الموضوع يوضح بالوثائق والحيثيات كل التجاوزات التي قامت بها حكومة الكويت.

الثانية: بدأت حكومة الكويت ومنذ عدة أشهر، وبالتحديد منذ أن رفع العراق صوته عالياً يدعو بقوة إلى استعادة حقوق العرب في فلسطين وينبه إلى مخاطر الوجود الأميركي في الخليج، بدأت بانتهاج سياسة ظالمة القصد منها هو إيذاء الأمة العربية وإيذاء العراق خاصة.

وفي هذا الجانب اشتركت حكومة الإمارات العربية المتحدة مع حكومة الكويت. فقد نفذت حكومتا الكويت والإمارات عملية مدبرة لإغراق سوق النفط بمزيد من الانتاج خارج حصتها المقررة في الأوبك بمبررات واهية لا تستند إلى أي أساس من المنطق أو العدالة أو الانصاف. . وبذرائع لم يشاركهما فيها أي من الأشقاء من الدول المنتجة. . وقد أدت هذه السياسة المدبرة إلى تدهور أسعار النفط تدهوراً خطيراً. . فبعد التدهور الذي حصل قبل سنوات في السعر، من المعدلات العالية التي كان قد بلغها وهي ٢٤، ٢٩، ٢٨ دولاراً للبرميل الواحد، أدت تصرفات حكومتي الكويت والإمارات إلى انهيار سعر الحد الأدنى المتواضع الذي تم الاتفاق عليه في الأوبك أخيراً وهو ١٨ دولاراً للبرميل إلى ما بين ١١ ـ ١٢ دولاراً للبرميل. وبعملية حسابية بسيطة يمكننا أن نقدر مقدار الخسائر الباهظة التي لحقت بالدول العربية المنتجة للنفط.

أولاً: إن معدل انتاج الدول العربية من النفط هو ١٤ مليون برميل في اليوم وأن

تدهور الأسعار في الفترة الواقعة بين ١٩٨١ ـ ١٩٩٠ قد أدى إلى خسارة الدول العربية بحدود ٥٠٠ مليار دولار، كانت حصة العراق منها خسارة ٨٩ مليار دولار. ولو أن العرب جميعاً لم يخسروا هذه المبالغ الهائلة ووفرنا نصفها للتنمية القومية ولمساعدة البلدان العربية الفقيرة لحققنا تقدماً هائلاً في التنمية القومية وأسعدنا الفقراء من أبناء أمتنا . . ولكان وضع الأمة أقوى وأكثر رفاهاً وتقدماً مما هو عليه الآن .

إذا اعتمدنا الحد الأدنى للأسعار كما قررته الأوبك عام ١٩٨٧ وهو ١٨ دولاراً للبرميل، فأن خسارة الدول العربية خلال الفترة من ١٩٨٧ ـ ١٩٩٠ بسبب تدهور هذا السعر تبلغ حوالي ٢٥ مليار دولار.

ثانياً: أن نقص كل دولار من سعر النفط يؤدي إلى إلحاق خسارة بالعراق تبلغ مليار دولار سنوياً. ومن المعروف ان السعر قد انخفض هذه السنة عدة دولارات عن سعر ١٨ بسبب سياسة حكومتي الكويت والإمارات، مما يعني خسارة العراق لعدّة مليارات من دخله لهذه السنة في الوقت الذي يعاني فيه العراق من ضائقة مالية بسبب تكاليف الدفاع الشرعي عن أرضه وأمنه ومقدساته وعن أرض العرب وأمنهم ومقدساتهم طيلة ملحمة الثمان سنوات. إن هذه الخسائر الجسيمة من جراء تدهور اسعار النفط لم تصب الدول العربية المنتجة للنفط وحدها . . وانما اصابت بنتائجها الدول الشقيقة الأخرى التي كانت تتلقى المعونات من اخواتها الدول العربية المنتجة للنفط . . فقلّت امكانات الدعم بل توقفت في بعض الحالات كما تدهورت ايضاً أوضاع مؤسسات العمل العربي المشترك وعانت الأزمات وهي الآن في اصعب الظروف، لهذا السبب أو لاتخاذ ذلك ذريعة لتقليل أو ايقاف المساعدات والدعم لمؤسسات العمل العربي المشترك .

وقد أضافت حكومة الكويت الى هذه الاساءات المتعمدة إساءة اخرى مستهدفة الإضرار بالعراق بالذات. فقد نصبت منذ عام ١٩٨٠ وخاصة في ظروف الحرب منشآت نفطية على الجزء الجنوبي من حقل الرميلة العراقي وصارت تسحب النفط منه . ويتضح من ذلك انها كانت تغرق السوق العالمي بالنفط الذي كان جزءاً منه هو النفط الذي تسرقه من حقل الرميلة العراقي وبهذا تلحق الضرر المتعمد بالعراق مرتين . . مرة باضعاف اقتصاده وهو احوج ما يكون فيه الى العوائد ومرة اخرى بسرقة ثروته . وتبلغ

قيمة النفط الذي سحبته حكومة الكويت من حقل الرميلة فقط بهذه الطريقة المنافية لعلاقات الأخوة وفقاً للاسعار المتحققة بين ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠ ـ (٢٤٠٠) مليون دولار.

واننا نسجل امام جامعة الدول العربية وامام الدول العربية كلها حق العراق في استعادة المبالغ المسروقة من ثروته وحق العراق في مطالبة المعنيين باصلاح التجاوز والضرر الذي وقع عليه.

لقد سبق ان شرحنا مخاطر سياسة حكومتي الكويت والامارات لأخوتنا في الدول العربية المنتجة ومنهم الكويت والامارات مرات عديدة. . وشكونا. . وحذرنا. . وفي قمة بغداد تحدث السيد الرئيس صدام حسين حول هذه المسألة أمام الملوك والرؤساء والأمراء وبحضور المعنيين بصراحة وبروح أخوية (ونرفق طياً نص حديث سيادته حول الموضوع في مؤتمر قمة بغداد). وكنا نتصور وخاصة بعد الاجواء الأخوية الايجابية التي تحققت في قمة بغداد ان حكومتي الكويت والامارات سترعويان عن هذا النهج ولكن الحقيقة المؤلمة هي أن كل ما قمنا به من مساع ثنائية ومن اتصالات مع دول شقيقة لتلعب دوراً إيجابياً في ثني حكومتي الكويت والامارات عن هذا النهج وبرغم حديث السيد الرئيس صدام حسين في قمة بغداد فقد تعمّدت هاتان الحكومتان مواصلة هذه السياسة واستمرتا فيها بل إن بعض المسؤولين فيهما اطلقوا تصريحات وقحة عندما ألمحنا الى هذه الحقائق وشكونا منها. لذلك لم يبق هناك أي مجال لاستبعاد الاستنتاج بأن ما فعلته حكومتا الكويت والامارات في هذا الشأن انما هو سياسة مدبرة تستهدف اهدافاً خفية. ومع ادراكنا بأن هذه السياسة التي أدت الى انهيار اسعار النفط تضر في المحصلة النهائية باقتصاد هذين البلدين نفسيهما. . فلم يبق امامنا غير ان نستنتج بان من تعمد هذه السياسة بصورة مباشرة ومكشوفة أو من آزرها أو دفع اليها، انما ينفذ جزءاً من المخطط الامبريالي ـ الصهيوني ضد العراق وضد الأمة العربية خاصة في التوقيت الذي جاءت فيه وهو ظروف التهديد الخطير من جانب اسرائيل والامبريالية الذي يتعرض اليه الوطن العربي عامة والعراق خاصة، اذ كيف يمكن لنا ان نواجه هذا التهديد الخطير ونحافظ على التوازن في القوة الذي حققه العراق بأغلى التكاليف وهو الذي عانى ما عانى من الخسائر في اثناء الحرب مع انهيار مورد العراق الأساسي وموارد الدول العربية المصدرة للنفط وهي العراق، السعودية، قطر، عمان، اليمن، مصر، سورية، الجزائر وليبيا؟!

هذا فضلاً عما تؤدي اليه هذه السياسة المريبة من إضعاف قدرة هذه الدول العربية على مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة التي تعاني منها وهي مشكلات ذات طبيعة مصيرية. . فإلى أي مصير تريد حكومتا الكويت والامارات ان تجرّا الأمة العربية؟!. . في هذا الظرف الصعب الدقيق والخطر؟!. وسياسات من وأهداف من تريدان إرضاءهما؟!.

إنّا. . وبعد أن أوضحنا هذه الأمور لكل الأشقّاء وبعد أن طلبنا مباشرة من هاتين الحكومتين الكف عن هذه السياسة الظالمة والمدمرة وشرحنا لهما ما نتعرض إليه من أضرار كبيرة. . قبل قمة بغداد وفي اثناء القمة. . وبعدها. . وأرسلنا المبعوثين وكتبنا الرسائل. . لذلك فإننا ندين ما فعلته حكومتا الكويت والامارات بالعدوان المباشر على العراق فضلاً عن عدوانهما على الأمة العربية.

اما بالنسبة لحكومة الكويت فإن اعتداءها على العراق هو اعتداء مزدوج فمن ناحية تعتدي عليه وعلى حقوقه بالتجاوز على أراضينا وحقولنا النفطية وسرقة ثروتنا الوطنية. . وان مثل هذا التصرف هو بمثابة عدوان عسكري.

ومن ناحية اخرى تتعمد حكومة الكويت تحقيق انهيار في الاقتصاد العراقي في هذه المرحلة التي يتعرض فيها الى التهديد الامبريالي الصهيوني الشرس وهو عدوان لا يقل في تاثيره عن العدوان العسكري.

اننا اذ نعرض هذه الحقائق المؤلمة امام الاشقاء العرب فاننا نأمل ان يرفع الاشقاء صوتهم عالياً لوضع حد لهذا العدوان المتعمد المدبر ولكي ينصحوا المنحرفين للعودة الى السلوك السوي الذي يأخذ بالاعتبار المصلحة القومية المشتركة ومتطلبات الأمن القومي المشترك.

ثالثاً: وبمناسبة الحديث عن المصالح القومية العليا وارتباط الثروة العربية بمصير الأمة العربية نطرح مقترحاً كالتالي:

ـ لو تضامنت كل الدول العربية المنتجة وغير المنتجة تضامناً سياسياً متيناً واتفقت على العمل على رفع سعر النفط الى ما يزيد عن ٢٥ دولاراً ثم اقامت صندوقاً للمعونة والتنمية العربية على غرار ما اتفق عليه في قمة عمان على ان يموّل هذا الصندوق بدولار عن كل برميل نفط تبيعه الدول العربية المنتجة باكثر من سعر ٢٥ دولاراً فان المبلغ الذي

سيتحقق لهذا الصندوق هو ٥ مليارات دولار سنوياً في نفس الوقت الذي تتحقق فيه زيادات كبيرة في مداخيل الدول المصدرة للنفط، لأن التضامن العربي الجماعي الذي يفترضه هذا السعر المنصف يزيد من مدخولاتها المالية ويحميها من المحاولات العدائية التي تستهدف إضعاف القوة العربية من خلال إضعاف مواردها من الثروة البترولية.

ويمكننا ان نتصور كيف ان مبلغاً ثابتاً كهذا سيعزز الأمن القومي العربي ويوفر امكانات نمو لكل الدول العربية ويمكّنها من مواجهة الضائقة الاقتصادية الخانقة التي تعاني منها اغلب دولنا.

ان العراق يطرح هذا المقترح للدراسة الجادة وقد يكون مؤتمر القمة العربي القادم في القاهرة مناسبة لبحث هذا المقترح واقراره.

رابعاً: ولمناسبة الحديث عن هذه الحقائق المؤلمة نرى من الضروري ان نوضح اللبس الذي ربما يكون موجوداً لدى بعض الاشقاء حول موضوع (المساعدات) التي قدمتها الكويت والامارات للعراق اثناء الحرب.

لقد اجمع العرب المخلصون في كل الوطن العربي على ان الحرب التي اضطر العراق الى خوضها لم تكن للدفاع عن سيادته فحسب وإنما كانت دفاعاً عن البوابة الشرقية.

اننا نضع هذه الحقائق المؤلمة أمام ضمير كل عربي شريف وفي المقدمة منهم شعب الكويت الشقيق لكي يقدروا الألم والضرر والأذى الذي أصابنا ويصيبنا.

أرجو سيادة الامين العام توزيع هذه الرسالة على الدول العربية..

مع اطيب التحيات والتمنيات.

طارق عزيز

نائب رئيس الوزراء

وزير خارجية الجمهورية العراقية

بغداد في ٢٣ / ذي الحجة / ١٤١٠ هـ

الموافق ١٥ / تموز ١٩٩٠ م

الملحق الثاني

- رسالة من وزير خارجية العراق إلى الأمين العام للأمم المتحدة، ٢٤ اكتوبر ١٩٩٠

أرسل لكم نسخة من الرسالة المؤرخة في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٩ والتي بعث بها مدير عام مديرية الأمن الى وزير الداخلية في حكومة الكويت السابقة. إن هذه الوثيقة الخطيرة تبرهن على وجود مؤامرة بين تلك الحكومة وحكومة الولايات المتحدة لزعزعة استقرار الوضع في العراق.

سبق أن ذكرت هذه المؤامرة في رسالة مؤرخة في ٤ أيلول ١٩٩٠ وجهتها إلى رؤساء الخارجية في العالم، وشرحت فيها الخلفية التاريخية لمكائد الزعماء الكويتيين للعراق.

لا مفر لنا إذن من الاستنتاج بأن زعماء النظام السابق في الكويت أرادوا المضي في مؤامراتهم حتى يتحطم اقتصاد العراق ويتزعزع استقرار نظامه السياسي. ومن المستحيل الاعتقاد بأن نظاماً كالنظام الذي كان قائما في الكويت يمكن أن يدبر مثل تلك المؤامرة ذات الأهداف الكبيرة بدون دعم وحماية دولة كبرى.

وضمنت الرسالة أيضاً الملاحظات التالية:

«يتبين من سردي التاريخي ووصفي للحوادث أن الخلاف لم يكن مجرد خلاف على المسائل الاقتصادية أو مسائل الحدود. فقد سبق أن نشأت بيننا خلافات من ذلك القبيل خلال السنوات العشرين الماضية، ولكننا حاولنا أن نحافظ على أفضل العلاقات الممكنة مع زعماء الكويت السابقين بالرغم من سلوكهم الخسيس وموقفهم الحقير من العراق. وحقيقة الأمر أن هناك مؤامرة منظمة تعمد زعماء الكويت السابقون الاشتراك فيها بدعم من الولايات المتحدة وذلك استقرار الاقتصاد العراقي وهدم القدرات الدفاعية ضد مطامع إسرائيل الاستعمارية واعتداءاتها على العالم العربي. ولتحقيق ذلك كان لا بد من هدم النظام السياسي في العراق وتقوية هيمنة الولايات المتحدة على المنطقة وخصوصاً على موارده النفطية. والواقع كما صرح الرئيس صدام حسين في قمة بغداد وكما أشرت في رسالتي إلى الأمين العام للولايات المتحدة هو أن ذلك بمثابة حرب ضد العراق».

إن هذه الرسالة تبين بوضوح ودون لَبس أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية ودوائر مخابرات حكومة الكويت السابقة تعاونت عى التآمر على أمن العراق القومي وسلامة أراضيه واقتصاده القومي .

أكون ممتناً إذا تكرمت بتوزيع هذه الرسالة والنص المرافق بوصفهما من الوثائق الرسمية للأمم المتحدة .

طارق عزيز

وزير خارجية العراق

بغداد ٢٤ اكتوبر ١٩٩٠

الملحق الثالث

سري جداً وخاص

رسالة من العميد فهد أحمد إلى صاحب السمو الشيخ سالم الصباح السالم الصباح (بلا تاريخ)

سمو وزير الداخلية الشيخ سالم الصباح السالم الصباح

بعد لقائنا المشترك وتنفيذاً لأوامر سموكم الصادرة بتاريخ ٢٢ (أوكتوبر) تشرين الأول ١٩٨٩ ، قمت بين ١٢ و ١٨ (نوفمبر) تشرين الثاني ١٩٨٩ ، بزيارة مقر وكالة الإستخبارات في الولايات المتحدة ، بصحبة الكولونيل اسحق عبد الهادي شدّاد ، مدير المباحث في محافظة الأحمدي .

وقد شدد الجانب الأميركي أن تبقى الزيارة سرية جداً ، إلى حين حل مشكلة حساسية أشقائنا في مجلس التعاون الخليجي من جهة وفي كل من إيران والعراق من جهة ثانية .

وفي هذه الرسالة أضع بين يدي سموكم ، النقاط الرئيسية التي اتفقنا عليها مع القاضي وليم وبستر ، مدير وكالة الإستخبارات الأميركية ، وذلك خلال لقائي الخاص معه يوم الثلاثاء في ١٤ (نوفمبر) تشرين الثاني ١٩٨٩ .

١)إن الولايات المتحدة ، مستعدة لتدريب أشخاص ، نختارهم نحن ، لحماية سمو الأمير وسمو الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح . إن الإعداد والتدريب سوف يكونان في مقر وكالة الإستخبارات الأميركية نفسه ، هذا مع العلم أن العدد النهائي لهؤلاء الأشخاص هو ١٢٣ شخصاً .

وقد اتفقنا أن تناط ببعضهم مهمات خاصة مرتبطة مباشرة بالعائلة الملكية ، هذه المهمات يحددها سمو الأمير ولي العهد .

وحول هذا الموضوع أفادنا الجانب الأميركي ، أنهم غير راضين عن كفاءة وقدرات قوات الحرس الملكي اثناء الهجوم الذي تعرض له سمّو الأمير.

٢) وقد اتفقنا مع الجانب الأميركي على أن تتم زيارات متبادلة على كل المستويات بين مديرية الأمن الوطني ووكالة الإستخبارات المركزية.

وأن يتم تبادل معلومات حول تسلح كل من إيران والعراق، وحول البنى الإجتماعية والسياسية لكليهما.

٣) وقد طلبنا بإلحاح مساعدة خبراء الوكالة، لإعادة تكوين بنية مديرية الأمن الوطني، بعد لقائنا معهم، حيث أصبحت هذه القضية من الأولويات الملحة خصوصاً بعد الأوامر التي أصدرها سمّو الأمير.

إننا ننتظر خبراتهم للشروع في وضع استراتيجية جديدة تتناسب مع الوضع الداخلي في البلاد ومع التغيرات في منطقة الخليج، وذلك عن طريق تركيب نظام معلوماتي وآلي في مديرية الأمن الوطني.

٤) وكما طلبنا نحن، فقد أعلمنا الجانب الأميركي، أنه مستعد لتبادل المعلومات، حول نشاطات المجموعات الشيعية المتطرفة داخل البلاد، وفي بعض دول مجلس التعاون الخليجي.

وقد قام السيد وبستر بتهنئتنا على الإحتياطات التي اتخذناها ضد الحركات المدعومة من إيران، وأعلمنا أن الوكالة مستعدة لعمل مشترك معنا، لاستبعاد كل عوامل التوتر في منطقة الخليج.

٥) وقد اتفقنا مع الجانب الأميركي، على أنه من المهم الإستفادة من تدهور الوضع الإقتصادي في العراق، حتى نجبر حكومة هذا البلد على الموافقة على رسم حدودنا المشتركة. وقد عرضت وكالة الإستخبارات الأميركية وسائل الضغط التي تراها ملائمة. مع التشديد على أنه يجب أن يقوم بيننا تعاون واسع في هذا الحقل، بشرط أن يتم التنسيق على أعلى المستويات.

٦) يرى الجانب الأميركي، أن تكون علاقاتنا بإيران على الشكل التالي: من جهة يجب أن نسعى لتلافي أي اتصال مباشر معهم. وبخلاف ذلك من جهة ثانية، يجب أن نمارس عليهم كل الضغط الإقتصادي الممكن، بنفس الوقت الذي يجب ان نستمر فيه بدعم تحالفهم مع سوريا.

وقد حدد الاتفاق مع الجانب الأميركي، أنه على الكويت تلافي أي تصريح علني ضد إيران، وبالمقابل تقليص دورها ونشاطها في الإجتماعات العربية المختلفة.

٧) لقد اتفقنا مع الجانب الأميركي، أنه من المهم جداً محاربة المخدرات داخل الكويت، وذلك بعد أن أخبرنا خبراء مكتب المخدرات في الوكالة، أن جزءاً كبيراً من الرأسمال الكويتي، يُستعمل لتشجيع تجارة المخدرات في باكستان وإيران. وأن نموّ هذه التجارة له انعكاسات كارثية على مستقبل الكويت.

٨) لقد وضع الجانب الأميركي بتصرفنا خطاً هاتفياً خاصاً، لتشجيع التبادل السريع للأفكار والمعلومات التي تتطلب اتصالات مكتوبة.

إن رقم خط الهاتف الخاص العائد للسيد وليم وبستر هو التالي: ٦٥٩ـ ٥٢٤١ (٢٠٢).

إنني انتظر توجيهات سمّوكم. وابعث لسمّوكم بأفضل التحيات.

العميد فهد أحمد الفهد

مدير عام

مديرية الأمن الوطني

الفهرس

من الكتاب

عندما غزا صدام حسين الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ كنت قد بدأت بقضاء عطلتي السنوية في جزيرة نتوكت الواقعة قرب ساحل ماساشوستس. فاتصل بي قسم الأخبار الخارجية لشبكة إي بي سي للأخبار في مساء الأول من أغسطس ليخبرني عما حدث. وبالرغم من أنّ عطلتي امتدت اسبوعين آخرين فقد أخذت أتصل بمصادري الشرق أوسطية وأزود الشبكة بالمعلومات. وتبين أن المعلومات التي جمعتها خلال الأيام القليلة الأولى صحيحة تماماً.

وكنت قد أشرت فيها إلى أن صدام حسين سوف يستخدم رهائن غربية كترس بشري يحمي المواقع العسكرية الرئيسية، وإلى أنه سوف يطلق صواريخ سكود على السعودية وإسرائيل، وأن الملك حسين وياسر عرفات يقومان وراء الكواليس بمفاوضات تهدف إلى التغلب بسرعة على الأزمة. وعدت إلى لندن ثم توجهت إلى الشرق الأوسط ومكثت هناك عدة شهور زرت خلالها الأردن والعراق وسوريا وتونس. وكنت في تلك الأثناء على اتصال بمصادر الأخبار في مصر والسعودية والكويت.

وأدت اتصالاتي التي كانت في الغالب بأعلى المستويات الميسرة إلى اكتشاف المخططين اللذين يؤلفان نص هذا الكتاب وهما: ما الذي حدث بين نهاية الحرب العراقية الايرانية في الثامن من أغسطس ١٩٨٨ وغزو الكويت في الثاني من اغسطس ١٩٩٠ والأحداث التي دفعت صدام حسين إلى القيام بالغزو، وكيف سعى العالم العربي جاهداً إلى حل المشكلة بسرعة وخصوصاً بواسطة الملك حسين. لكن الجهود العربية اصطدمت بضغط حكومة الولايات المتحدة الأميركية على الدول العربية لكي تندد بالغزو.

موضوع هذا الكتاب ليس الحرب. إنه يبين لنا أنه كان في الإمكان تجنب الحرب. فلدى نظرنا في الأزمة صار من الواضح أن قلة من الأقطار التي انضمت إلى التحالف المناهض للعراق كانت راضية عن دكتاتورية صدام ووحشيته، وعليه فإنها لم تكن في الحقيقة تحبذ حلاً سلمياً يسمح ببقائه في الحكم واحتفاظه بأسلحته. لكن هذا الكتاب يبين لنا أيضاً أن الغرب والاتحاد السوفييتي اللذين اجتمعا على مناهضة العراق هما المسؤولان عن تسليحه. ومن الواضح أيضاً أن الولايات المتحدة كانت منذ بداية عام ١٩٩٠ توجه إلى العراق رسائل مختلفة تقنعه بأن قيامه بعمل عسكري ضد الكويت لن يدفع الولايات المتحدة إلى الانتقام منه. وكان كل من صدام حسين والأميركيين لا يفهم أحدهما الآخر وعقليته. ولم يدرك صدام حسين معنى تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، فعندما غزا الكويت كان مقتنعاً بأنه إذا تدخلت الولايات المتحدة ضده فإن الاتحاد السوفييتي سيقف إلى جانبه. وظل مدة طويلة لا يصدق تهديدات الرئيس بأن التحالف الذي يتزعمه الأميركيون لن يوافق على بقائه في الكويت. وكانت النتيجة اندلاع الحرب.